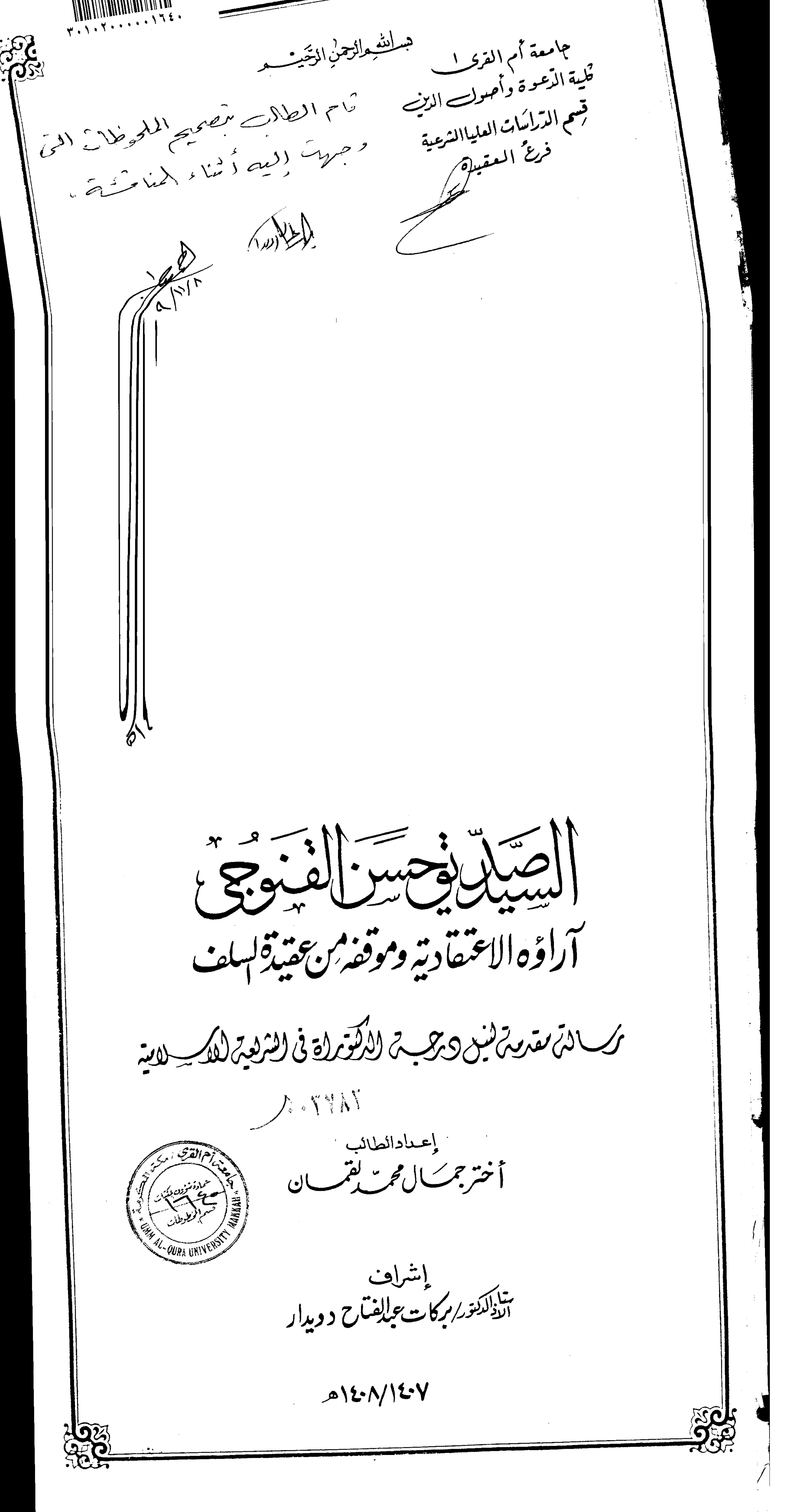




بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

قام الطالب بتصحيح الملحوظات التي وجهت إليه أثناء المناقشة.

# السيد صديق حسن القنوجي

## آراؤه الاعتقادية وموقفه من عقيدة السلف

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الشريعة الإسلامية



إعداد الطالب
أختر جمال محمد لقمان

إشراف
الأستاذ الدكتور/ بركات عبد الفتاح دويدار

١٤٠٧/١٤٠٨هـ

قال تعالى :

ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

" الشورى ١١ "

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب

" آل عمران ٨ "

# شكر وتقدير

أتوجه قبل كل شئ الى الله سبحانه وتعالى بالحمد والشكر على توفيقه وعونه لى لاتمام هذا البحث، واظهاره الى حيز الوجود ،

ثم انى لأتوجه بجزيل الشكر والعرفان الى فضيلة أستاذى المشرف على هذه الرسالة الدكتور / بركات عبد الفتاح دويدار على ما أولانى من توجيهاته القيمة وآرائه السديدة ، ولم يقتصر لقائى معه على ساعات الاشراف المخصصة من قبل الجامعة ،بل أعطانى حفظه الله من وقته الثمين الكثير، ولم يبخل علي بنصيحة أو فائدة علمية ،فله مني خالص الشكر والتقدير،

كما أتقدم بالشكر للقائمين على عمادة كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ، وعلى رأسهم معالى الدكتور راشد راجح الشريف ــ مدير الجامعة ــ حفظه الله ،

وأشكر أيضا جميع من ساعدني فى انجاز هذا البحث، جزاهم الله خيرا ، انه ولي التوفيق .

# المقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ،

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ،

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون " ( ١ )

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا " ( ٢ )

" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما " ( ٣ )

أما بعد :

فقد بعث الله تعالى نبيه وحبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة عالمية ، رسالة الاسلام ، وأكمل به الدين كما قال : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " ( ٤ )

---

١ - آل عمران : ١٠٢
٢ - النساء : ١
٣ - الأحزاب : ٦٩ - ٧٠
٤ - المائدة : ٣

قام صلى الله عليه وسلم بتبليغ دعوة ربه الى الناس كافة ، ودعاهم الـــى توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وافراده بالألوهية والربوبية ، وأيقظ فطرهم ومشاعرهم ، ولفت أنظارهم الى عظيم خلق الله وقدرته ، مبينا أن العبادة الحقة لا تنبغى الا لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، لا المعبودات الباطلة العاجزة التى لا تملك نفعا ولا ضرا ، لا لنفسها ولا لغيرها ، كما حارب الشرك محاربة شديدة بشتى أنواع الوسائل ، مع بيان الضرر وســـوء العاقبة لهم ان تمادوا فى غيهم وضلالهم .

فوفق الله تعالى لاجابة دعوته المباركة من شرح الله صدره للايمان ، وقد مضى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون على عقيدة واحدة ، ظلـــت - بفضل الله - فى صفائها ونقائها ، كما جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله ، وهكذا عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الذين أدركوا زمان الوحى ، تجمعهم عقيدة واحدة خالصة عن شوب الأكدار .

يصور لنا ابن القيم - رحمه الله - ما كان عليه الصحابة من اتفاق فـــى مسائل العقيدة ، يقول : " قد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة ايمانا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فـــى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على اثبـــات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة ، من أولهم الى آخرهم ، لم يسوموهـــا تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشئ منها ابطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها واعجازها ، ولم يقل أحد منهـــم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالايمان والتعظيم " (١)

---

١ - أعلام الموقعين ١ : ٤٩

وفى هذه الصورة المشرقة عاش المسلمون الأوائل فى ظل الدين الحنيف سعداء ، وسطروا أروع الأمثلة فى المجالات كلها ، الا أن مجريات التاريخ أحدثت أمورا تحطمت بها تلك الوحده ، لا سيما بعد ظهور مدرسة علم الكلام ، ومن ثم نجم الخلاف فى صفوف المسلمين ، وظهرت الفرق التى كانت لها آراء غريبة ، فكثر القول فيما يتعلق بأمور العقيدة ، وتكتل دعاة التعطيل ورفعوا راية التأويل ،

وبجانب هذا ، كان لترجمة كتب المنطق والفلسفة اليونانية أكبر أثر فى زعزعة المفاهيم والأفكار ، وارتدى أتباع هذه البدعة الممقوتة أقنعة مزخرفة - تحت ستار العقل - ما يكفى لتضليل كثير من الناس ، فابتعدوا بذلك عن المصدر الأصيل كتاب الله وسنة رسوله ،

الا أن الله قيض للأمة الاسلامية علماء مخلصين أمثال الامام أحمد بن حنبل وشيخ الاسلام ابن تيميه وابن القيم وغيرهم الذين كانوا لهم بالمرصاد ، فندوا حججهم ، وأبطلوا دعاويهم ، وعلى هذا النمط قد سار القنوجى لتأثره بعلماء السلف ، وبالأخص شيخ الاسلام ابن تيميه وابن القيم ، ولهذا اخترته موضوعا لرسالتى للدكتوراه وجعلت عنوانها : " السيد صديق حسن القنوجى ، آراؤه الاعتقادية وموقفه من عقيدة السلف "

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع هو ان الهند[1] - يعلم ذلك من له أدنى المام بالتاريخ الاسلامى - كانت حلقة ذهبية مهمة من حلقات العالم الاسلامى ، وقد مثلت دورا عظيما ذا شخصية مميزة فى الفكر الاسلامى والعلوم الاسلامية ، وغاصت الهند فى بحر العلوم الدينية ، اذ كانت من

١- أقصد بالهند هنا " القارة الهندية " قبل تقسيم الهند والباكستان وبنجلاديش .

أقوى الحصون والمعاقل وأمتنها للعناصر الاسلامية الكريمة ، ومن أعذب الينابيع وأوسعها لمعرفة الاسلام وبحثه ، ولم يزل علماء المسلمين في الهند - الى اليوم - عاكفين على الدرس والتأليف وبث الوعى الاسلامي ، لكنها لم تأخذ حظها من البحث عند كثير من العلماء والمؤرخين في العالم فلم يطلعوا على فحول علماء الهند ونوابغ رجالها الذين بذلوا حياتهم في احياء علوم الدين ، وعلى خدماتهم العلمية التى تكتب بماء الذهب على مر الدهور ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء المصلح السيد صديق حسن القنوجي الذى كانت مؤلفاته صورة صادقة للعودة لما كان عليه سلف الأمة وأئمتهم ، إلّا في بعض المسائل يميل فيها الى الأشاعرة ، وذلك أنه كان يحسن الظن بهم في بعض الأحيان ويستدل من عباراتهم ويرجح مذهبهم ، ظانا أنه مذهب السلف ، كما ترون فيما بعد ،

ومن ثم وجدت عندى رغبة في الكشف عن شخصية القنوجي ومذهبه فيما يتعلق باصول الدين ،

والحق ان حياة هذا العالم كانت مليئة بخدمة الدين وأبنائه ، ومما امتاز به أنه تصدى للتيارات المعاصرة يرد عدوانها عن الاسلام اذا عرف فيها شئ من العدوان ، وكان يتحسر ويتألم لسوء الأحوال وفوضى الحكم وانسداد باب الدعوه الى الحق وتسلط الاستعمار البريطاني الغاشم في ذلك الوقت على الهند ، وذهاب العلم وفشو الجهل ومحاولة القضاء على السنة مما أثر في بناء شخصيته وجعله داعيا غيورا ،

والمشاكل التى واجهتني في هذا الصدد ، هى :

١ - قلة المراجع ،

٢ - صعوبة الحصول على بعض كتب القنوجي التي طبعت في حياته ، ولم يجدد طبعها ، وأصبحت نادرة ولا تكاد توجد الا بعد عناء ومشقة ،

٣ - بعض المراجع كانت في اللغة الأردية والفارسية ولتذليل هذه الصعوبة قمت بالسفر الى كل من الهند والباكستان ، وزيارة المكتبات والمراكز العلمية ، والاتصال بالباحثين هناك ،

وبذلت جهدا جاهدا في احضار المراجع ، حتى استطعت كتابة هذه الرسالة التي أقدمها الى كلية الدعوة وأصول الدين ،

أما المنهج الذي سرت عليه في هذه الرسالة فهو كالآتي :

١ - حاولت عرض آراء الفرق الأخرى في القضية المطروحة باختصار ، وذلك عن مصادرها الأصيلة ، ونادرا ما أستعين بمؤلفات غيرهم الذين كتبوا عنهم ، حيث لا أجد في كتبهم المتوفرة ما أطلبه من معلومات ،

٢ - أتناول بعد ذلك الحديث عن رأي القنوجي في المسألة ، مع ذكر الأدلة التي اعتمد عليها القنوجي ،

٣ - أعقب بعد ذلك على القنوجي بذكر موافقته للسلف أو مخالفته مع ذكر أقوال علماء السلف ومن وافقهم تكميلا للفائدة ،

٤ - خرجت الأحاديث والآثار الواردة في البحث ،

٥ - ترجمت لكثير من الأعلام وأغفلت بعضهم نظرا لشهرتهم ،

وقد جاءت الرسالة مشتملة على مقدمة وأربعة أبواب :

أما المقدمة : فقد تناولت فيها أهم الدوافع التي حملتني على الكتابة في هذا الموضوع ، والمنهج الذى سرت عليه ،

وأما الباب الأول : فقد عقدته للتعريف بالقنوجي ، وقسمته الى ستة فصول :

الفصل الأول : عصر القنوجى ، وقد تحدثت فيه عن الحالة السياسية والعلمية والاجتماعية ،

الفصل الثانى : سيرته ، وقد تحدثت فيه عن اسمه ونسبه وأسرته ومكان ولادته ونشأته ،

الفصل الثالث : نشأته العلمية ، وقد تحدثت فيه عن دراسته وأساتذته وشخصيته ،

الفصل الرابع : قيامه بأعمال جليلة ، وقد تحدثت فيه عن نشره الكتب وتوزيعها مجانا ، وتشجيعه العلماء والطلاب ، وتأسيسه مجلسا علميا ، وقيامه بانشاء المدارس والمعاهد والمكتبات والمطابع وغيرها من الاصلاحات العامة ،

الفصل الخامس : ثقافته ومؤلفاته ، وقد تحدثت فيه عن مكانته العلمية ، وميزاته فى التأليف ،

الفصل السادس : منهجه فى اثبات العقائد ، تكلمت عن منهجيته السلفية والتزامه بأخذ العقائد من أدلتها الشرعية دون تأويل أو تعطيل ،

الباب الثانى : فى وجود الله وصفاته

وجاء فى خمسة فصول :

الفصل الأول : منهجه فى اثبات وجود الله ، بينت فيه المسالك المخالفة لمنهج السلف ، ثم تحدثت عن المسالك التى سلكها القنوجى ،

الفصل الثانى : الوحدانية وابطال الشرك والعبادات الوثنية ، فقد تحدثت فيه عن معنى الوحدانية عند القنوجى ، وتقريره لمذهب السلف ، مع بيان أنواع التوحيد ،

الفصل الثالث : صفات الله عز وجل والرد على المذاهب الباطلة فيها ، عرضت فيه آراء المذاهب المخالفة لمذهب السلف ، ثم تحدثت فيه عن ما ذهب اليه القنوجى فى الصفات ، كما فصلت القول فى صفة الكلام والاستواء واليد والرؤية ، وأوضحت رأى القنوجى فيها ،

الفصل الرابع : القضاء والقدر ، وقد تحدثت فيه عن خلق الله أفعال العباد ، وذكرت الآراء التى اشتهرت حولها ، وبينت أن أفعال العباد مخلوقة ومقدرة لله تعالى ، وأن العباد فاعلون حقيقة لأفعالهم ، كما تحدثت عن الهدى والاضلال والاستطاعة والتكليف بما لا يطاق ، ومسألة اللطف والأصلح والحسن والقبح العقليين ،

الفصل الخامس : الايمان ، وقد تحدثت فيه عن حقيقة الايمان ، .. واستعرضت آراء الفرق فيه ، كما تحدثت عن زيادة الايمان ونقصانه والاستثناء فيه ، وعلاقته بالاسلام ، وحكم مرتكب الكبيرة ، وبينت أن ما ذهب اليه القنوجى هو امتداد لمذهب السلف ،

الباب الثالث : فى النبوات ،

وقسمته الى أربعة فصول :

الفصل الأول : الحاجة الى النبوة ، تحدثت فيه عن حاجة البشرية الى الرسل فى معرفة ما يتعلق بالله وصفاته واليوم الآخر ، وأن النبوة نعمة أنعم الله بها على الانسان ، كما ذكرت أن بعض الفرق أنكرت النبوة ، .. وبعضها أوجبوا الارسال على الله تعالى ،

الفصل الثانى : المعجزة ، والفرق بينها وبين الكرامة ، تحدثت فيه عن المعجزة والكرامة ، واتبعت ذلك نقد القنوجى على الذين أنكروا الكرامة ،

الفصل الثالث : العصمة ، تحدثت فيه عن عصمة الأنبياء عليهم السلام ، وذكرت الآراء فيها ، ثم اتبعت رد القنوجى على المخالفين لرأى السلف ،

الفصل الرابع : اثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، تحدثت فيه عن دفاع القنوجى عن ذلك ، مع دحضه جميع الشبه التى رددها المشركون ، والادعاءات التى أدخلها بعض المسلمين على الاسلام ، ثم أتى بأدلة واضحة قوية على اثبات النبوة ، كما تناول معجزاته صلى الله عليه وسلم المعنوية والحسية ،

الباب الرابع : اليوم الآخر

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : تحدثت فيه عن النفس ، وبينت فيه آراء الفرق ، ثم ذكرت رأى القنوجى فى حقيقة النفس ، ورده على المخالفين فى ضوء الكتاب والسنة ،

الفصل الثاني : نعيم القبر وعذابه ، ذكرت فيه بعض آراء المنكرين ، ثم بينت ما أثبت القنوجي في هذه المسألة من صواب ،

الفصل الثالث : البعث ، بينت فيه معنى البعث ، ثم عرضت آراء المذاهب في هذه المسألة ، وبعد ذلك ذكرت موقف القنوجي ، وبينت أنه اتخذ من آيات الله البينات دليلا في الرد على المخالفين ،

الفصل الرابع : الصراط والميزان ، تكلمت عن اثباتهما عند القنوجي مع نقده المخالفين لمذهب السلف في هذه الأمور ،

الفصل الخامس : الجنة والنار ، ذكرت فيه بعض الآراء ، ثم تحدثت عن رأى القنوجي فيهما ، وبينت أنه استشهد في هذه المسألة بآيات الله وسنة رسوله وأقوال علماء السلف ،

الخاتمة : ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها في الرسالة ، وبعد ذلك الحقت بالرسالة فهارس تفصيله وتشتمل :

أ - فهرس الآيات القرآنية .

ب - فهرس الأحاديث النبوية .

ج - فهرس المصادر والمراجع .

د - فهرس الموضوعات .

وقد بذلت كل جهدى وطاقتي حتى توصلت به الى هذا المستوى ، وأنا أعترف أنه لم يبلغ حد الكمال ولا قاربه ، ولكنه على كل حال جهد ليس بالقليل أرجو من الله تعالى أن ينفع به طلاب العلم ،

اختر جمال لقمان

١٤٠٨/٧/٢٩هـ .

# البـــاب الأول

## حيـــاة القنوجي

فيــــه فصـــول :

# الفصل الأول

## عصر القنوجي

١ ـ الناحية السياسية

٢ ـ الناحية الدينية

٣ ـ الناحية الاجتماعية

عصره من الناحية السياسية :

عاش السيد صديق حسن خان القنوجي - رحمه الله - في الفترة الواقعة ما بين عام ١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ ( ١٨٣٢ - ١٨٩٠م ) وفي ذلك الوقت سنحت له الفرصة ليشهد شوكة دولة المغول الأخيرة ورقيها ، فالعين التي رأت فخامة الدولة وشوكتها وجبروتها ، رأت أيضا تحطيمها واستئصالها ، رؤية الاعتبار التي تنشق منها القلوب ، فمن هذه الوقائع المتضادة اجتمعت فيه التجارب والعبر والبصائر التي وسعت عليه سبل العلم ، (١)

وأدرك دولة المغول المذكورة في عهد انحطاطها وسقوطها ، وهو عصر أبي ظفر سراج الدين محمد بهادر شاه آخر ملوك المغول ، الذي قضى على ملكه الانجليز ، الذين دخلوا الهند باسم التجارة في سنة ١٦٠٠م في عهد الملك ظهير الدين بابر ( ٨٨٧ - ٩٣٧هـ ) (٢)

وفي أخريات أيام بهادر شاه الآنف ذكره اندلعت ثورة عظيمة عنيفة أفضت الى المعارك الهائلة ، ولكن انتهت مع الأسف الشديد بتغلب الجيوش البريطانية على قوات الامبراطورية المغولية ، فتشتت شمل المسلمين وتفرق جمعهم ،

وقتل أولاد الملك شر قتلة باطلاق النار عليهم في الطريق ، وهم مساقون الى محبسهم ، ولم يكتفوا بهذا ، بل ذبحوهم وتركوا جثمانهم في الطريق ، ثم سولت لهم نفوسهم حتى تجاوزوا كل حدود التمثيل بالقتلى ،

---

١ - مآثر صديقي ٢ : ١٣

٢ - هندوستان شاهان مغلية كے عهد بين ص : ٩٥

وعند ما قد موا الطعام للملك في سجنه وضعوا رؤوس الأولا د في صحـــاف الطعام المغطاة ، فلم يجد طعاما بل وجد رؤوس أبنائه وقد غطيت وجوههم بالد م الأحمر القاني ، فيقول الملك : في رباطة جأش غريبة : ان أولا د التيموريين البواسل يأتون هكذا الى آبائهم محمرة وجوههم ، (١)

وأسر الملك وقد م الى المحكمة العسكرية ، فاصدرت البيان باجلائه ، فنفي هو وأهله الى " رنغون " (٢) بذل وهوان وتحت حراسة شديدة ، وكان في محبسه بحجرة ضيقة ، وقد جرد وه من كل شئ حتى الورق والقلم ، وبقـــى هناك سجينا طول حياته الى أن وافته المنية يوم الجمعة ١٤/٥/١٢٧٩هـ الموافق ٧/١١/١٨٦٢م ٠

ثم ان الشدائد والأهوال التي مارستها الجيوش البريطانية على مسلمـــي الهند كانت من أبشع الهمجية التي يندى لها جبين الانسانية ، فقد قتلـــوا سبعا وعشرين ألف نسمة خلال أسبوع واحد في دلهي ، من رجال ونســـاء وأطفال لم يبلغوا الحلم ، حتى قيل : ما من زقاق من أزقة العاصمة الا وتوجد فيه الجثث المرمية كالحجارة ، (٣)

هذا وقد هد موا مئات المساجد وأغلقوا بعضها الاخر ، كما هد موا بيوت الأمراء بعد قتلهم ، حتى صارت المدينة خاوية على عروشها ،

فهذه المأساة والهمجية قد تسببت في تغلب الأعداء البريطانيين ، وأدت الى تغيير المملكة المسلمة التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي

---

١ - تاريخ الاسلام في الهند : ٤٥٠ ، ١٨٥٧ باك وهندكي بهلى جنك آزادى : ١٩٥ ، احمرار الوجه كناية عن الظفر والانتصار ،

٢ - عاصمة بورما

٣ - ١٨٥٧ باك وهندكي بهلى جنك آزادى : ١٩٥ ، الهند في العهد الاسلامي : ٢٩٤ ، تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند : ١٨ شاه ولى الله كے سياسى مكتوبات ص : ١٤

الى مملكة غير مسلمة على أيدى المستعمرين ، واندرست معالم الملوك ،فحزن المسلمون لزوال ملكهم العظيم ، بل أنساهم كل مصيبة ، وأصابهم غم لم يفارقهم حتى الآن ، (١)

هذه المظالم والمحن التى صبتها الجيوش على سكان الهند والتى لا تساعد الالفاظ على التعبير عنها من قتل وخنق وحرق وشنق ونفى واجلاء واعتداء على ربات الحذور ، قد رآها القنوجى - رحمه الله - وتركت أثرا بليغا فى نفسه ، وجعل الانجليز بعد ما تمكنوا فى الهند يحاولون بل يبذلون جهودهم لاستئصال شوكة المسلمين والقضاء عليهم ،

وكان والد القنوجى المجاهد الكبير السيد أولاد حسن ، (٢) قد جاهد السيخ (٣) والاستعمار مع الامام المصلح السيد أحمد الشهيد ،(٤) والامام

---

١ - لقطة العجلان ص : ٢٣٠ ، علماء هند كاشاندار ماضى ٤ : ١٧

٢ - ستأتى ترجمته ضمن " أسرته "

٣ - طائفة بالهند ، ومؤسس هذه الفرقة "كرونانك" الذى ولد عام ١٤٦٩م وكان هدفه هو الدعوة الى المساواة والأخوة بين الناس ، وكان دينه مزيجا من الاسلام والبوذية ،
وتعتبر هذه الفرقة بعد قتل كروأرجن ديو - أحد زعماء سيخ الذى قتل على يد حكام المسلمين اثر تنازع عقدى - من أكبر الفرق التى تعرف بالعداء الشديد للمسلمين ،

دائرة المعارف الاسلامية ، دائرة المعارف للبستانى ، اردو دائرة المعارف ( سيخ )

٤ - هو قامع الكفرة والمبتدعين السيد احمد بن عرفان الشهيد ، ولد فى بلدة بريلى سنة ١٢٠١ ، وجاهد السيخ والانجليز فى سبيل الدعوة واعلاء كلمة الله ، واستشهد سنة ١٢٤٦هـ ، نزهة الخواطر ٧ : ٢٧ ، اذا هبت ريح الايمان ص : ١٣ وما بعدها ، سيد احمد شهيد ،

المجدد الشاه اسمعيل الشهيد (١)، فى الوقائع المختلفة، (٢) وبعد استشهادهما شمر القنوجي لنشر التوحيد والسنة ولجهاد الاستعمار، ولربما كان فى مقدمة ما هداه الى ذلك تلك النهاية المحزنة التى انتهت اليها الامبراطورية المغولية والتى المعنا عنها فيما سبق،

عصره من الناحية الدينية والعلمية :

الحالة الدينية كانت أسوأ من الحالة السياسية بل فى غاية السوء، ففى هذه الفترة انتهزت ارساليات التنصير الفرصة لتضليل المسلمين، وقد استطاعوا أن يضموا اليهم ضعفاء المسلمين وجها لهم لينجحوا فى مقصدهم، كما أن الأعداء البريطانيين غرسوا شجرة القاديانية (٣)، وفتنة انكار حجية السنة (٤)، ومن العجب إن المبتدعين والخرافيين من المسلمين هم الذين

---

١ - هو محمد اسماعيل بن عبد الغنى ابن الشاه ولى الله الدهلوى، من العلماء البارزين الذين جاهدوا فى سبيل الدعوة والدفاع عن العقيدة السلفية (١١٩٣ - ١٢٤٦هـ) انظر : تراجم علماء حديث هند ص : ٩٠، مقدمة تقوية الايمان، هندوستان كى سلاطين، علماء اور مشائخ كى تعلقات بر ايك نظر ص : ١١٠

٢ - أهل حديث اور سياست ص : ١٠٥، جماعت مجاهدين ص : ١١٧

٣ - القاديانية نسبة الى مرزا غلام احمد القاديانى، والدراسات التى قامت بشأنها كثيرة، والتطويل فى بيانها قد يكون خروجا عن البحث، لكنا نذكر أهم الأكاذيب التى حاولوا ترويجها منها : ادعاؤه بأنه المسيح الموعود، ثم انه رسول الله كما ادعى نسخ بعض الأحكام، الفكر الاسلامى الحديث ص : ٤٤ - ٤٧، فرقة أهل القرآن ص : ٢٢ القاديانية

٤ - مؤسس فتنة انكار حجية السنة فى الهند هو السيد احمد خان (١٨١٧-١٨٩٧م) وجراغ على (١٨٤٤ - ١٩١٤) ثم سار على منوالهما عبد الله جكرالوى (٠٠٠٠٠ - ١٩١٤) وأخيرا نظم هذه الفتنة ورتبها أسلم جيراجفورى (١٨٨٠ - ١٩٥٥)، سنت كى آئينى حشييت ص : ١٦،

آووهم ونصروهم فى مهمتهم الخبيثة ، فسبب ذلك النفاق بروز القومية الهندية ، (١)

لا شك ان المسلمين كانوا أكبر أعداء الاستعمار ، ولذا جعلهم الانجليز هدفا وعرضة يعذبونهم ويعطرونهم شتى أنواع المظالم والشدائد مما أفضى الى تفريق صفوف المسلمين وتشتت كلمتهم ، بل ان هؤلاء الأعداء المستعمرين قد أفقروهم وجعلوهم عالة وقوضوا حياتهم الاقتصادية ، وسدوا عليهم أبواب الرزق وحجزوا أملاكهم وأراضيهم ، (٢)

هذه المضايقات التى ذكرناها آنفا ، ساعدت المسيحيين والفرق الباطلة فى حركاتها التنصيرية للمسلمين ، وزاد الجو ظلمة اثر فتح المعاهد والمدارس التنصيرية فى أنحاء الهند ، وذلك بعد ما قرروا منهجا تعليميا ينفر المسلمين عن الاسلام ، فابتعدوا بذلك عن دينهم القويم ، (٣)

هذا وان المسلمين كانوا بعيدين عن الكتاب والسنة ، بل كانوا منغمسين فى بحر التقليد الجامد والبدع والخرافات ، ولم يتذوقوا عذوبة الدين وحقيقته ، لتأثرهم بثقافات الهند والفرس والترك التى ازدهرت فى ولاة المغول،

كما يقول القنوجي : " وعمدة بضاعتهم اليوم هى الفقه الحنفى على طريق التقليد دون التحقيق ، الا ما شاء الله فى أفراد منهم ، ولأجل هذا يتوارثه أولهم عن آخرهم ويتناقله كابرهم عن كابرهم حتى كثرت فيهم الفتاوى والروايات، وعمت البلوى بالتعامل مع هذه التقليدات ، وتركت النصوص المحكمات وهجرت سنة سيد البريات ، ورفض عرض الفقه على الحديث ، وتطبيق المجتهدات بالسنن ،

---

١ - مقالات سرسيد ٥ : ١٤٠ ، الفكر الاسلامى الحديث ص : ٤٥ ، علماء حق ص : ٥٥ ،

٢ - ١٨٥٧ پاك وهند كى پہلى جنك آزادى ص : ٢١٢ ، مجلة صوت الجامعة ص : ٥٣ ( ذو القعدة ١٣٩٠هـ )

٣ - انظر مقالات سرسيد احمد خان ٥ : ١٤٠

ودرج على ذلك زمن كثير " (١)

---

(١) الحطة فى ذكر الصحاح الستة ص : ١٤٥، وانظر الثقافة الاسلامية فى الهند ص : ١٢، تاريخ الدعوة الاسلامية ص : ١٥

عصره من الناحية الاجتماعية :

وأما بالنسبة للأخلاق التى عليها مدار حياة الأمة وقوامها ، ولها الدور الأكبر فى صلاح الأمة ، فكانت مضطربة وسيئة جدا ، بل توارثوا الحمق .... والجهالة وسوء الخلق من سلطة البريطانيين وصولتهم ، وسوء العادات عندهم هو منتهى الأخلاق ، كما صور ذلك القنوجى حيث يصف الناس فى عصره :

" وبرزت فى أناس هم الأوغاد السفهاء ، وولدت فى عصر طغى فيه أهل البدع على أهل الاتباع ، وخفى فيه أصحاب الفضائل والكمال ، ومن كان منهم نادرا فله الصداع ، وجئت فى دهر غلب على أهله حب المال على الكمال ، وفاق شره على خيره بلا احتيال ، وطمس فيه أعلام الدول الاسلامية ، وظهر فيه رايات الفرق الكفرية ، وكل حين يزداد ذلك قوة ورفعة ، ويندرس معه الاسلام وأهله ،

واستطرد قائلا : " وظهرت الفتن ، وعمت المحن ، وذهبت القوة والمنن ، وأطلق أفراخ الفلسفة وأوساخ الدهرية ، ألسنتهم طعنا فى الدين وهضما للمسلمين ، وفشى الكذب ، وأشرب فى قلوب الخلق حب العجل ، ترى الناس زيهم زى الأحباء ، وهم ببواطنهم أعدى الأعداء ، ميلهم فى تكثير المآكل والمشارب ، والملابس والمراكب والمساكن ، والمنتزهات وتحسينها فوق ميلهم الى تحصيل العلم وكسب الفضائل والكمالات ، الى أن رفضوا ما كان عليه سلفهم ، وأئمة خلفهم من العض بالنواجذ على الدين " (١)

---

١ - التاج المكلل ص : ٥٤٨

وقد كان شرب الخمر علنا جهارا ، وكانت الأعياد والأعراس عبارة عن اراقة الخمر والرقص والغناء ، وكبار رجال الدولة كانوا يحضرون مكاتبهم وهم سكارى ، حتى ان جرار الخمر كانت توضع على قبور الصلحاء ويدمنون في المساجد ،

والبغاء والزنا وهو الطامة الكبرى كان جهارا لكسب المعاش ،

والقمار والتعامل الربوى والرشوة كان شائعا ، وغير ذلك من العادات السيئة التى سأذكر عند ذكر الاصلاحات التى قام بها القنوجى ،

وان الأمة قد نسيت تماما واجبها فى مجال الدعوة والارشاد ، وتجاهلت الأهداف والمبادئ السامية التى اخرجت لتحقيقها ، فشاعت عبادة القبور وتقديم النذور للاموات وغيرها من الأفعال الشركية ،

هذا وقد كان للعلماء قبل القنوجى دور كبير فى العمل على نهضة الأمة ، فما من عصر الا وكان فيه مجاهدون مخلصون كأمثال السيد أحمد الشهيد والشاه اسماعيل الشهيد وغيرهما الذين ضربوا لنا أروع مثال فى الدفاع عن العقيدة الاسلامية الصافية ، والقضاء على البدع والمنكرات والعادات الوثنية ، وانقاذ المسلمين من التقاليد الباطلة التى تسربت الى حياتهم ، (١)

---

١ ـ انظر تاريخ الدعوة الاسلامية ص : ٢١١

# الفصل الثاني

## سيرة القنوجي

١ ـ اسمه ونسبه

٢ ـ أسرته

٣ ـ والده

٤ ـ أمه

٥ ـ شقيقه

٦ ـ مولده ونشأته





## اسمـــه ونسبـــه :

هو أبو الطيب صديق بن حسن بن على الحسينى البخارى القنوجى ،

ولنسبه شرف كبير حيث ينتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما يقول :

" أنا صديق بن حسن بن على بن لطف الله بن عزيز الله بن لطف على بن على أصغر بن سيد كبير بن تاج الدين بن جلال رابع بن سيد راجو شهيد بـــن سيد جلال ثالث بن حامد كبير بن ناصر الدين بن محمود بن جلال الديـــن بخارى بن أحمد كبير بن جلال أعظم بن على مؤيد بن جعفر بن احمد بـــن محمد بن عبد الله بن على أشقر بن جعفر زكى بن على نقى بن محمد تقـــى بن على رضا بن موسى كاظم بن جعفر الصادق بن محمد باقر على زيـــن العابدين بن حسين سبط بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)

## أسرتـــــه :

نزحت هذه الأسرة من بلاد العرب عن طريق بخارى الى الملتان بالهند (٢) ،

وتتسم هذه الأسرة بالذكاء والوجاهة والجاه والنجابة وخاصة بالعلم والشرف (٣) ،

## والـــــده :

هو السيد أولاد حسن بن أولاد على بن لطف الله الحسينى البخـــارى القنوجى ، ولد - رحمه الله - سنة ١٢٠٠هـ فى قنوج (٤) ،

---

١ - ابقاء المنن ص : ٧

٢ - وهى المدينة العظيمة التى فى أعلى رافد من روافد السند ، بلدان الخلافة الشرقية ص : ٣٦٩ ، معجم البلدان ٥ : ١٨٩ ، وهى الآن مدينة مشهورة فى ولاية بنجاب بباكستان ،

٣ - نواب صديق حسن خان ص : ٥٥ ، مجلة الأمة ص : ٧٨ ( ذو القعدة ١٤٠٤ )

٤ - عاصمة منطقة الامارة الشمالية بالهند ذاك الوقت ، وهى مشهورة فـــى العطورات والبخورات ، وتقع فى شرق دلهـــى ، الهند فى العهد الاسلامى ص : ٨٥ ، اردو دائرة المعارف ١٦ : ٤٢٣

أخذ أوائل العلوم الدينية من الشيخ العلامة عبد الباسط القنوجي ،وبعد بلوغه سن الرشد لما رأى دولة المغول فى آخر رمق حياتها ،وأن المسلمين يميلون الى البدع والخرافات ، وقف نفسه لاحياء المصدرين الكتاب والسنة واصلاح المجتمع ،

ثم ارتحل الى لكناؤ لحصول مزيد من العلم ، ودرس على الشيخ محمد نور ، والشيخ مرزا حسن على (١) ، ثم سافر فى ١٢٣٣هـ الى دلهى عاصمة العلم والشرف آنذاك ، فتلمذ على الشيخ عبد العزيز (٢) ، والشيخ رفيع الدين (٣) ابنى الشيخ الشاه ولى الله المحدث الدهلوى ، وصحب أمير المؤمنين السيد أحمد الشهيد ، وبايع على يده واستفاض منه ، وسافر معه الى خراسان ، وجاهد فى الله باللسان والعلم والسيف ، وقاتل السيخ والانجليز ، فصار خليفة له فى دعوة الحق الى دين الله تعالى ، (٤)

وكان - رحمه الله - فى التقوى والعمل واتباع الحق آية باهرة ، وقد ترك ارث أبيه الرافضى (٥) الذى كان يبلغ قيمته مئات الألوف لورعه وتدينه ، ولأنه من كسب رجل شيعى ، قائلا : ان الله رزقنى العلم وأغنانى من متاع الدنيا الذى يزول ويفنى ، والعلم لا يزال يبقى ( وفى السماء رزقكم وما توعدون ) وكان يرفض ولائم رجال الدولة ، (٦)

ولم يزل هو مواظبا على الطاعات والعبادات ، شديد التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، عاملا بالدليل ، تاركا التقليد الجامد ، معتصما بكتاب الله ، وكان يتجنب أرباب العقول والفقهاء المتفيهقين ، ويحب اتباع السلف الصالحين

---

١- هو مرزا حسن علي بن عبد العلي اللكهنوى ، أخذ العلم عن الشاه رفيع الدين والشاه عبد العزيز، وكان متبحرا فى الحديث وعلومه مات فى سنة ١٢٥٥هـ نزهة الخواطر ٧ : ١٣٦

٢- هو الشاه عبد العزيز أكبر نجل للشاه ولي الله المحدث الدهلوى ،كان عالما فاضلا عابدا ،وبعد وفاة والده نائبا عنه فى الخلافة والتدريس ( ١١٥٩ - ١٢٣٩هـ ) تراجم علماء هند ص : ٧٤

٣- هو الشاه رفيع الدين شقيق الشاه عبد العزيز ولي الله الدهلوى ،المحقق المتقن ، كانت له خبرة بعلوم الأوائل ،مات فى سنة ١٢٤٩هـ أبجد العلوم ٣ : ٢٤٥

٤- المذكور ٣ : ٢٦٧ ،جماعت مجاهدين ص : ٢٥٥

٥- منسوب الى الرافضة وهى فرقة تفرعت من الشيعة ،وسموا بهذا الاسم لرفضهم زيد بن علي لانه لم يتبرأ من الشيخين ،الفرق ص : ٢٩ ،الملل ١ : ٢٠٩

٦- مآثر صديقي ١ : ٦١

من الصحابة والتابعين ، وقد أسلم على يديه أكثر من عشرة ألف رجل ، (١)
واليه يرجع الفضل في انقاذ أسرته من الرفض وادخالها في مذهب أهل السنة ، (٢)

وقد ألف أربعة عشر كتابا في الحث على التمسك والرد على البدع والخرافات ، منها

١ - الاختصاص ببيان الحدود والقصاص ،
٢ - تقوية اليقين في الرد على عقائد المشركين ،
٣ - نور الوفا من مرآة الصفا ،
٤ - رسالة في معنى الكلمة الطيبة ،
٥ - رسالة في رد التعزية والضريح ،
٦ - رسالة في آداب التذكير ،
٧ - رسالة في آداب البيعة ،
٨ - رسالة في بيان ما أهل به لغير الله ،

توفي - رحمه الله - يوم الخميس سنة ١٢٥٣هـ في قنوج ودفن بها ، (٣)

أمه :

كانت أمه امرأة مثالية تمتاز على أترابها بالتقوى والورع والعلم والفهم والحرص على تربية الأولاد تربية تضرب بها الأمثال ، كيف لا وهي صحبت بيت العلم والعمل ، (٤) وكان من تمسكها بالدين أنها تأمر أولادها بتنفيذ

---

١ - نفس المرجع ١ : ٥٨
٢ - ابقاء المنن ص : ٦٢
٣ - أبجد العلوم ٣ : ٢٦٧ ، الفرع النامي ص : ٥٥
٤ - مآثر صديقي ٢ : ٣

أوامر الدين ، كما يقول القنوجي : " ان أمي كانت تبعثني الى المسجد - وأنا في السابعة من عمري - فلن تسمح أبدا أن أصلي في البيت ، بل ترش الماء على وجهي اذا كنت في سبات عميق " ( ١ )

شقيقه :

هو أخوه الأكبر أحمد حسن العرشي القنوجي ، ولد يوم السبت ١٩/٩/١٢٤٦هـ في قنوج ،

أخذ العلوم الابتدائية في بلده ، ثم رحل الى بلدة كانفور ، فرخ آباد ، بريلي ، عليكره ، ودلهي ، وتتلمذ على المشائخ الأفاضل واستفاد منهم ،

وكان عالما كبيرا وفاق الأقران في الذكاء والفطنة وقوة الحفظ ، وبرع في علم الحديث والفلسفة ، كما يقول القنوجي : " أخونا الكبير كان أساسا محكما للمراتب العليا وقياسا منتجا للفضيلة الكبرى ، ميزان نقد العقليات برهان عدل النقليات " ( ٢ )

وله أشعار رائعة في اللغة العربية والفارسية والأردية ،

وكان يسلك مسلك المحدثين ويحبهم ، وقضى حياته في اتباع السنة ودفاعها ، وقد حفظ الصحاح الستة ، هذا وقد كان اماما في أصول الفقه ، وله باع طويل في الرد على التقليد الجامد ، وصنف في هذا كتابا عديم النظير " الشهاب الثاقب " يقول عنه القنوجي : " هو كتاب لو اجتمع أهل المشرق والمغرب على ابطاله لما قدروا بفضل الله تعالى " ( ٣ )

---

١ - ابقاء المنن ص : ١٤

٢ - أبجد العلوم ٣ : ٢٦٨

٣ - اتحاف النبلاء ص : ٢٢٤

توفى - رحمه الله - بعد خروجه من " قنوج " لأداء فريضة الحج ، لما وصل " برود ه " (١) وافاه الأجل المحتوم اثر مرض الاسهال فى ١٢٧٧/٥/٩هـ ، ود فن هناك ، ولعل الله سبحانه يجعله مشمولا بتلك الرحمة التى أشارت اليها الآية الكريمة :

( ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله (٢) ) (٣)

مولده ونشأته :

ولد القنوجى - رحمه الله - فى بلدة " بانس بريلى " (٤) موطن جده لأمه وقت الضحى يوم الأحد ١٢٤٨/٥/١٩هـ ( ١٨٣٢/١٠/١٤م ) ثم جاءت به أمه الى قنوج موطن آبائه بعد ولادته بأيام ، ولما بلغ السنة السادسة من عمره فقد والده الشفوق وتركه يتيما ، وكان يردد فى كبره قوله تعالى :

( ألم يجدك يتيما فاوى ) (٥) يقول :

" وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يتيما ، ولكن الله جعله خاتما لجميع الأنبياء ، وآتاه دينا مهيمنا على جميع الأديان ، وبوأه مكان الهداية الى السبيل كله ، مع أنه كان أميا ، فقليل من الشبه به شئ عظيم ، والاية

---

١ - دولة سابقة فى ولاية كجرات ، وهى الان مدينة صناعية فى ولاية مهاراشتر ، وتقع فى جهة الشمال من مدينة بومبائى ، أردو دائرة معارف ٤ : ٤٩١

٢ - النساء : ١٠٠

٣ - أهل حديث اورسياست ص : ١٢٧ ، ماثر صديق ١ : ١٠٣ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٣٥

٤ - مدينة فى الولاية الشمالية ، تبعد عن دلهى ١٢٢ ميلا فى جهة الشرق الجنوبى ، وهى مشهورة فى أعمال الخشب ، الهند فى العهد الاسلامى ص : ٨٠ ، اردو دائرة معارف ٤ : ٤٨٧

٥ - الضحى : ٦

المذكورة منطبقة على نفسى " (١)

وربى فى بيئة صالحة متمسكة شديد التمسك بالكتاب والسنة ، وتولت أمه الحنون تعليمه وتربيته منذ نعومة أظفاره ، يقول : "لما بلغت السابعة من عمرى ، وكان المسجد قريبا من البيت ، وأنا فى نوم هادئ فكانت أمى - رحمها الله - توقظنى وتوضئنى وتبعثنى الى المسجد ، ولم تسمح أبدا أن أصلى فى البيت ، وعندما تجدنى مستغرقا فى النوم ترش الماء على وجهى" (٢)

وحسبنا ما ذكرناه عن نشأته لنعرف العوامل التى أثرت فى بناء شخصيته ووجهته توجيها دينيا صالحا .

---

١ ـ ابقاء المنن ص : ٨٩

٢ ـ نفس المرجع ص : ١٤ ، مآثر صديقي ٢ : ٢

# الفصل الثالث

## نشأته العلمية وشخصيته

١ ــ دراسته

٢ ــ ذكاؤه

٣ ــ أساتذته

٤ ــ عقيدته ومذهبه

٥ ــ سعيه فى طلب الرزق

٦ ــ زواجه الأول

٧ ــ أداؤه لفريضة الحج

٨ ــ توليه وزارة التعليم

٩ ــ زواجه الثانى بالملكة

١٠ ــ تلقيبه بلقب " أمير الملك "

١١ ــ التهم التى صبت عليه

١٢ ــ صفاته وأخلاقه

١٣ ــ وفاته

لما بلغ سن الرشد لم ير فى بيته الا مكتبة دينية قيمة تركها أبوه ، وها هو ذا يتحدث عن نفسه ويقول - وهذا هو جل تراثه :

" عند ما كان الشيخ حسينى ( خادم والدى ) يشمس كتبه وكنت صغيرا ألعب بها ، وأقلب أوراقها وأطالع أحيانا ، فأفهم بعض الفقرات ولا أفهم بعضها الآخر ، ومن أجل ذلك مال قلبى الى الدراسة ، وكنت أشتاق دائما الى قراءة الكتب وفهمها ، فما تركت كتابا الا قرأته من أوله الى آخره "( ١ )

دراستـــــه :

بدأ - رحمه الله - دراسته فى مكتب حارته فى قنوج ، فقرأ بعض الكتب الابتدائية ومبادئ الفلسفة وبعض أجزاء القرآن ، وقرأ مختصرات الابتدائية فى النحو والصرف والبلاغة والمنطق على شقيقه الأكبر العلامة أحمد حسن ، ثم سافر الى بلدة " فرخ آباد " ( ٢ ) مع الشيخ أحمد على الفرخ آبادى تلميذ والده ، فدرس هناك " الكافية " لابن الحاجب وشرحها الجامى " على الشيخ محمد حسين الشاهجانفورى ، ودرس فى المنطق " شرح الشمسية " لقطب الدين و " مير قطبى " للجرجانى ، وأفق المبين " و " الدر المختار " و " مشكاة المصابيح " على بعض الأساتذة ،

ثم ارتحل الى بلدة كانفور ( ٣ ) مع تلامذة والده ، فدرس على الشيخ الفاضل محمد محب الله بانى بتى ، والشيخ محمد مراد البخارى ، ولقى

---

١ - ماثر صديقى ٢ : ٣ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٣٧

٢ - مدينة فى الولاية الشمالية ، تبعد عن قنوج ٣١ ميلا ، وتقع - قرب نهر غنغ - فى جهه الغرب من لكناؤ ، اردو دائرة معارف ١٦ / ٤٢٣

٣ - مدينة فى الولاية الشمالية على شاطئ نهر غنغ ، وهى مركز تجارى للأديم ، الهند فى العهد الاسلامى ص : ٨٩

العلماء والمشائخ الآخرين ، لكن دراسته فى هذين البلدين كانت دراسة غير منتظمة ، (١)

بعد ما نهل من مناهل العلم والفنون عزم السفر الى عاصمة الهند دلهى فى سنة ١٢٦٩ هـ للاستفادة من أكابر العلماء ، وهى حينئذ كانت معروفة بثرائها العلمى وبعلمائها الأفاضل ، فتتلمذ على الامام العلامة الشيخ صدر الدين مفتى القارة الهندية ، ودرس فى مدة سنتين تقريبا " مختصر المعانى " كاملا ، وشرح الوقاية ( قسم العبادات ) والهداية ( قسم المعاملات ) فى الفقه الحنفى ، و " التوضيح " فى أصول الفقه الحنفى ، والقطبى وميرقطبى كاملين ، وسلم العلوم مع شروحه ، والقاضى مبارك ، و " ملا جلال " فى المنطق ، و " صدرا " للشيرازى الى بحث ما يعم الأجسام ، والشمس البازغة " و " شرح المواقف " الى بحث الوجود ، وشرح العقائد النسفية ، " ومير زاهد " ، و " شرح المطالع " و " تحرير أقليدس " فى الأقليدس ، والمقامات الحريرية ، والمقامات الهندية ، وبعض الأجزاء من " الحماسة " والنصف من " ديوان المتنبى " و " المعلقات السبع " وتفسير البيضاوى ( سورة البقرة ) وأربعة أجزاء من " الجامع الصحيح " للبخارى قراءة والباقى سماعا ، (٢)

وألف أثناء دراسته بعض الكتب والرسائل ، وعلق على بعضها ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وأجازه المفتى صدر الدين اجازة عامة ، وكتب له شهادة بالتحصيل ، (٣)

---

١ ـ قضاء الأرب ص : ٢٤٦ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٣٧

٢ ـ تراجم علماء حديث هند ص : ٢٣٨ ، ماثر صديقى ٢ : ١١

٣ ـ نزهة الخواطر ٨ : ١٨٨

ذكـــــاؤه :

وكان له رحمه الله التفوق على زملائه فهما وعلما ودراسة كما نص عليه استاذه العلامة صدر الدين في شهادته : " المولى السيد صديق حسن القنوجي له ذهن سليم وقوة الحافظة ، فهم ثاقب ومناسبة تامة بالكتاب ، ومطالعة صحيحة واستعداد كامل ، قد اكتسب منى كتب المعقول الرسمية منطقها وحكمتها ، ومن علم الدين كثيرا من البخارى وقليلا من تفسير البيضاوى ، وهو مع ذلك ممتاز بين الأمثال والأقران فائق عليهم فى الحياء والرشد والسعادة والصلاح وطيب النفس وصفاء الطينة والغربة والأهلية وكل الشأن " (١)

أساتذتـــه :

قد درس القنوجي على علماء الهند واليمن واستفاد منهم فى العلوم النقلية والعقلية ومن أشهر شيوخه :

١ - شقيقه الأكبر أحمد حسن العرشي ،

٢ - الشيخ الفاضل المفتي محمد صدر الدين ،

٣ - الشيخ القاضي حسين بن محسن السبعى الأنصارى ،

٤ - الشيخ المعمر الصالح عبد الحق بن فضل الله المحدث البنارسي ،

٥ - الشيخ التقي محمد يعقوب الدهلوى المهاجر الى مكة المكرمة ،

وكلهم أجازوه مشافهة وكتابة ،

---

١ - الحطة ص : ٢٦٤

وقد استجاز من كل من :

١ - المحدث الفاضل الشيخ يحيى بن محمد بن أحمد الحازمي قاضي عدن في ذي الحجة ١٢٩٦هـ .

٢ - العلامة الشيخ السيد نعمان خير الدين الالوسي زاده مفتي بغداد في سنة ١٢٩٦هـ ، (١)

وقد حضر مجالس العلماء وحلقات العلم والأدب ، وكان يذكر هذه الندوات بهجة وسرورا ،

سقى الله وقتا كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهوى في روضة الانس ضاحك

أقمنا زمانا والعيون قريرة ... وأصبحت يوما والجفون سواكب (٢)

## مذهبه وعقيدته :

ان القنوجي بعد ما درس الكتاب والسنة دراسة متقنة وبحثها بدقة وامعان ، وتفقه على المذاهب الأربعة وأصولها ، وبجانبها العلوم العقلية ، رأى أن التمذهب بمذهب خاص بدون استناد الى أي دليل شرعي ليس من شأن العلماء المخلصين ، (٣) فسلك مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وسلفيته مشهورة جدا بين أبناء الزمان ، ومؤلفاته معبرة عن مسلكه هذا ، وهو لا يحتاج الى برهان ،

لكن ابنه علي حسن القنوجي أوضح في كتابه (٤) عن مسلكه ما لا حقيقة له ، يقول : " انه حنفي المذهب وينسب نفسه اليه دائما على طريقة

---

١ - أبجد العلوم ٣ : ٢٧٢

٢ - مآثر صديقي ٢ : ١٧

٣ - انظر الطريقة المثلى ص : ٣٧

٤ - ماثر صديقي ٤ / ١

الاسلاف ، لكنه يرجح اتباع السنة فى العمل والاعتقاد ،

واستشهد على دعواه بعبارة القنوجى الفارسية ما معناه : " مهما يكن من نسبونى الى الامام أبى حنيفة ، لكننى أزين أقوالى وأعمالى بزينة السنة " (١)

أقول : ان الشيخ على حسن فى دعواه غير موفق لما ياتى :

١ - ان العبارة التى استدل بها على حنفية القنوجى غير مطابقة للدعوى ، بل هى ترد عليه ، حيث أن معنى العبارة أن انتسابه الى مذهب الحنفية ليس من فعله ، فهو لا يقول انا حنفى ، بل غيره ينسبونه الى الحنفية ، وهو برىء عن التعصب لأى مذهب من المذاهب ، بل كان فقهه من الكتاب والسنة ، وشتان بين ما كان من فعله وما كان من ادعاء الغير عليه ،

٢ - ان قوله " لكنه يرجح اتباع السنة فى العمل والاعتقاد " يعارض قوله الأول وهو كونه حنفيا ، لأن الاستدراك يدفع التوهم الذى قبله ، فمعنى ذلك ان القنوجى كان متبعا ، والمتبع لا يكون مقلدا ،

٣ - أسرد بعض الأقوال من كتب القنوجى ، وأترك الحكم للقارئ الكريم هل كان مقلدا لأى مذهب ،

أ - يقول موضحا منهجه : أنا أزن كل مذهب بميزان التحقيق وأصول العلماء الجامعين ، وأختار ما أجده راجحا من حيث الدليل ، وأن التقيد بمذهب واحد ليس من الدين ، ولا أختار ولا أرفض مذهبا بدافع التعصب وهوى النفس ، بل معيار الأخذ والرد هو الدليل والقواعد العلمية ،

---

١ - انظر المغنم البارد ص : ١٣

فعلى سبيل المثال أخذت في مسألة الماء مذهب الامام مالك لأنه أقوى في الباب ، وفي صيغ التشهد مذهب الامام أبي حنيفة لكونه أصح ، وفي مسألة صفات الله عز وجل مسلك الامام أحمد لأنه أقوى المذاهب وأصحها ، (١)

ب - اتهمت أنني أسأت الأدب مع الأئمة الأربعة على العموم ومع أبي حنيفة بالخصوص ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يكفي لرده ما كتبته في رسالتي (٢) عن الأئمة الأربعة ، فلو كنت كما يقولون لما رجحت قول أبي حنيفة في مؤلفاتي ، واني لا أرجح قولا الا اذا وجدت فيه نصا عن الشارع، (٣)

ج - واني منذ استسعدت بمدارك علوم الحديث والقرآن ،واختصصت بخدمتهما الشريفة من بين الأقران والأعيان ، واجتهدت رأيي في العمل بالدليل ، تركت التقليد في جانب لما أنه مجرد قال وقيل " (٤)

د - فهذه الملة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء النقية أدلتها وافية كافية شافية لفصل جميع الخصومات وقطع المنازعات وقضايا الحوادث الآتيات، بعموماتها وخصوصاتها ، لا ملجأ لعارفها الى ادراك ما قرره أهل الرأي ، وصرره أصحاب البدع والأهواء ، (٥)

ه - يقول في وصاياه لأبنائه عند ضعف قواه : " عليكم بالكتاب والسنة في الأعمال والاعتقاد ، والاستقامة على ما ذهب اليه الأوائل من أهل السنة ، وأما في باب الفروع فعليكم مذهب المحدثين الجامعين بين الحديث والفقه ، واياكم والغلاسفة وتهافتهم " (٦)

---

١ - ابقاء المنن ص : ٣١ ، الاحتواء ص : ١١
٢ - جلب المنفعة في الذب عن الائمة المجتهدين الأربعة ص : ٦٥
٣ - ابقاء المنن ص : ١١٩ ، أهل حديث اورسياست ص : ١٤٦
٤ - التاج المكلل ص : ٥٤٤
٥ - الدين الخالص ٣ : ٥٠
٦ - المقالة الفصيحة ( المطبوعة في ماثر صديقي ) ٤ : ١١٩

أما عقيدة القنوجي فقد تبين من خلال كتبه أنه سلفي العقيدة ـ كما يتضح ذلك للقارى الكريم من بحثنا هذا ـ الا أنه فى بعض المسائل مال الى الاشاعرة اعتقادا منه أنه مذهب السلف، كالقول بانكار التحسين والتقبيح العقليين، والاقتصار على كونهما شرعيين فقط، وانكار القول بتكليف مالا يطاق دون نظر الى ما لعلماء السلف من تفصيل، وسنشير الى ذلك فى موضعه فى هذه الرسالة ان شاء الله،

سعيه فى طلب الرزق :

وبعد عودته من دلهى بعد اتمام الدراسة العالية ـ وهو ابن احدى وعشرين سنة ـ الى قنوج، لم يمكث هناك أكثر من أشهر ، لأنه ما كان هناك أحد غيره يحمل عبء الأسرة ويربيها ، ولم يكن هناك أى ذريعة التى تكون كفافا لهم، فتحمل أعباء حياتهم على كاهله ، كما يقول عن سوء حاله وتشتت باله ،

" ليس هناك أى صديق يعاونني حين تشتت البال ، ولا مواس فأجد عنده المأوى ، ومنذ أنا شعرت رأيت اليتم فى كل جانب ، وليس درهم ولا دينار ، ولا معين لى من الأسرة ، ولا سبيل للحياة الا الكسب مع أنه لم يكن هناك أى ذريعة لحصول المعاش ، وكان جل التكاليف على رأسى لصغيرهم وكبيرهم ، فكيف أنا وسوء الحال " (١)

---

١ـ الروض الخضيب : ١٦٤

سفره الأول الى بهوفال :(١)

عزم السفر فى ١٢٧١/٧/١٣هـ مستمسكا بقوله تعالى : ( فامشوا فــى مناكبها وكلوا من رزقه )(٢) طلبا للمعاش الى بلدة بهوفال المحروســـة ، وكانت معروفة آنذاك بعلمها وعلمائها ، فوصل فى خمسة وعشرين يوما ، ولـم يكن هناك أى واحد يساعده فى توظيفه ، فقدم عريضة الى الشيخ جمـــال الدين(٣) مدير شؤون الدولة لنيل الوظيفة ، فقبل طلبه لتدوين تاريخ مملكـــة بهوفال على راتب ثلاثين روبية ، وذلك فى عهد الملكة سكندره جهـــان بيغم ، وبجانب هذا كان يتبرع بالخطابه والامامة ، وكان نشيطا فعالا فــى عمله فأكرم ورقى فى درجته لحسن عمله وأمانته ، ولكنه لم يستطع البقاء علـــى هذا المنصب لنقاش حصل بينه وبين عالم كان فى الدولة فى مسألة فقهيـــة ، فطال هذا النقاش وانتهى بعزل القنوجى من وظيفته ،(٤)

فرجع بعد عزله من بهوفال فى ١٢٧٣/١/١٦هـ الى الوطن ، ولم يـزل يفكر فى المعاش ، حتى اضطر الى مغادرة بلده ، فسافر الى "كانفور" ولم يستقر هناك أياما حتى بدأت الثورة ضد الاستعمار (١٨٥٧م) فى جميـع أنحاء الهند بما فيها بلدة قنوج ، وعافيها من قتل وهدم البيوت وخـراب الزراعة حتى ترك الناس بيوتهم ،

ولما رأى بعض أصدقاء والده ما أصابه وأهل بيته من مشاكل وشدائـــد

---

١ - وهى أهم دولة اسلامية بالهند بعد حيدر آباد ، وهى الان عاصمة الولاية الوسطى ، دائرة المعارف الاسلامية ٨ : ٣٠٠ ، اردو ادب كي ترقى مين بهوفال كاحصه ص : ٢٤ ،

٢ - الملك : ١٥

٣ - هو جمال الدين بن وحيد الدين بن محي الدين ، ولد فى سنة ١٢١٦هـ ، وكان محبا للعلم والعلماء متبعا للسنة ، وقد عين مديرا لشئون الدولـة فى عهد سكندر بيغم وبقى على هذا المنصب ثلاثين عاما ، مات فى ١٢٩٩هـ ، مآثر صديقي ٢ : ٤٤

٤ - المذكور ٢ : ٢٢

واحراق ونهب ، ذهب بهم الى بلدة " بلغرام " (١) وكانت الهند تمرذاك الوقت بأصعب الظروف وأقسى الأحوال ، والقنوجي رحمه الله عاش أشهرا على الثوب الأسود الخشن ، ورغيف جاف بائت ، ويخيط ثوبه بنفسه اذا شق ، ويغسله في النهر اذا اتسخ ، وأسرته لم يكونوا في أحسن حال منه ، لكنه مع فقره وعسرته ماأذل نفسه ، ولا خضع لغير الله سبحانه ، بل كان عزيز النفس مؤمنا بربه ، وأن بعد العسر يسرا كان صابرا شاكرا على حالته العصيبة القلقة ،

والقنوجي قد سئم الاقامة في " بلغرام " لعدم شغله ، فاستغل هذه الفرصة ، وبدأ حفظ القرآن فحفظه في أيام ، وبعد ما خمدت نار الثورة رجع مع أسرته الى قنوج ، (٢)

سفره الثاني الى بهوفال :

وبعد عودته الى الوطن ما تمكن من الاستراحة فيه حتى اضطر الى ترك وطنه مرة ثانية وذلك لأجل ضنك العيش ، وفي هذه الفترة جاءه طلب من ملكة بهوفال السيده سكندرة بيغم ، فشد الرحال الى بهوفال ، ولكنه وصل اليها متأخرا بسبب سوء الجو وكثرة الأمطار والسيول في الطريق ، ومن ثم وجد الحساد فرصة للدس عليه لدى المملكة مما سبب صدور أمرها بخروجه من المملكة ، فخرج منها مبتئسا حزينا في ١٢٧٥/٣/١٩ هـ ، وقصد الى قنوج عن طريق " تونك " (٣) وأقام فيها لدى صديق والده السيد اسمعيل ،

١ - مدينة صغيرة في الولاية الشمالية ، وهي أنجبت العلماء كأمثال مرتضى الزبيدي صاحب " تاج العروس " وغيره ، وتبعد ٢٠ ميلا من قنوج في جهة الشمال ، اردو دائرة معارف ٤ : ٨٤٣ ، ماثر صديقي ٢ : ٢٦

٢ - مآثر صديقي ٢ : ٣٣ ، أهل حديث اورسياست ص : ١٣٠

٣ - دولة في وسط الهند ، وهي الان مدينة في ولاية راجستان ، تقع في جهة الغرب الجنوبي عن دلهي ، اردو دائرة معارف ٦ : ٩٧١

ولما اطلع على حاله " امير الملك محمد وزير خان " وزير الدولة ، وهو كان من محبى والده أجرى له مكافأة شهرية مقدارها خمسون روبية ، وأصر على اقامته عنده ، ولكن الجو الاجتماعى لأهل البلد لم يناسبه ، وأراد العودة الى بلاده ، فقدم عريضة طلب فيها الاجازة لأربعة أشهر ، (١)

سفره الثالث الى بهوفال :

قبل الموافقة على عريضته التى قدمها الى وزير الدولة ، جاء طلب مرة ثانية من ملكة بهوفال ، فسافر اليها فى ١٠/١/١٢٧٦هـ ، وكان دخوله هذه المرة فى بهوفال دخول فاتح منتصر ، وأقبلت عليه الدنيا مع زهده فيها ، وحظى بعناية الملكة ، وفوض اليه مهمته الأولى وهى تدوين تاريخ المملكة على راتب خمس وسبعين روبية ، وبقى فى منصبه هذا تسع سنوات ، حتى انتقلت الملكة سكندره بيغم الى جوار ربها فى ١٣/٧/١٢٨٥هـ . واعتلت عرش المملكة بنتها الملكة شاه جهان بيغم فى ١/٨/١٢٨٥هـ ، (٢)

زواجه الأول :

لما رأى الشيخ جمال الدين مدير شؤون المملكة فى القنوجى العلم والفضل والأمانة والتقوى عقد معه قران ابنته الأرملة " ذكيه بيغم " التى تمتاز بالتقوى والعلم فى ٢٥/٨/١٢٧٧هـ ،

وبعد ذلك استقدم القنوجى أمه وشقيقاته الى بهوفال ، ورزق من زوجته هذه بالابنين الفاضلين السيد نور الحسن ، والسيد على حسن ، (٣)

---

١ - ماثر صديقى ٢/٤٠ ، أبل حديث اورسياست ص : ٣٣ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٤٢

٢ - ماثر صديقى ٢/٤٢ - ٦٦

٣ - ابقاء المنن ص : ٤٨

أداؤه لفريضة الحج :

كان رحمه الله يتمنى دائما أداء فريضة الحج ، وليشترك في مجالس العلم والعلماء ، وينهل من مناهل العلم والعرفان في البلاد المقدسة ، فغادر بهوفال يوم السبت ٢٧/٨/١٢٨٥هـ متوجها الى بومبائى ثم جدة على سفينة شراعية ، وابتلى رحمه الله بالصداع والغثيان ، لكنه استمر في مشاغله العلمية في التأليف ونسخ الكتب ، ونسخ عليها كتاب " الصارم المنكى في الرد على السبكى " لابن قدامه المقدسى ،

وصلت السفينة ٢٦/٩/١٢٨٥هـ ميناء " حديده " ( اليمن ) ونزل في بيت أستاذه الشيخ القاضي حسين بن محسن الأنصارى واستضافه بالاكرام ، وجلس هناك اثنى عشر يوما في البحث عن الكتب ونسخها وتلقى من العلماء الأفاضل ، واهدى الى البعض كتابه " الحطة في ذكر الصحاح الستة " ونسخ خمسا وعشرين رسالة من رسائل الأمير محمد اسمعيل الصنعانى ، كما اشترى أثناء مقامه هناك " اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم " و " ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول " و " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار " و " فتح القدير في فنى الرواية والدراية من التفسير " وغير ذلك من الكتب ، كما حصل الاجازة من بعض مشائخ اليمن ،

خرج من الحديده في ١٤/١٠/١٢٨٥هـ ، ووصل جده بعد شهر تقريبا مع أن المسيرة بينهما أسبوع وذلك لسوء الجو ، وأحرم - بنية التمتع - من محاذاة يلملم ، وبعد اقامة ثلاثة أيام بجدة ، توجه الى مكة المكرمة في ١٢/١١/١٢٨٥هـ ودخل الحرم المكى من باب السلام ، وأدى مناسك العمرة ، وبقى حتى أدى مناسك الحج ،

ولم يزل هو عاكفا على التأليف ونسخ الكتب القيمة ، حتى أثناء تأديـة مناسك الحج بمنى وعرفة ، فنسخ كتاب " السياسة الشرعية " لابن تيميه وغيره من الكتب ،

ثم قصد المدينة وقضى هناك أسبوعا ، واشترى كتاب " المدخل " لابـن الحاج ، ثم عاد الى مكة محرما ، كما اشترى من مكة عدة كتب منها : الزرقانى شرح الموطا ، تاريخ الخميس ، كتاب التعريفات ، حسن المحاضرة فى أحوال مصر والقاهرة ، زاد المعاد ، كتاب العواصم ، كتاب الفوائد ، مغنى اللبيب ، رياض المستطابة ، بهجة المحافل شرح الشمائل ، مواهب الرحمن ، التلخيص الحبير ، سنن الدارمى ، الجامع الصحيح للبخارى ، صحيح مسلم مع شرح النووى ، ومشكاة المصابيح ، وتفسير البيضاوى وغيرها من الكتب ،

ثم غادر الحجاز فى أوائل جمادى الأول سنة ١٢٨٦هـ ، ونسخ علـى السفينة " سنن الدارمى " استعارها فى مكة من مرزا بيك من أقرباء الشـاه ولى الله الدهلوى ، وكانت عليها تعليقات الدهلوى ، وبعد عودته من هذا السفر المبارك ألف كتابه " رحلة الصديق الى البيت العتيق " (١)

توليـــه وزارة التعلـــيم :

بعد رجوعه من سفر الحج ، صدر مرسوم ملكى بتعيينه وزيرا لشـؤون التعليم ، فقبل هذا المنصب الكبير فرحا وسرورا ، كيف وقد وقف حياتـه كلها فى احياء الكتاب والسنة ونشر العلوم الدينية واصلاح المجتمـع

---

١ - رحلة الصديق : ص : ١٦٧ ، المغنم البارد ص : ١١ ، ماثـر صديقى ٢/ ٦٨

والبيئات الاسلامية ، وتمكن بعد ذلك من جلب العلماء لمساندته في شؤون التعليم والتأليف ، (١)

زواجه الثاني بالملكة :

بعد أن تولت العرش الملكة شاه جهان بيغم ثلاث سنوات ، شعرت أن مسئوليات الدولة تتزايد يوما فيوما ، فاحتاجت الى مشير خاص ومدبر مخلص ومنظم لقوانين المملكة ، ليساعدها في شؤون الحكومة والادارة ، وقد رأت من عهد أمها ما بذله القنوجي من الجهد الجبار والاخلاص والأمانة والصدق ، ثم شخصيته الفذة وعلمه الغزير مع كونه من سلالة شريفة ، فرغبت الزواج منه ، وزواجه هذا قد غير مجرى حياته العلمية والعملية ، وكان بداية عهد جديد لتنفيذ مخططاته الدينية ، (٢)

تلقيبه بلقب " أمير الملك " :

بعد زواجه من الملكة واصرارها عليه بجعله شريكا في الحكم والحكومة ، اضطرت الحكومة البريطانية الحاكمة الى تلقيبه بلقب " عالي جاه " ( أمير الملك ) ومنحته حق التعظيم في الهند كلها باطلاق المدافع سبع عشرة طلقة ، وخلعت عليه بالخلع الفاخرة على رؤوس الأشهاد في سنة ١٢٨٩هـ ، (٣) وبعد ذلك تمكن القنوجي من تكميل المخططات العلمية والدينية التي تدور في ذهنه ، وتنفيذ جميع مشاريعه الاصلاحية

---

١ - ابقاء المنن ص : ٥٠ ، ماثر صديقي ٢/٨١

٢ - ابقاء المنن ص : ٥١ ، أهل حديث اورسياست ص : ١٣٥ ، ماثر صديقي ٢/٨٤

٣ - نزهة الخواطر ٨/١٨٩

والتجديدية ونشر التعاليم الصحيحة في جميع الأقطار ، فظهرت صلاحيته وعبقريته أمام الدنيا ، (١)

كان القنوجي - رحمه الله - يعيش مع الملكة في وئام وسلام وكان في أحسن الحال ، ثم زاد ارتقاؤه يوما فيوما وصيته في أرجاء المملكة واحترامه وتقديره وحبه في قلوب الناس ، ومراعاته الشعب في عواطفهم وحقوقهم مع مراعاته للقوانين وأنظمة الدولة التي أصدرت معظمها من قبل الحكومة البريطانية ، مع الاحتفاظ بالشعائر الدينية الاسلامية ،وقيادته الرشيدة وسلطته في الحكومة التي حصلت بدون طلب منه ، بل كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، كل ذلك صار في أعين الحساد من المقلدين والضالين والمستعمرين شوكة فصاروا له أعداء ألداء ،

وفوق ذلك كله شخصيته العبقرية الفذة ، وكونه جامعا للعلوم والفنون وامتيازاته على أبناء الزمان ، فكان عالما مصلحا موحدا عارفا لكتاب الله وسنة رسوله ، ثم استغلاله هذا المنصب العظيم لنشر العلوم الدينية في ضوء الكتاب والسنة ، وصموده في اصلاح المجتمع وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسده باب البدع والخرافات ، فهذه الأمور والأسباب جعلته غرضا وهدفا أمام آلاف الحساد والأعداء ،

لا يخفى على دارس التاريخ أن الحساد والمبغضين لم يجدوا أي فرصة بعد توليه منصب الامارة بل من بعد زواجه من الملكة للمكر والتنكيل به الا انتهزوها ، حتى هددوه وزوجته بالقتل ،وأشاعوا الأكاذيب في الجرائد ، ولما خابوا ولم ينجحوا في مكرهم واغتيالهم تآمروا عليهما بمساندة بعض

---

١ - مجلة صوت الجامعة ( ذو القعدة ١٣٩٠هـ ) ص : ٦٢

المتوسلين فى الدولة فألقوا فى طعامهما سما ، لكن ارحم الراحمين عصمهما من شرهم ،

تمنى رجال أن أموت وان أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ثم أطعموا الملكة أدوية العقم حتى لا تلد سلفيا ، وذهبوا فى المكر كل مذهب ولم يبق عندهم الا أن يفتروا عليه التهم الدينية والحكومية ، فنجحوا فى مؤامرتهم الخبيثة بمساعدة الانجليز ، (١)

التهم التى صبت عليه :

١ - حث المسلمين على الجهاد فى بعض مؤلفاته ،
٢ - نشر عقيدة الوهابية ، (٢)
٣ - الزام الملكة الحجاب الشرعى ليستبد بأمور الدولة ،
٤ - حجز الأملاك ،
٥ - التشديد فى النظام ،
٦ - بذر النفاق والشقاق بين الملكة وبنتها " ولية العهد "

اذا دققنا النظر وجدنا أن هذه الافتراءات والاتهامات التى لأجلها عزل القنوجى رحمه الله هى من أكبر المحاسن عند المسلمين من أهل الحق ، والآن يجدر بنا أن نتكلم على هذه التهم باختصار :

١ - فهل الترغيب فى الجهاد ضد المستعمرين عيب ؟ والقرآن وكتب الحديث مملوءة بفضله ، والأمة متفقة على أنه من أفضل الأعمال ، (٣)

---

١ - ماثر صديقى ٣/١٢٥ - ١٢٩
٢ - نسبة الى محمد بن عبد الوهاب رحمه الله
٣ - العبرة ص : ٩٢ ، ترجمان وهابية ص : ١٩

٢ ـ أما نشر عقيدة الوهابية فما هى الا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، والا بتعاد عن البدع والخرافات التى لا تمت بأدنى صلة إلى الدين الحنيف كالسجود للميت والنذر له ، وأن له التصرف فى الكون ، وأنه يعلم الغيب ، والا حتفال بالمولد وغير ذلك من الخزعبلات ، فهل نشرها الا تطبيق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بلغوا عنى ولو آية" (١)

٣ ـ وأما أمره للملكة بالا حتجاب فليس الا تطبيقا لأحكام الشريعة ، فهل فى هذا جريرة يؤخذ بها ، كلا ، بل كانت صالحة متدينة تصلى وتكثر من الصوم والذكر ، وكانت تلتزم على نفسها الحجاب الشرعى حتى قبل زواج ... القنوجى ، (٢)

أما سلب سلطة الملكة ، فهذه فرية لا حقيقة لها ، وأن صدور أى قرار لا يتم الا بعد عرضه على الملكة وموافقتها عليه ، (٣)

٤ ـ أما حجز الأملاك فهذا كذب صريح وافتراء يكذبه الواقع والتاريخ ،

٥ ـ والتشديد فى النظام سواء فى أمور الدولة او الأحكام الشرعية هو الحق الذى يجب أن يسعى له كل مسئول مادام يلتزم بالعدل ، (٤)

٦ ـ أما بذر النفاق والخلاف بين الملكة وبنتها ولية العهد فهى أكبر فرية رمى بها القنوجى فى حياته ، فانه كان يشفق على ربيبته هذه غاية الاشفاق ، ويكن لها تمام الحب والاخلاص ، بل يفوق حبه لها على أولاده ، ولم يخطر بباله أى سوء ظن لا لها ولا لأمها ، (٥) بل رباها أحسن تربية

---

١ ـ البخارى ٦ : ٤٩٦
٢ ـ التاج المكلل ص : ٥٣٨
٣ ـ مآثر صديقى ٣/١٧٤
٤ ـ ماثر صديقى ٣/١٧٥
٥ ـ وصيت نامه : ٤٢

وزوجها بكفء لائق بها ، ويكفي في الرد على هذه أن الملكة ذات مرة أرادت لأجل عقوق بنتها أن يجعل زمام الدولة بيد القنوجي وأنجاله ، لكنه حاول كل المحاولة لمنع ذلك فامتنعت ، (١)

وكانت نتيجة هذه الدسائس والمؤامرات أن انتزعت منه ألقابه جميعا ، وعزل القنوجي - رحمه الله - باطلاق المدافع تعظيما له في ١٤/١١/١٣٠٥هـ بعد أربعة عشر سنة قضاها في منصب الامارة ، ثم منع مزاولة أى عمل حكومى ، وابتلى بالابتلاء والمحن وشماتة الأعداء ، وهو صابر محتسب ، وزوجته الملكة كانت ثابتة على الحب والاخلاص ، تبذل جهدها على نفي هذه التهم عنه ، حتى أصابه مرض الاستسقاء ، وردت اليه الحكومة لقب " أمير الملك " وقد فارق الدنيا ، (٢)

## صفاتـــه وأخلاقــه :

يصفه الشيخ عبد الحي الحسني قائلا :

" وكان غاية في صفاء الذهن وسرعة الخاطر ، وعذوبة التقرير وحسن التحرير ، وشرف الطبع وكرم الاخلاق ، وبهاء المنظر وكمال المخبر ، وله من الحياء والتواضع ما لا يساويه فيه أحد ، ولا يصدق بذلك الا من تاخمه وجالسه ، فانه كان لا يعد نفسه الا كأحد الناس ، وهذه خصيص اختصه الله بها سبحانه ، ومزية شرفه بالتحلي بها ، فان التواضع مع مزيد الشرف أحب من الشرف مع التكبر ، ثم له من حسن الأخلاق أوفر حظ وأجل ، قال

---

١ - صوت الجامعة ص : ٦٥ ذو القعدة ١٣٩٠هـ

٢ - نزهة الخواطر ٨/١٥٠ ، أهل حديث/اورسياست ص : ١٣٦

أن يجد الانسان مثل حسن خلقه عند أصغر المتعلقين بخدمته " (١)

واستطرد قائلا :

" ومن أعظم ما منحه الله سبحانه أن ألقى فى قلبه محبة العلماء الربانيين ، والميل الى معالى الأمور ، وكثرة التعظيم لأهل العلم شديد الاعتناء بجمع الكتب النادرة ونشر علوم السنة وكتب السلف ، .... وكان مشغول الفكر بالمطالعة والتأليف ، حتى قد كان فى بعض الأحيان لا يميز بين أنواع الطعام المختلفة ، منصفا يعرف لأقرانه ولكثير ممن يخالفه فضلهم " (٢)

هذا وقد كان يتجنب مصاحبة الأغنياء والجهال من الصوفية والمقلدين الجامدين والكلاميين ، (٣) وكان يجاهر بالحق ولا يخاف فيه لومة لائم ، ولا يبالى بأى شخص مهما عظم شأنه ، حتى أثناء عزله من الامارة لم يسكت ولم يتوقف قلمه عن احقاق الحق وابطال الباطل ، بل يجهر بصوته قائلا :

" لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق " (٤)

" أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " (٥)

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان (٦) " (٧)

---

١ - نزهة الخواطر ١٩٢/٨

٢ - " " ١٩٣/٨

٣ - ابقاء المنن ص : ٥٢ - ٥٦

٤ - رواه احمد ٥ : ٦٦ ، والبغوى ١٠ : ٤٤ ، قال الألبانى : حديث صحيح ، المشكاة ٢ : ١٠٩٢

٥ - رواه احمد ٤ : ٣١٤ ، وابوداود ٤ : ٥١٤ ، والبغوى ١٠ : ٦٥ ، واسناده صحيح ، والترمذى ٤ : ٤٧١ وقال : حديث حسن

٦ - رواه مسلم ١ : ٦٩

٧ - ماثر صديقى ٨١/٤

## وفاتــــــه :

كان آخر تأليفه ـ رحمه الله ـ " مقالات الاحسان " فعند ما بدأ طبعــــه أصيب بمرض الاستسقاء ، وكان المرض يزداد يوما فيوما ، لكنه كان صبـــارا متحملا تحمله بدون تأفف ، حتى انتقل من دار الفناء الى دار البقاء ، وقد تزايد مرضه حتى أصبح غير قادر على الاضطجاع ، ومن ثم صار يبيت جالسـا متوجها الى القبلة واضعا رأسه على الوسادة ، ويرفعه أحيانا ، ويكثر مـــن قول " يا أرحم الراحمين "

والعجب ان اشتياقه العلمى لم يزل مستمرا ، وكان لا يستطيع الكتابـــة لشدة مرضه ، فقال : لتلميذه الشيخ ذو الفقار احمد ـ وهو كان مستشـــارا خاصا له ـ الذى كان يؤلف كتابه الشهير " مرآة النسوان " أن يكتبه أمامه فـــى بيته ، فبدأ يكتب فى حضوره ، وأثناء الكتابة كان القنوجى رحمه الله يناقـش مسائل مختلفة ومواضيع متنوعة ،

ويوم الأربعاء ٢٩ / ٦ / ١٣٠٧هـ بعد العشاء عند ما أفاق قليلا سأل عن كتابه " مقالات الاحسان " الذى كان فى المطبعة فى آكرا ( ١ ) ، فقيل له : انه قد تم طبعه ، فحمد الله وقال : قد انتهى تأليفى مع انتهاء الشهـــر ، وبعد منتصف الليل عند ما قدم له بعض الدواء أباه قائلا : لا يفيدنى أى . . دواء ، ثم فاضت روحه الى بارئها فى الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقـــة فى الليل " انا لله وانا اليه راجعون "

---

١ ـ بلدة مشهورة وفيها " تاج محل " تقع فى جنوب دلهى

وغسل يوم الخميس بعد الفجر ، وصلى عليه خلق كثير ، وصلى عليه مرارا ، ثم دفن في مقبرة أسرته الخاصة قبل صلاة الظهر ، (١)

وقد صدر الأمر من الحكومة الانجليزية أن يشيع ويدفن بتشريف لائق بالأمراء وأعيان الدولة ، لكنه قد أوصى بأن يدفن على طريقة السنة ، فنفذت وصيته ، (٢)

فرحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل مثوبته ، وأعاننا على المضي في طريقه العملي السلفي حتى النهاية ،

---

١ - قضاء الأدب ص : ٢٥٧

٢ - نزهة الخواطر ٨/ ١٩١ ، مآثر صديقي ٣/ ٢٠٣

# الفصل الرابع

## جهوده العلمية والدينية

١ـ نشر الكتب وتوزيعها

٢ـ تعيينه الوكلاء

٣ـ تشجيعه العلماء والطلاب

٤ـ تأسيس المجلس العلمي

٥ـ المدارس والمعاهد

٦ـ المكتبات

٧ـ المطابع

٨ـ اصلاحات عامة توجيهية

## نشـر الكتـب وتوزيعـهـا :

انه رحمه الله كان حريصا جدا على احياء التراث الاسلامى ، ونشر علـــوم الكتاب والسنة بعد التحقيق والتصحيح ،وبذل أموالا طائلة فى سبيل نشـــر السنة ، فقام بطبع عدة من كتب السلف وتوزيعها مجانا لتعم بها الفائدة طـــلاب العلم والمعرفة والباحثين ، وذلك فى عصر لا تكاد توجد أمهات الكتب فـــى الهند الا نادرا ، ومن أهم هذه الكتب :

" فتح البارى " لابن حجر ، فقد اشترى مخطوطته من اليمن ستمائـــة روبية أثناء سفره الى الحج ، ثم أمر بطبعها بمطبعة بولاق الواقعة فى مصر ،

" تفسير ابن كثير " طبعه مع كتابه " فتح البيان " فى سنة ١٣٠٢هـ

" نيل الأوطار " للشوكانى ،

وأنفق على طبع هذه الكتب أكثر من مائة ألف روبية ، ثم وزعها فى الهنـد وخارجها مجانا ، وكان يشرف على طبع هذا التراث وعلى مؤلفاته الشيخ غلام رسول السورتى (١) ، وقد كان يتجول فى الدول العربية لجمع المخطـــوطات والكتب النادرة ، وكان نائبه فى مصر احمد البابي الحلبي ، وقد بقى عنـــده مئات النسخ من " فتح البارى " ونيل الأوطار التى لم يتم توزيعها ،وبعـــد وفاة القنوجي أمر أولاده بارسال هذه النسخ الى مكتبات الحرمين الشريفين ، هذا وقد طبعت هذه الكتب وغيرها فى الهند ، ووزعت عدة مرات ، (٢)

## تعيينـــه الوكـــلاء :

قد عين رحمه الله وكلاءه فى جميع أنحاء العالم الاسلامى لتوزيع مؤلفـــات

---

١ - من سكان بومبائى

٢ - ماثر صديقى ١٦٨/٤ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٤٣ ، اردو دائرة معارف /١٠٤

السلف الصالحين ومؤلفاته على طلاب العلم ، وكان يرسل اليهم كمية من النسخ ، فكانوا يوزعونها بكل أمانة ، واليكم بعض أسمائهم مع ذكر البلدان ،

١ ـ الشيخ احمد آفندى والشيخ احمد البابي الحلبي في مصر
٢ ـ " حبيب آفندى في الاسكندرية
٣ ـ " بشارت آفندى الشراق في بيروت
٤ ـ " طاهر آفندى في جده
٥ ـ " احمد بن ناصر في قسطنطينة
٦ ـ " عبد الله حسن علي رجب في عدن
٧ ـ " عيسى بن قرطاس في البصرة
٨ ـ " عبد القادر بك حشمت في بغداد
٩ ـ " محمد العربى في تونس
١٠ ـ " احمد بن عيسى في مكة

وفي الهند

١ ـ الشيخ على بن محمد بن ابراهيم في بومبائى
٢ ـ " محى الدين " لاهور وبنجاب
٣ ـ " عبد الحميد (مدير مطبعة انصارى) في دلهى وماجاورها
٤ ـ " مصطفى خان (مدير مطبع نظامى) في شمال الهند
٥ ـ " مير على " بهوفال ، (١)

---

١ ـ ماثر صديقي ٧٧/٤ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٤٥

## تشجيعه العلماء والطلاب :

كان رحمه الله يشجع العلماء وطلاب العلم على حفظ السنة المحمدية والتبصر فيها ، والاحتفاظ بالشعائر الدينية ، وقمع الباطل والبدع والخرافات ، ويشعل فيهم ثورة التفكير نحو التقدم ، ويمنح المتفوقين منهم مكافآت مادية ومعنوية ،

أعلن أن من يحفظ " بلوغ المرام " لابن حجر له مكافأة شهرية ومقدارها عشرون روبية ، وبعد الحفظ بتمامه جائزة قدرها مائة روبية ، وجعل لمن يحفظ " مشكاة المصابيح " للخطيب التبريزى مكافأة وهى ثلاثون روبية فى كل شهر ، وخمسمائه بعد حفظه كله ، وكذلك لمن يحفظ " الجامع الصحيح " للامام البخارى خمسون روبية شهريا ، وألف روبيه بعد الحفظ بتمامه ، (١)

وقد ألف عالم من علماء الأحناف رسالة فى اثبات وضع اليد تحت السرة فى الصلاة ، فعقب عليه الشيخ أبو المكارم محمد على ( ١٢٧٢ - ١٣٥٢هـ ) برسالة سماها " المجن المحمدى " فحينما اطلع عليه القنوجى أعجبه جدا أسلوبا ودفاعا عن السنة الصحيحة ، فأكرمه بمكافأة ثلاثين روبية شهريا ، (٢)

---

١ - صوت الجامعة ص : ٦٢ شعبان ١٣٩١هـ
٢ - تراجم علماء حديث هند ص : ٣٤٠

وان الشيخ محمد سعيد البنارسى (١) لما اطلع على رسالة "كشف الحجاب" التى اعدها عالم حنفى رد عليها برسالة "هداية المرتاب" لما وصل هذا الكتاب الى القنوجى ، وعلم أن مؤلفه حديث عهد بالاسلام ، أجرى له راتبا شهريا مقداره خمسون روبية ، (٢)

## تأسيس المجلس العلمى :

أسس رحمه الله مجلسا علميا مشتملا على كبار العلماء والفحول من الهند وخارجها من البلاد العربية الذين وفدوا الى بلدة بهوفال المحروسة ، ثم عين بعضهم على الشؤون الدينية كالقضاء والفتيا ، وبعضهم على شئون التأليف والتحقيق ، ومنهم من كانوا يقومون بالاشراف والتفتيش على المدارس والمعاهد ،

---

١ - كان من أسرة "السيخ" المعروفين بعدائهم الشديد للمسلمين ، وقد هداه الله على يد الشيخ عبيد الله الذى كان حديث العهد بالاسلام ، ذهب الى مدرسة "دار العلوم" بديوبند - التى هى تعد أكبر معقل للحنفية - للدراسة ، وقد حبب اليه علم الحديث ، وأنه لم يقتنع فى بعض دروسه بما ذهبت اليه الأحناف ، فناقش نقاشا حادا وهو فى موقفه الصامد فى الأخذ بالسنة ، فلم يتحمل أساتذته فطردوه ،
ثم ذهب الى دلهى فتتلمذ على السيد نذير حسين ، وقد توفى فى سنة ١٣٢٢هـ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٨٨

٢ - المرجع المذكور ص : ٢٨٩

واليكم بعض أسماء العلماء مع بيان مهمتهم :

١ ـ الشيخ محمد بشير السهسواني ( ١٢٥٤ - ١٣٢٦هـ )

ولد ببلدة شهسوان وتعلم هناك ، ثم سافر دلهى وتتلمذ على السيد المحدث نذير حسين ، ولازم الدرس والتدريس ببلدة اكرا ثم بهوفال ، وهو من كبار علماء الهند في عصره ، وقد تأثر به خلق كثير علما وورعا وتقى وانتفعوا به ، والقنوجي يحترمه غاية الاحترام ، وعينه الرئيس العام لجميع المدارس والمعاهد وذلك في سنة ١٢٩٥هـ ،

وله مؤلفات ، أهمها : "صيانة الانسان عن وسوسة الدحلان" في الرد على الشيخ دحلان وافترائه على حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، (١)

وقد اعترف بفضله وغزارة علمه المعاصرون ، يقول السيد محمد رشيد رضا : "كان الشيخ محمد بشير الشهسواني رحمه الله من فحول علماء الهند ، وكبار رجال الحديث فيهم ، ومن النظار الجامعين بين العلوم الشرعية والعقلية ، مع العمل بالعلم ، بالتقوى والصلاح ، (٢) وقال عنه استاذه حسين بن محسن اليماني : "رحم الله أخانا محمد بشير ، فقد كان عالما محققا متمسكا بالكتاب والسنة" (٣)

٢ ـ الشيخ بشير الدين القنوجي ( ١٢٣٤ - ١٢٩٦هـ )

أحد فحول علماء الهند في عصره ، وكان جامعا بين العلوم النقلية

---

١ ـ تراجم علماء حديث هند ص : ٢١٩ ، نزهة الخواطر ٨ : ٤١٥

٢ ـ مقدمة صيانة الانسان ص : ١٤

٣ ـ نزهة الخواطر ٨ : ٤١٦

والعقلية ، وطلبه القنوجي الى بهوفال ، وعينه قاضيا في سنة ١٢٩٥ ، وله مؤلفات ، منها :

كشف المبهم مما في " المسلم " في الأصول ،

شرح مؤطا ،

تخريج أحاديث " شرح العقائد "

حاشية على " مير زاهد " شرح المواقف وغير ذلك ، (١)

٣ - الشيخ سلامة الله الجيراجفوري ( المتوفى ١٣٢٢هـ )

وهو من تلامذة السيد المحدث نذير حسين الدهلوي رحمه الله ، وهو من كبار المصلحين ، وكان محبي السنة والتوحيد ، وشديد النكير على البدع والخرافات،

سافر الى مملكة بهوفال بعد ما استدعاه القنوجي ، وولي التدريس في المدرسة السليمانية مدة ، ثم صار نائب الرئيس لها ، وبعد تقاعد الشيخ محمد بشير الشهسواني عين رئيسا عاما ، ومن ورعه أنه كان يخطب في المسجد الجامع ويرفض أن يقبل شيئا نظير عطه ، (٢)

٤ - العلامة القاضي حسين بن محسن اليماني ( ١٢٤٥ - ١٣٢٧هـ )

تلقى العلم عن كبار علماء اليمن الميمون ، ودرس وأفاد مدة هناك ، ثم جاء الى بهوفال وتوطن بها ، وكان مدرسا في مدرسة الرياسة ، وطار صيته في أرجاء الهند ، فأقبل اليه طلاب العلم من كل جانب ، فتتلمذوا عليه واستفادوا منه ، كالقنوجي ، ومحمد بشير الشهسواني ، والمحدث شمس

---

١ - نزهة الخواطر ٨ : ١٠٠ ، حياة المحدث شمس الحق ص : ٢٤٢ ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٧٢ ،
٢ - تراجم علماء حديث هند ص : ٢١٤ ، نزهة الخواطر ٨ : ١٥٩

الحق الديانوى ( صاحب عون المعبود ) وسلامة الله الجيرا جفورى ، وعبد الرحمن المباركفورى ( صاحب تحفة الأحوذى ) وغيرهم ، وله مؤلفات منها : تعليقات شتى على النسائى ، وتوفى ببهوفال ، (١)

٥ - الشيخ القاضى محمد بن عبد العزيز الجونفورى ( ١٢٥٢-١٣٢٤هـ )

هو من أسرة تمتاز بثرائها العلمى ، وقد جعله القنوجى قاضيا للمملكة فى سنة ١٢٩٧هـ ، وبعد ما عزل القنوجى قدم الاستقالة عن هذا المنصب ، ثم سافر الى أوربا لزيارة المكتبات العلمية ، وله مؤلفات عدة ، كلها فريدة فى بابها ، (٢)

٦ - الشيخ ذو الفقار احمد ابن همت على البهوفالى ( ١٢٦٢-١٣٤٠هـ )

كان عالما فاضلا واديبا عبقريا ، ومستشارا خاصا للقنوجى ، وقد قربه الى نفسه ، (٣)

هؤلاء العلماء الأفاضل كانوا يمدون الدولة بتوجيهاتهم السديدة وخبراتهم العميقة ، وبجانب هذا كانوا يقومون برحلات علمية فى داخل الهند وخارجها مع أداء واجباتهم على أحسن وجه ،

المدارس والمعاهد :

رأى القنوجى أن الجامعات والمدارس لها دور كبير فى تربية الجيل الجديد تربية اسلامية ، ولنشر العلم والفكر الصحيح ومحو الأمية وايقاظ التوعية الاسلامية والشعور الكامل ، فنظرا الى أهميتها أسس القنوجى المدارس

---

١ - أبجد العلوم ٣ : ٢١١ ، نزهة الخواطر ٨ : ١١١

٢ - تراجم علماء حديث هند ص : ٣٠٤

٣ - نزهة الخواطر ٨ : ١٣٩

والمعاهد الدينية والعصرية في الهند ليتمكن المسلمون عامة والعلماء خاصة من التفقه في الدين ، حتى تقوى شوكتهم وسلطاتهم العلمية والثقافية التي ضاعت لضعف المسلمين وجهلهم وابتعادهم عن الدين الحنيف ،

كانت هناك عدة مدارس في المملكة ، لكنها كانت عديمة التأثير تقريبا نظرا لضعفها وقلة نشاطها ، وبعد أن تسنم وزارة التعليم واستلم مقاليد الأمور ، بذل جهودا جبارة لرفع المستوى العلمي والثقافي والديني ، ولتطوير الصناعات ، وذلك بتغيير المناهج التعليمية ودراستها دراسة متقنة ، ولم يزل مستمرا عاملا على تخطيطاته الدقيقة مراعيا روح الاسلام والعصر ،

وقد بلغ عدد المدارس في آخر أيامه في الامارة احدى وثمانين مدرسة ، منها عشر مدارس في بهوفال العاصمة ، واحدى سبعون مدرسة في الولايات الأخرى ،

لكن المدارس التي كانت تحتل الأهمية والصدارة هي :

أ ـ المدرسة البلقيسية :

انشئتها الملكة وسمتها باسم بنتها " بلقيس جهان " التي ماتت في صغرها ، وكانت هذه المدرسة خاصة بالأيتام ، والدولة هي التي تتحمل جميع المصاريف من السكن والطعام والكتب وغيرها ،

ب ـ المدرسة السليمانية :

كانت مراحل الدراسة فيها حسب الشهادات الآتية : مولوى ، عالم ، فاضل ، مفتي ، منشى قابل ، (١) والطلاب كانوا يتقاضون مكافآت شهرية

---

١ ـ يمنح هذه الشهادة الذى برع في الانشاء والقانون والرياضيات ، ماثر صديقى ٣/١٠٩

حسب مستواهم ، والخريجون من هذه المدرسة يوظفون في الدوائر الرسمية ،

ج - المدرسة الجهانغيرية :

كان يدرس فيها حوالى ألف طالب ، والنصف منهم كانوا يستلمون المساعدة المالية من قبل المدرسة ، والمتخرجون فيها يعينون في الدوائر الحكومية ،

د - المدرسة الصديقية :

وهي نسبة الى صديق حسن القنوجي ، وكان يدرس فيها مائتا طالب مع المكافأة ، والقنوجي كان يلقي فيها بعض الدروس والمحاضرات ،

هـ - مدرسة فكتوريا ،

و - مدرسة برنس ( ولى العهد ) البريطاني :

كان يدرس في هاتين المدرستين المواد الصناعية والمهنية فقط ،وأنشئت هذه المدارس لبقاء الصناعات المحلية وتطويرها ، وذلك عندما تدفقت صناعات أوربا في أسواق الهند ،

ومما يجدر الاشارة اليه أن الحكومة هي التي تتحمل جميع تكاليف الدراسة ، وكانت مادة " الدين الاسلامي " اجبارية في المدارس كلها حتى في مدارس الصناعات ، وجميع منسوبيها كانوا ملزمون بالتمسك بالشعائر الدينية ، (١)

المكتبات :

لا شك أن المكتبات العلمية لها أهمية بالغة القصوى في اطار احياء

---

١ - ماثر صديقي ٣/١٠٣-١١٠ ، تراجم علماء حديث هند : ٢٤٦

التراث الاسلامي ، ونشر العلوم الدينية ، والأفكار الصحيحة البناءة عند ذوي العقول والمثقفين ، ولها دور أكبر في توجيه الشباب ، فنظرا الى هذه الأهمية أقيمت في بهوفال عدة مكتبات :

١ - مكتبة فيض عام :

٢ - المكتبة الجهانغيرية :

هاتان المكتبتان المركزيتان كانتا تشتملان على اثني عشر ألف كتاب في مختلف الفنون واللغات ، وبجانب هذا كانت الكتب الأخرى التي توزع مجانا على الطلاب والدارسين ،

٣ - مكتبة الرئاسة :

الواقعة في القصر الملكي " تاج محل " وكانت خاصة لمنسوبي الامارة ، وتضم كمية كبيرة من المخطوطات النادرة والمطبوعات القيمة ،

٤ - مكتبة القنوجي :

كانت هي خاصة به رحمه الله مشتملة على كتب في الفنون والعلوم المختلفة من التفسير والحديث والتاريخ والسير والأدب والتصوف من مخطوطات ومطبوعات مع اشتمالها على مؤلفاته مع مؤلفات السلف ، وكانت هي من أغنى المكتبات آنذاك ، قلما توجد مثيلاتها في الهند ،

وبعد وفاته رحمه الله ضاع قسم كبير منها ، والذي بقي أودعه نجلاه دار العلوم لندوة العلماء بلكناؤ ، وهي الى الان موجودة بالمكتبة الصديقية ، (١)

---

١ - ماثر صديقي ٣/١١٢ ، تراجم علماء حديث هند ٢٤٦

المطابــــــع :

المطابع هى أنجح الوسائل فى كل زمان ومكان لنشر العلم وتعميمه ، وتوجيه الجيل الجديد وتثقيفهم ، وبفقدانها يخسر الانسان وسيلة فعالة مـــــن وسائل التقدم والتوعية ، فانشأ رحمه الله أربع مطابع فى بهوفال :

١ ـ المطبعـــة السكندريـــة :

وهى كانت خاصة بطبع الاعلانات والخرائط والوثائق الرسمية ،

٢ ـ المطبعة الشاه جهانية :

كانت تطبع فيها مؤلفات القنوجى والمقررات الدراسية وجريدة أسبوعيـــة ، كما تنشر فيها أخبار الامارة والمراسيم الملكية ، وكذلك تطبع المصاحف ،

٣ ـ المطبعـــة السلطانيـــة :

كانت خاصة لطبع وثائق رسمية فقط ،

٤ ـ المطبعـــة الصديقيـــة :

كانت تهتم لطبع كتب السلف ومؤلفات القنوجى ليلا ونهارا ، مع ذلك لـــم تكن وافية ، فيضطر القنوجى الى تحويل بعض الأعمال الى مطبعة " مفيد عام" بآكره ، وفى آخر حياته خصصت هذه المطبعة لمؤلفاته ، (١)

اصلاحـات عامـة توجيهيـة :

قبل أن تتولى الملكة شاه جهان بيغم العرش كانت الجهالة قد عمت بين الناس، وانتشر الانحلال الخلقى والمجون من ادمان الخمر والرقص والغناء ،وشاعـت

---

١ ـ ماثر صديقى ٣/١١٣

الزندقة ، وأما الألفاظ الشرعية مثل الشعائر الدينية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودعوة الحق فلم يكن يسمع بها ،

فقام القنوجى رحمه الله طول حياته باصلاحات وتوجيهات فى الأخلاق والاعتقاد والأعمال ، وانقاذ الأمة من ظلام الجهل والالحاد الى نور الاسلام ، ومن الفوضية التى تسودهم من قرون الى النظام والعدل الذى هو أساس الصلاح ، وقد بذل كل ما فى وسعه لتحكيم الشريعة فى شؤون الحياة كلها ، ولم يخف لومة لائم من الحساد وأهل الفتنة ، ولم يخف ضياع منصبه ، حتى اضطرت الحكومة البريطانية الى قبول هذه الاصلاحات ،

واليكم خلاصة الاصلاحات التى بدأت فى عهده :

١ - مجلس الشورى :

أسس رحمه الله هذا المجلس انطلاقا من أمر الله تعالى " وأمرهم شورى بينهم " وكان مشتملا على الأعضاء المخلصين من العلماء وأرباب السياسة وذوى الخبرة ، وكانوا يمدون بآرائهم السديدة ، ويبذلون جهدهم فى تحليل الأمور المهمة التى تطرح عليهم وذلك بعد الدراسة المتقنة والمداولة فيما بينهم ، وقد كانت الظروف التى واجهت هذا المجلس صعبة غاية الصعوبة ، وكان من الممكن التغلب عليها ، ولكن العقبة الكؤود جاءت من قبل الانجليز الذين كانوا يهيمنون على البلاد كما هو معروف ، وبالرغم من ذلك كله فقد بذل المجلس قصارى جهده ، واستفرغ وسعه فى تحقيق أهدافه ، (١)

---

١ - ماثر صديقى ٣/٥٠

٢ ـ المحكمة القضائية ودار الافتاء :

كانت هناك دائرة خاصة تتناول صلاحياتها النظر في القضاء والافتاء ، أما القضاء فقد كان مقصورا على عقد النكاح والتصديق على الفتاوى ، وكذا شؤون الافتاء كانت عبارة عن التصديق على بيان القاضي ،

لكن القنوجي رحمه الله نظمهما ، وجعل نطاقهما واسعا ، مع مراعاة الأحكام الشرعية والحدود الدينية في القضاء ، كما راعى في الافتاء أن تكون الاجابات مستقاة من الكتاب والسنة ، (١)

٣ ـ الحسبة :

كانت مهمتها أن تتناول كل ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المحافظة على الشعائر الدينية ، والحيلولة دون انتهاك حرمتها ، ومن صون للأخلاق ورعايتها ، ومن سهر على شؤون المساجد وحمايتها من البدع والخرافات وما الى ذلك ، ومما أتاح للمساجد أن تؤدى رسالتها التي وجدت من أجلها ، (٢)

٤ ـ محاولة القضاء على ادمان الخمر والرقص والغناء والقمار :

قد كان شرب الخمر علنا جهارا ، والأعياد والأعراس كانت عبارة عن اراقة الخمر والرقص والغناء ، وقد عمت هذه الأشياء حتى أن جرار الخمر كانت توضع على القبور ، ويدمنون في المساجد ، والموظفون يحضرون مكاتبهم سكارى ، والقمار كان عاما فاشيا في المملكة ، وبعد ما تولى رحمه الله تغيرت الأمور فصارت تسير من حسن الى أحسن بسبب الجهود التي قام بها ، (٣)

---

١ ـ المذكور ٣ / ٩٣

٢ ـ المذكور ٣ / ٩٤

٣ ـ المذكور ٣ / ٩٩

٥ - القضاء على الربا :

كان التعامل الربوى متفشيا ايما تفش بين تجار مطكة بهوفال ، ولكن رحمه الله عمل كل ما استطاع حتى ألغى هذه المعاملات ، وأحل محلها التعامل حسب قواعد الشريعة ، (١)

٦ - قد قرر عطلة يوم الجمعة والعيدين ، والعشرة الأخيرة من رمضان بالنسبة للمعتكفين ، (٢)

٧ - أصدر مرسوما ملكيا بالكف عن مزاولة أى عمل شاق بالنسبة للمسجونين يوم الجمعة وشهر رمضان ، (٣)

٨ - كان النكاح من الأرامل عيبا وذلة في بهوفال ، لكنه قضى على هذا الداء الوثني ، وذلك بتزوجه مع الملكة الأرملة " شاه جهان بيغم " وحث على الزواج من صالحاتهن ، (٤)

٩ - القضاء على غلاء المهور :

بهذا الغلاء تلوث الجو الاجتماعي ، فأصدر الأمر السامي على أن يكون الصداق قدرا يستطيع الزوج دفعه ، (٥)

١٠ - ألزم النساء الاحتجاب الشرعي والآداب الاسلامية ومنعهن من الخروج سافرات ،(٦)

---

١ - ماثر صديقى ٣/٥٦
٢ - " " ٣/٩٠ ، ٩٧
٣ - " " ٣/٤٨ ، ٩٠
٤ - " " ٣/٩٩
٥ - " " ٣/١٠٠
٦ - " " ٣/١٠١

١١ - أصدر أمرا باعادة النظر في القضايا التي كانت مهملة منذ سنين ، والحكم فيها بما يمليه الشرع ، وأقام لها محكمة مستعجلة مؤقتة انجزت بمهمتها في وقت قصير ، (١)

١٢ - ألغى البغاء وحرفة الزنا الغاء مبرما بمرسوم ملكي ، ثم حرر البغايا ممن يستغلونهن ، وبذلك أصبحت لهن حرية في الحياة الشريفة ، (٢)

١٣ - عمل على سد باب الرشوة والخيانة ، (٣)

١٤ - اصلاح أمر الضرائب فأصبحت لا تؤخذ من الشعب ظلما وقسرا كما كان من قبل ، (٤)

هذه الاصلاحات التي ذكرت آنفا ، قد أثمرت ثمارها ، وتحولت امارة بهوفال بفضل الله تعالى ثم بمساعي القنوجي الى حد كبير امارة اسلامية ، وذلك بالعودة الى الكتاب والسنة والاستنارة بنورهما ، فارتفعت رايات التوحيد خفاقة ، وطبقت أحكام الشريعة في شؤون الحياة كلها ،

---

١ - ماثر صديقي ٣ : ٥٢
٢ - " " ٣ : ١٠١
٣ - " " ٣ : ٥٢
٤ - " " ٣ : ٨٥

# الفصل الخامس

## ثقافته ومؤلفاته

١ـ مكانته العلمية

٢ـ مكانته في التفسير

٣ـ مكانته في الحديث

٤ـ مكانته في الفقه

٥ـ مكانته في العقيدة

٦ـ مكانته في اللغة

٧ـ استعانته بالعلماء

٨ـ بعض ميزاته في التأليف

٩ـ مؤلفاته

١٠ـ ثناء العلماء عليه

## مكانتـــــه العلميـــــة :

أقبل القنوجي ـ رحمه الله ـ على العلم والمعرفة ، فأفنى حياته راتعا فـي رياضها ، فلم يترك بابا من أبوابها الا خاض فيه ، حتى برع في جميع العلـوم الاسلامية ، النقلية منها والعقلية من علوم القرآن والسنة والعقيدة ، والفقـه المقارن وأصوله ، والأدب بنظمه ونثره والبلاغة ، والسير والتاريخ وغيرهـــا ، وطار صيته في أرجاء العالم الاسلامي ، فشهدت بسعة اطلاعه وغـــزارة علمه ، كما وصفه معاصره السيد نعمان بن محمود الآلوسي (١) قائلا :

" شيخنا العلامة الامام الكبير الأمير البدر المنير البحر الحبر في التفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ والأدب وغيرها ، أبو الطيب صديق حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي ، حماه الله تعالى وعافاه وعن الشرور وقاه ، وهو الذي نطقت ألسن الخلائق بالثناء عليه ، وأذعنـــت الأعداء لفضله وفرط ذكائه ودهائه " (٢)

وقد ساعده على ذلك كل ما وهبه الله تعالى من قوة الحفظ ومثابرتـــــه العديمة النظير ، هذا العالم الفاضل المصلح عندما فتحت عليه الدنيا لـــم يغتر بها كغيره من بني البشر الذين جرفهم التيار والملذات ، بل نـــراه صاحب المبدأ الذي عاش محافظا عليه ، فيسخر كل أنواع النعم التي فتحـــت عليه ، يسخرها كلها لخدمة الدين والعلم ، وذلك بقيادته الرشيدة حركـــة احياء السنة والدعوة السلفية التي قادها ، كما نص عليه الشيخ محمد بـــن عبد الله بن حميد ، (٣)

---

١ - هو ابن محمود الالوسي صاحب تفسير " روح المعاني "
( ١٢٥٢ - ١٣١٧ )

٢ - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين : ٤٨

٣ - هو مفتي الحنابلة في الحرم المكي الشريف عام ١٢٩٨ هـ قرة الأعيـــان ومسرة الاذهان ص : ٣٥

" الامام الكامل والهمام العامل زينة العلماء والملوك وملاذ الغنى والفقير الصعلوك ناصر السنة السنية ، وقامع البدعة الدنية ....... نواب والاجاه أمير الملك السيد محمد صديق حسن خان بهادر ، فمنحه الله سبحانه من الذهن السليم والفهم المستقيم ، والذكاء ما يضئ الليل البهيم ، ومن الضبط والتحرير والبحث والتقرير والتحقيق والتدقيق والتسديد والتوفيق ، ومسامرة العلوم ما أقربه كل عارف عليم فليس غيرها له بريق في شدة الاتباع للسنة النبوية ، ومزيد المثابرة على الاثار المصطفوية ....... هذا مع ما جمع الله له الديانة والأمانة والعفة والنزاهة والصيانة ، والاعراض عن زخارف الدنيا مع اقبالها عليه واحتقاره اياها مع تراميها على قدميه ، والاشتغال بنشر العلوم مع الملك واهتمامه بنفع الأمة المحمدية في البر والفلك ، (١)

١ - مكانته في التفسير :

هذا من أشهر الجوانب التي ذاع نبوغ القنوجي ، وطارت شهرته ، فقد كان صاحب معرفة واسعة باسرار التنزيل ، وأفضل منهج عنده هو التفسير بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ما روى عن الصحابة الذى هو منهج السلف ،

يقول محمد بن عبد الله بن حميد مفتي الحنابلة معلقا على تفسيره " فتح البيان "، أبدع في هذا التفسير الجليل الذى لم يبعد ولا أظن يوجد له مثيل ، وسماه بفتح البيان في مقاصد القرآن ، وانتقى فيه لباب التأويل وكشف فيه عن أسرار التنزيل ، واعتمد على الآثار الواردة ، وترك ضعاف

---

١ - قرة الاعيان : ٣٥

الأقاويل ، فلقد أوجده الله سبحانه خادما لكتابه في هذا الجيل ، ولسنة نبيه المخصوص بالتبجيل ، فهو أحق بأن يسمى مجدد الألف الثاني لما حواه من حفظ الآثار النبوية بالألفاظ والمعاني ، وما منحه الله من فهم الكتاب العزيز والسبع المثاني ، فهذا التفسير أعدل شاهد صادق ، ومن لم يسلم فهو مكابر مشاقق ، فان هذا المؤلف من نعم الله سبحانه على هذه الأمة المحمدية في هذا الزمن الذى اندرست فيه السنة النبوية ، ودثرت فيه الآثار المصطفوية " (١)

وكما يقول حمد بن عتيق (٢) – عند ما وصل اليه كتابه " فتح البيان " – في رسالته التي بعثها اليه :

" اعلم وفقك الله انه كان يبلغنا أخبار سارة بظهور أخ صادق ذي فهم راسخ وطريقة مستقيمة يقال له صديق فنفرح بذلك ونسر لغرابة الزمان وقلة الاخوان وكثرة أهل البدع والاغلال ....... فبينما نحن كذلك اذ وصل الينا التفسير بكماله ، فرأينا أمرا عجيبا ما كنا نظن ان الزمان يسمح بمثله وما قرب منه ، لما من التفاسير التي تصل الينا من التحريف والخروج عن طريقة الاستقامة وحمل كلام الله على غير مراد الله ، .... فلما نظرنا في ذلك التفسير تبين لنا حسن قصد منشيه وسلامة عقيدته وتبعده من تعمد مذهب غير ما عليه السلف الكرام " (٣)

وتظهر مكانته وتبحره في هذا الجانب في مؤلفاته التي خلفها لنا وهي :

١ – فتح البيان في مقاصد القرآن ،

٢ – نيل المرام من تفسير آيات الاحكام ،

---

١ – مسرة الأذهان : ٣٦

٢ – الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق بن راشد بن حميضة واشتهر بن عتيق نسبة الى جده الثاني – عتيق – وكان يقيم في بلدة الزلفي ، وقد كان بينه وبين القنوجي مراسلة ( ١٢٢٧ – ١٣٠١ هـ ) انظر علماء نجد خلال ستة قرون ١ : ٢٢٨

٣ – مناهير علماء نجد ص : ٢٤٥

٣ - ترجمان القرآن بلطائف البيان ،

٤ - افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ ،

٥ - الاكسير فى أصول التفسير ، وغيرها ،

٢ - الحديث :

هذا أشهر الجوانب التى نبغ فيها القنوجى ، اذ كرس جهوده لخدمة السنة النبوية واحياء التراث الاسلامى بعد التحقيق ، وألف وصنف المؤلفات المختصرة والمطولة المشتهرة فى بلاد العرب والعجم التى تشهد بسعة اطلاعه ودقته ،

يقول العلامة محمد ميز الدمشقى (١) :

" وكم له من أياد بيضاء فى خدمة العلم والعلماء وان جحد فضله الحاسدون وضعفاء العقول المتصنعون " (٢)

ويصفه عبد الحى الكتانى :

" الأمير السيد أبو الطيب صديق حسن من كبار من لهم اليد الطولى فى احياء كثير من كتب الحديث وعلومه بالهند وغيره " (٣)

أما آثاره فى علوم الحديث فهى كثيرة ، منها :

١ - عون البارى فى حل أدلة البخارى ،

٢ - السراج الوهاج فى كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج ،

٣ - الحطة فى ذكر الصحاح الستة ،

٤ - بغية القارى فى ثلاثيات البخارى ،

---

١- محمد منير بن آغا النقلي الدمشقي الأزهري ، صاحب " دار الطباعة المنيرية " تفقه فى الأزهر سلفيا ، مات فى سنة ١٣٦٧هـ ، الاعلام ٧ : ٣١٠

٢- نموذج من الاعمال الخيرية ص: ٣٨٨

٣- فهرس الفهارس ٢ : ٣٨٦

٥ - توفيق الباري لترجمة الأدب المفرد للبخاري ،

٦ - منهج الوصول الى اصطلاح حديث الرسول ،

٣ - الفقـــــه :

اهتم القنوجي بهذا الجانب اهتماما بالغا ، وتفقه على المذاهب الأربعة وأصولها ، وتضلع بمعرفة أقوال الفقهاء والمجتهدين ، وأحكام القضاة في القضاء ، حتى أصبح اماما مجتهدا عالما بمراتب الاجماع ومواطن الاتفاق ،

ويرى أن التقيد بمذهب خاص بدون نظر الى الدليل الشرعي ليس من شأن العلماء ، وقد فضل أن يسلك مسلك الانصاف مع ترجيحه ما عضده البرهان ، واحترازه سبيل المكابرة والمجادلة ،

يقول الشيخ محمد قاسم (١) مبينا منهجه في كتابه " الروضة الندية " :

" سلك فيه حفظه الله تعالى مسلك الانصاف ، وجانب في الترجيح سبيل الجور والاعتساف ، وهذب مبانيه ، وحرر معانيه ، واعتنى بتقدير الأدلة ونصب اعلامها ، وتوضيح وجوه الدلالة وأحكامها ، وذكر مذاهب الأسلاف ، وما وقع بينهم من الوفاق والخلاف ، مع ترجيح ما عضده البرهان ، من غير نظر في ذلك الى خصوصية انسان ، رائيا أن الحق أحق بأن يعض بالنواجذ عليه ، وأن ما سواه يطرح في زوايا الاهمال ولا يعول عليه " (٢)

ويقول الشيخ العلامة ابو الفتح محمد عبد الرشيد الشوبياني ، مقرظا على كتابه " ظفر اللاضي بما يجب في القضاء على القاضي " :

" ملئت بأدلة الكتاب والسنة خضراء أوراقها ، وحلى بحلى نقل مذاهب السلف والتحقيق خلخال ساقها ......فلله در كتاب هو الغاية في الباب" (٣)

---

١ - هو مصحح المطبعة المصرية الأميرية

٢ - قرة الأعيان : ١٢٨

٣ - المذكور : ١٠٦

وقد ترك لنا كتبا قيمة في علوم الفقه التي تدل على غزارة علمه وطول باعه ،

منها :

١ - الروضة الندية شرح الدرر البهية للشوكاني ،

٢ - ظفر اللاضى بما يجب في القضاء على القاضي ،

٣ - ذخر المحتى من آداب المفتى ،

٤ - الاقليد لأدلة الاجتهاد والتقليد ،

٥ - هداية السائل الى أدلة المسائل ،

٦ - بدور الأهلة من ربط المسائل بالأدلة ،

٤ - العقيـــــدة :

اما في باب العقيدة فقد كان واسع المعرفة بالمذاهب المختلفة ، فـــي الوقت الذي لا يعرف الناس في الهند سوى كتاب " شرح العقائد النسفية " وانتاجه العلمي يشتمل على مكتبة قيمة تدل على منهجه السلفي ، مثل كتابه :

١ - قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ،

٢ - قصد السبيل الى ذم الكلام والتأويل ،

٣ - الدين الخالص ،

٤ - الاحتواء على مسألة الاستواء ،

٥ - الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح ،

وغيرها من الكتب ،

وسيكون بحثنا هذا - ان شاء الله - من أوضح الشواهد على سعة معرفته بأصول العقيدة وسلوكه منهج السلف ،

٥ - اللغـــة :

كان للقنوجي حظ وافر من هذا العلم ، فقد برع في علم اللغة وأصولها ، ويشهد لذلك ما تناول في تفسيره من المباحث اللغوية ، ومما يدل على تذوقه الأدبي ما نراه في حسن اختياره لما يستشهد به من أشعار العرب ، وقد كان شاعرا ، وله قصائد ، منها قصيدة في مدح خير البرية منها :

أوفى أمارات النبوة أنـــه ... أعى المصاقع عدة العربـــاء

انت الذى أثنى عليك الله فـــى ... سفر كريم كاشف الأشيـــاء

ولك الشفاعة والمكانة في غـــد ... ولأنت أكرم معشر الشفعـــاء

وعظيم رجوى أن تكون مشفعـــى ... في عفوز لاتى بيوم جـــزاء(١)

ومؤلفاته من أوضح الشواهد على براعته الأدبية واللغوية ، منها :

١ - البلغة الى أصول اللغة ،

٢ - العلم الخفاق من علم الاشتقاق ،

٣ - لف القماط على بعض ما استعمله العامة من المعرب والمولـــد والدخيل والأغلاط ،

٤ - الوشى المرقوم في بيان أحوال العلوم المنثور منها والمنظوم ،

٥ - السحاب المركوم في بيان أنواع الفنون والعلوم ،

ان القنوجي لم يشتهر في العلوم الآنف ذكرها فقط ، بل نرى انه كـــان على صلة وثيقة بعلوم أخرى كالتاريخ والسير والمناقب والسياسة وغيرها وطـرق أبوابها ، كما يقول استاذه حسين بن محسن اليماني :

---

١ - ماثر صديقى ٢ : ٢٩

" البارع فى سائر العلوم الجامع بين منطوقها والمفهوم ...... وكم له من تآليف مفيدة ، ورسائل عديدة فى كل فن من الفنون ما بين تفسير وحديث وغير ذلك ، أظهر فيها شموس البراهين ، واحتوت على جمل من الفوائد النفيسه للمستبصرين ، فلقد أجاد فيها وأفاد ، وقرر ما نقله عن الجهابذة النقاد ، فعند ذلك أخرست براهينه السن المعترضين " ( ١ )

وقد ترك فى أكثر العلوم تواليف جمه غنية بالعلم ـ التى سأذكرها ضمن مؤلفاته ـ تدل على ثروته الواسعة ، وتعبر عن مكانته وقدرته ،

---

١ ـ قرة الأعيان : ٦٤

استعانتــه بالعلمـــاء :

قد استعان ـ رحمه الله ـ بالمشائخ الأفاضل فى جميع أنحاء العالـــم الاسلامى ، للحصول على التراث الاسلامى وكتب السلف ، ثم يقـــوم بمطالعتها بدقة نظر وبحث ، ويشرحها اذا رأى المصلحة فيه ، ويطبعهـا وينشرها اذا رأى ذلك مجديا ،

وأسرد أسماء بعض العلماء الذين بذلوا جهودهم فى جمع الكتـــب وارسالها الى القنوجى ، سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة ، ومهما بذلوا فيها من مال أو عناء ، وعين لهذه المهمة وكلاء فى جميع الأقطار ، ويبلغ عددهـم أكثر من ٢٥ عالما ، وهم :

١ ـ الشيخ احمد بن ابراهيم بن عيسى الشرقى النجدى ،

٢ ـ " حسين بن محسن الانصارى اليمانى ،

٣ ـ " العلامة عبد الله بن راشد النجدى ،

٤ ـ " العارف بالله عبد الله المهاجر نزيل مكة ،

٥ ـ " العلامة يوسف بن مبارك حسن الشافعى اليمنى ،

٦ ـ " ابو بكر المطوف المكى ،

٧ ـ " محمد عبد الله بن حميد مفتى الحنابلة بمكة ،

٨ ـ " الأديب أمين العلوانى نزيل مكة ،

٩ ـ " عبد اللطيف البصرى ،

١٠ ـ " محمد فارس نزيل قسطنطنية ( مدير المطبعة ) ،

١١ ـ " محمد بن أحمد الأهدل ،

١٢ - الشيخ هارون الحديدى ،

١٣ - " المحدث محمد بن عبد الله الزدرك الحسينى ،

١٤ - " الصالح احمد بن ابراهيم بن عيسى النجدى ،

١٥ - " محمد سالم طائش ،

١٦ - " محمد بن على بن عبد الوهاب صائم الدهر ،

١٧ - " المحدث محمد بن احمد بن عبد البارى الأهدل ،

١٨ - " سليمان بن محمود ،

١٩ - " محمد سعيد الانصارى اليمانى ،

٢٠ - " محمد الكتبى المكى ،

٢١ - " راشد على النعامى النجدى ،

أما وكلاؤه فى الهند ، منهم :

٢٢ - الشيخ محمد عبد الكريم المدراسى ،

٢٣ - " محمد السورتى تاجر الكتب فى بومبائى ،

٢٤ - " على عباس ،

٢٥ - " القاضى محمد البشاورى ،

٢٦ - " محمد معز الدين الخالص پورى ، (١)

---

١ - صوت الجامعة ص : ٥٢ ( شعبان ١٣٩١هـ )

بعض ميزاته فى التأليف :

١ - ان القنوجي اعتمد فى تصانيفه على كتب السلف ، وما وجده عند علماء السلف كابن تيميه وابن القيم وابن حجر والذهبى والسفارينى والسيوطى والشوكانى وغيرهم ، لأن علماء السلف يمتازون بالأمانة العلمية والصدق واحقاق الحق ، وابطال الباطل فى ضوء الكتاب والسنة ، واجتناب المجادلة والمكابرة مع كونهم أتقياء صالحين ، يتوخون الحق فى أقوالهم وكتاباتهم ،

أما الخلف فما استفاد منهم الا قليلا لوقوعهم أحيانا فى التعصب المذهبى واتباع الهوى ، وذلك لقلة علمهم " (١)

٢ - أنه يهتم دائما فى نقل عبارة العلماء بأمرين :

أ - التصريح باسم القائل وأن التدليس فى هذا الباب خيانة كبرى ،

ب - كون النقل موافقا للأصل ، (٢)

٣ - استدلاله على المسائل العلمية بالأدلة القاطعة الصحيحة ، والاحتراز عن الضعيف والرأى المجرد ،

٤ - ترجيحه ما يرى مستدلا من الكتاب والسنة ، (٣)

---

١ - ابقاء المنن : ١٨ ، ماثر صديقى ٤ : ١٦٩
٢ - " " : ٣٤ ، " " ٤ : ١٧١
٣ - " " : ٧٥ ، " " ٤ : ١٧١

مؤلفاتـــــه :

لقد عرفنا هذه المنزلة العلمية التي احتلها القنوجي في أوساط العلماء بشهاداتهم وتقريظاتهم ، وأن القارئ في سيرته - ما جرى عليه من التقلبات في حياته ، فكان يعيش في صباه على ثوب ورغيف خشن ، وما عقب ذلك من توليه إمارة بهوفال ، ثم حبه للعلم ، وتسخيره كل امكانياته في خدمتـــه - يدرك تمام الادراك انه صورة صادقة للعزيمة والصبر ، ولم يبال لومة لائـــم ، وترك الأعداء والحساد حيارى ، ونحى نحو التأليف ، وتبلغ مؤلفاته حوالـــي ثلاثمائة في مختلف اللغات العربية والفارسية والأردية في الفنون المختلفة ،

وأما محاولة بعض المتعصبين اثارة الشبهات حول مؤلفات القنوجي وأنها ليست من تصانيفه ، بل هي مؤلفات العلماء الآخرين نسبها لنفسه ، ومـــا الى ذلك من الأقوال التي لا تنبني الا على الظن والتمويه ،

لقد تعرض كاتب نصراني لترجمته في كتابه (١) ، ثم استطرد قائلا :

" أبو الطيب صديق القنوجي البخاري أصله من عوام الناس ، الا أنـــه توصل الى ملكة بهوفال في اقليم الدكن في الهند ، وتزوج بها وتسمـــى نائبا عنها ، فعندما اغتنى بالمال جمع اليه العلماء وأرسل فابتاع الكتـــب خط اليد من كل جهة ، وجمع مكتبة كبيرة ، وكلف من حوله من العلمـــاء بالتأليف ، ثم أخذ مصنفاتهم ونسبها لنفسه ، بل كان يختار الكتب القديمة التي لم تكن منها سوى النسخة الواحدة ويغير العنوان ويبدله باسم آخر ، ويضع على الصحيفة الأولى اسمه مع ألقاب الفخر "

---

١ - اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص : ٤٩٧ لكولونيل ايدورد فنديك ٠

لا شك ان هذا الكاتب الحاقد أراد بهذه الافتراءات النصرانية تشويه سمعة القنوجي وتقليل قيمة كتبه ، لكن هذه الشبهات والهذيان لم يصغ اليها أحد ، ولم تؤثر على شخصية القنوجي وعبقريته ، وعلى مثابرته ومواظبته على التأليف ، بل زاد بها قدره ومنزلته ، كما قيل : "لا بد لكل فقيه من سفيه ينقصه" وكما قال الشاعر :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا ان تعد معائبه

ونرى أن مؤلفاته احتلت مكانة مرموقة فى الأوساط العلمية ، وهى كافية لرد مزاعم ايدورد فنديك ، لكنى أرى أن أناقش بعض أفكاره التى بثها، حتى يعرف القارئ مدى تزويره وأباطيله ،

أ ـ أما قوله : " أصله من عوام الناس"

فهذا من الكذب ، بل هو من أخص الخواص ، ونسبه ينتهى الى حسين بن على رضى الله عنهما ـ كما ذكرته فى بداية البحث ـ وهو لم يعتمد على النسب ، بل عمل ما يرضى الله ويرفع شأنه علما وعملا ، وأسرته معروفة بالعلم والشرف فى الهند وخارجها ،

وأما من حيث المرتبة والوجاهة فجده أولاد على الملقب " بأنور جنك " كان ذا جاه ووقار وعلى منصب عظيم فى حيدر آباد ، ومن حيث الزهد والتقوى فقد عرفتم أن والده ترك أرث أبيه الرافضى لكونه كسب رجل شيعى (١) ،

ب ـ اما قوله : " وكلف من حوله من العلماء بالتأليف ثم أخذ مصنفاتهم ونسبها لنفسه "

---

١ ـ قضاء الأرب ص : ٢٥٣

فهذا لا حقيقة له ، لأن العلماء الذين كانوا معه في الامارة لهم تواليف ، وهي شائعة في الهند ، ومتناولة بين أيدي العلماء والدارسين ، وشتان ما بين هذه المؤلفات وبين مؤلفات القنوجي أسلوبا ومنهجا واستدلالا ، ويظهر هذا الفرق بوضوح لكل من درس مؤلفات القنوجي دراسة متقنة واعية ،(١)

ج - اما قوله : "بل كان يختار الكتب القديمة التي لم تكن منها سوى النسخة الواحدة ويغير عنواناتها ثم يعزوها لنفسه ،

فمن الذي ضمن للقنوجي أنه لا توجد الا نسخة واحدة ، هل تتبع مكتبات العالم كلها وحصلها بدقة ، حتى يخرج بهذه النتيجة ، ان هذا أمر فوق طاقة البشر ، ولو كان القنوجي عمل هذا لظهرت مخطوطات ولو في أماكن بعيدة تكشف هذه السرقة ، ولم يكتشفها أحد غير ايدورد ، حتى اليوم في الوقت الذي رتبت فهارس المخطوطات وعرف مكانها ومؤلفوها ، فلم نسمع من أحد يقول مثلما تفوه به ايدورد ، سبحانك هذا بهتان عظيم ،

وصدور مثل هذه الايرادات والانتقادات من بعض المعاصرين لا غرابة فيه ، كما قيل : "ان المعاصرة هي أصل المنافرة ، (٢) اذا لا ينبغي الالتفات الى أكاذيب ايدورد التي بثها عنادا وعدوانا وحسدا ،

ان من درس حياة **القنوجي** وعرفه عن كثب رأى أنه كان شغوفا بالعلم منذ صغره الى نهاية عمره ، منقطعا للعلم والتأليف ، وذا صبر دائب على البحث والتحقيق ، وكان التأليف والتصنيف له كالغذاء ، (٣) كما عرفنا

---

١ - انظر ماثر صديقي ٤ : ١٧٩

٢ - قضاء الأرب ص : ٢٥٥

٣ - " " ص : ٢٥٠

اشتغاله بالعلم أثناء سفره للحج على السفينة ، وفى منى وعرفات ، وكـــان يحمل معه دائما القلم والورق حتى فى العزائم والمناسبات ، (١)

وكان له فى الكتابة سرعة عجيبة وفى التأليف ملكة غريبة ، بحيث يكتـــب الكراريس العديدة فى يوم واحد ، ويصنف الكتب الضخمة فى أيام قليلة ، ولم ينقطع عن التأليف مهما كانت الظروف ، (٢)

وقد حسب بعض المؤرخين أيام حياته وتصانيفه ، فكان لكل يوم ثمانيـــة أوراق (٣) ، وكان مستمرا على هذا المنوال ، مكبا على المطالعة والتأليف ، جامعا بين الرئاستين العلمية والدنيوية ، بل نستطيع ان نقول انه قل مـــن الأغنياء من سلك هذا المسلك ، فهو أشبه ما يكون بابن حزم ، فلا غرابـــة اذا ان تثمر جهوده المباركة فى مجال التأليف مجموعة من الكتب والرسائل ، وان تصدر عنه المؤلفات العديدة فى مختلف الفنون ، التى لا تزال مرجعـــا من مراجع العلم والمعرفة فى بلاد العرب والعجم ،

---

١ - مجلة " معارف " ص : ٤٤٢ يونيو ١٩٧٥م

٢ - مقدمة الحطة ص : ٥

٣ - صوت الجامعة ص : ٥٤ ( شعبان ١٣٩١هـ )

وسأسرد بحول الله تعالى أسماء ماتوصلت الى معرفته من مؤلفاته العربيـــة منها وغير العربية ، (١)

## مؤلفـاته العربيــــة

### التفســير :

١ = فتح البيان فى مقاصد القران

٢ = نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ،

### الحـديث :

١ = الادراك بتخريج أحاديث رد الاشراك

٢ = الاذاعة لما كان ومايكون بين يدى الساعــة

٣ = أربعون حديثا فى فضائل الحج والعمرة

٤ = أربعون حديثا متواترا

٥ = اكليل الكرامة فى تبيان مقاصد الامامة

٦ = بلوغ السول من أقضيــة الرسول

٧ = الحرز المكنون من لفظ المعصوم المامون

٨ = حسن الاسوة بما ثبت من الله ورسوله فى النسوة

٩ = الحطة فى ذكر الصحاح الستة

١٠ = الرحمة المهداة الى من يريد زيادة العلم على أحاديث المشكاة

١١ = السراج الوهاج فى كشف مطالب صحيح مسلم ابن الحجاج

---

١ـ انظر : فهرست كتب مؤلفه والا جاه مرحوم (ضمن الجزء الرابع لمآثر صديقي) ارائة الطريق الى مؤلفات أبى الطيب الصديق ، تراجم علماء حديث هند ص : ٢٥١ ، نصب الذريعــة ص : ١٢٩

١٢ = الروض البسام من ترجمة بلوغ المرام

١٣ = العبرة لما جاء في الغزو والشهادة والهجرة

١٤ = عون الباري لحل أدلة البخاري

١٥ = فتح العلام شرح بلوغ المرام

١٦ = نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار

العقيدة

١ = الانتقاد الرجيح بشرح الاعتقاد الصحيح

٢ = الجوائز والصلات

٣ = حضرات التجلي من نفحات التحلي والتخلي

٤ = خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان

٥ = الدين الخالص

٦ = الغنة ببشارة الجنة لأهل السنة

٧ = قصد السبيل الى ذم الكلام والتأويل

٨ = قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر

٩ = مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام

١٠ = يقظة أولي الاعتبار من ذكر النار واصحاب النار

فقه وأصول

١ = الاقليد لأدلة الاجتهاد والتقليد

٢ = الجنة في الأسوة الحسنة بالسنة

٣ = حصول المأمول من علم الأصول

٤ = ذخر المحتى من آداب المفتى

٥ = رحلة الصديق الى البيت لبعتيق

٦ = الروضـــة الندية فى شرح الدرر البهية

٧ = الطريقة المثلى فى الارشاد الى ترك التقليد واتباع ماهو الهوى

٨ = ظفر اللاضى بما يجب فى القضاء على القاضي

٩ = قضاء الأرب من تحقيق مسألة النسب

## اللغـــة والأدب :

١ = الانشاء العربى

٢ = البلغة فى أصول اللغة

٣ = ربيع الأدب

٤ = العلم الخفاق من علم الاشتقاق

٥ = غصن البان المورق بمحسنات البيان

٦ = الكلمة العنبرية فى مدح خير البرية

٧ = لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من المعـــــــــرب والمولد والدخيل والأغلاط

٨ = نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان

## تاريـــخ وتراجـــم :

١ = احياء الميت بذكر مناقب أهل البيت

٢ = التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول

٣ = رياض الجنة فى تراجم أهل السنة

٤ = لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان

٥ = مراتع الغزلان فى تذكار ادباء الزمان

## الأخلاق والمواعظ :

١ = تخريج الوصايا من خبايا الزوايا

٢ = الموعظة الحسنة بما يخطب فى شهور السنة

## المنطق :

١ = التذهيب شرح التهذيب

## الموسوعات :

١ = أبجد العلوم

## مـؤلفاتـه الأردية والفارسيـة

### التفسـير :

١ = افادة الشيوخ بقدر الناسخ والمنسوخ

٢ = الاكسير فى أصـول التفسير

٣ = ترجمان القرآن بلطائف البيان

٤ = تذكير الكل بتفسير الفاتحة وأربع قل

٥ = فصـل الخطاب فى فضل الكتاب

### الحـديث :

١ = اتباع الحسنة فى جملـة أيام السنة

٢ = بغية القارى فى ثلاثيات البخارى

٣ = تقوية الأيقان بشرح حديث حلاوة الايمان

٤ = تميمة الصبي فى ترجمة أحاديث النبي

٥ = توفيق البارى لترجمة الأدب المفرد للبخارى

٦ = جامع السعادات ترجمة لمنبهات لابن حجر

٧ = خير القرين ترجمة لأربعين

٨ = سلسلة العسجد فى مشائخ السند

٩ = ضوء الشمس من حديث " بنى الاسلام على خمس "

١٠ = عين اليقين ترجمة لأربعين للغزالي

١١ = غنية القارى فى ترجمة ثلاثيات البخارى

١٢ = كشف الكربة عن أهل الغربة

١٣ = كشف اللثام عن غربة الاسلام

١٤ = محاسن الاسلام

١٥ = محو الحوبة بالاستغفار والتوبة

١٦ = مسك الختام شرح بلوغ المرام

١٧ = منهج الوصول الى اصطلاح أحاديث الرسول

١٨ = موائد العوائد من عيون الأخبار والفوائد

١٩ = النهج المقبول من شرائع الرسول

٢٠ = نيل الأماني

العقيـــــدة :

١ = الاحتواء على مسألة الاستواء

٢ = اخلاد الفــؤاد الى توحيد رب العباد

٣ = اخلاص التوحيد للحميد المجيد

٤ = اقتراب الساعة

٥ = الانفكاك عن مراسم الاشراك

٦ = ايقاظ الرقود بأهوال اليوم الموعود

٧ = بذل الحياة لحسن الممات

٨ = بذل المنفعة لايضاح الأركان الأربعة

٩ = بغية الرائد في شــرح العقائد

١٠ = ترجمة شرعــة الاسلام

١١ = تعليم الايمان

١٢ = التفكيك عن انحاء التشريك

١٣ = ثمار التنكيت فى شرح أبيات التثبيت

١٤ = حجج الكرامة فى آثار القيامة

١٥ = الدر المنضود فى ذكر المهدى الموعود

١٦ = دعاية الايمان الى توحيد الرحمن

١٧ = دعــوة الحق

١٨ = دعــوة الداع الى ايثار الاتباع عن الابتداع

١٩ = الروض الخضيب من تزكية القلب المنيب

٢٠ = زيادة الايمان بأعمال الجنان

٢١ = عــقيده سني

٢٢ = ضالة الناشد الكئيب فى شرح المنظوم المسمى بتأنيس الغريب

٢٣ = فتح الباب لعقائد أولى الألباب

٢٤ = قضــية المقدور على فتنة القبور

٢٥ = قواطع البشر عن أنواع الشر

٢٦ = قــول ثابت

٢٧ = قــول حــق

٢٨ = كلمــة الحــق

٢٩ = اللواء المعقود لتوحيد الرب المعبود

٣٠ = مراد المريد فى اخلاص التوحيد

٣١ = المعتقد المعتمد

٣٢ = ملاك السعادة فى افراد الله تعالى بالعبادة

٣٣ = منهاج العبيد الى معراج التوحيد

٣٤ = النصح السديد لوجوب التوحيد

٣٥ = النذير العريان من دركات النيران

٣٦ = هادى القلب السليم الى درجات جنات النعيم

فقه :

١ = أسئلة أجوبة بشاور

٢ = ايضاح المحجة للعمرة والحجة

٣ = بدور الأهلة من ربط المسائل بالأدلة

٤ = البنيان المرصوص من ايجاز الفقه المنصوص

٥ = تحفة الصائمين

٦ = تعليم الحج

٧ = تعليم الزكاة

٨ = تعليم الصلاة

٩ = تعليم الصيام

١٠ = حل الأسئلة المشكلة

١١ = حل سوالات مشكلة

١٢ = دليل الطالب على أرجح المطالب

١٣ = روز مرّا سلام

١٤ = رفع الالتباس عن مسائل اللباس

١٥ = سبيل الرشاد لما يحتاج اليه العباد

١٦ = سعة المجال الى ما يحل من الأرزاق والأموال

١٧ = السيف المسلول على من سب الرسول

١٨ = صلاح ذات البين ببيان ما للزوجين

١٩ = طراز الخمرة فى فضائل العمرة

٢٠ = عرف الجادى من جنان هدى الهادى

٢١ = فتاوى امام المتقين

٢٢ = فتح المغيث بفقه الحديث

٢٣ = فلاح البرايا فى اصلاح الراعى والرعايا

٢٤ = كشف الالتباس عما وسوس به الخناس

٢٥ = المقتصر المختصر فى حسن الظن للمحتضر

٢٦ = هداية السائل الى أدلة المسائل

٢٧ = وسيلة النجاة لأداء الصلاة والصوم والحج والزكاة

## اللغة والأدب :

١ = آمد نامه

٢ = برد الأكباد شرح قصيده بانت سعاد

٣ = تحفه فقير در ذكر قهوه وشاى

٤ = تصريف الرياح

٥ = ديوان كل رعنا

٦ = الشمامة العنبرية فى مولد خير البرية

٧ = صافيه شرح كافية

٨ = قسطاس الأذهان فى شرح الميزان

٩ = معجب نحو المغرب

١٠ = المغنم البارد للصادر والوارد

١١ = المنهل العذب الصافى

١٢ = نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب

## تاريخ وتراجـــم :

١ = ابـقاء المنن بالقاء المحن

٢ = اتحاف النبلاء باحياء مآثر الفقهاء والمحدثين

٣ = بزم سخن

٤ = بلوغ العلى بمعرفة الحلى

٥ = ترجمان وهابية

٦ = تشريف البشر بذكر الأئمـة الاثنى عشر

٧ = تـقـصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار

٨ = تكريم المؤمنين بتقديم مناقب الخلفاء الراشدين

٩ = جلب المنفعـة فى الذب عن الأئمـة المجتهدين الأربعـة

١٠ = حديث الغاشية

١١ = رفو الخرقـة بشرف الحرفـة

١٢ = سر من راى

١٣ = شمع انجمـن

١٤ = صبـح كلشن

١٥ = طلائع المقدور من مطالع الدهور

١٦ = طور كليم

١٧ = الفرع النامي من أصل السامي

١٨ = كشف الغمة عن افتراق الأمة

١٩ = منتخب نفح العود

٢٠ = نصب الذريعه الى تعديد علوم الشريعة

٢١ = نكارستان سخن

## اخلاق وآداب :

١ = اختيار السعاده بايثار العلم على العباده

٢ = ادامة السكر باقامة الصبر والشكر

٣ = اسعاد العباد بحقوق الوالدين والأولاد

٤ = اعلام البشر بوجوه الخير والشر

٥ = ايقاظ النيام بصلة الأرحام

٦ = برك سبز

٧ = بشارة الفساق

٨ = بشنويد

٩ = تبشير العاصى بتكفير المعاصى

١٠ = تحريم الخمر والزنا واللواط والمعازف والعشق

١١ = تحصيل الكمال بالخصال الموجبة للظلال

١٢ = تسلية المصاب

١٣ = تطهير الثوب بقبول التوب

١٤ = تعليم الذكر والدعاء

١٥ = تفريج الكروب بالتوبة عن الذنوب

١٦ = توزيع العباد الى الدرجات فى يوم المعاد

١٧ = توزيع المعاصى والطبقات الى انماء الدركات والدرجات

١٨ = توضيح المعاصى

١٩ = حث الانسان على مايوجب دخول الجنان

٢٠ = خلق الانسان

٢١ = خيرة الخيره

٢٢ = الداء والدواء

٢٣ = دواء القلب القاسى بتذكير الموت للناسى

٢٤ = رساله منجيات ومهلكات

٢٥ = رياض المرتاض

٢٦ = سائق العباد

٢٧ = صدق اللجا الى ذكر الخوف والرجا

٢٨ = عاقبة المتقين

٢٩ = عشرة كامله

٣٠ = عمارة الأوقاف بوظائف العبادات

٣١ = غراس الجنة فى الأذكار والأدعية

٣٢ = فتح الخلاق بلطائف المنن والأخلاق

٣٣ = فتنة الانسان من تلقاء أبناء الزمان

٣٤ = قطـع الأوصال

٣٥ = قـوارع الانسان عن اتباع خطوات الشيطان

٣٦ = كشف الستبتر عن وجهة الذكر والفـكر

٣٧ = اللتيا واللتى فى ذم النساء

٣٨ = لسان العرفان الناطق بما يهلك الانسان

٣٩ = مقـالات الاحسان

٤٠ = المقالة الفصيحة فى الوصيـة والنصـيحة

٤١ = مكارم الأخـلاق

٤٢ = منتخب زاد المتقيـن

٤٣ = وصـيت نامه ابوالوفا

٤٤ = ضيافـة الاخوان

منطـــــــق :
===========

١ = هديه شاهجهانيه حل مرقات ميزانيه

السياســـــة :
==========

١ = حسن المساعى الى اصـلاح الرعيـة والراعى

الموسوعات :
=======

١ = حظيرة القدس وذخيرة الانس

ثناء العلماء عليه :

يقول معاصره الشيخ عبد الرزاق البيطار (١) :

" كان مليا بالعلوم متضلعا منها بالمنطوق والمفهوم ، مجتهدا فى اشاعتها ،مجددا لاذاعتها مع كونه يرى ذاته الشريفة كآحاد المسلمين ،ويتواضع مع كل واحد من الناس لله رب العالمين ويتحاشى كماله عن الدنيا وزخارفها ،يتجافى بقلبه عن مراقيها ومعاطفها ، واحيا السنة الميتة فى ذلك المكان ، بالأدلة البيضاء من السنة والفرقان فهو سيد علماء الهند فى زمانه ، وابن سيدهم الذى برع فضلا فى عصره وأوانه ، فخضعت له النواصى وشهد بكماله الدانى والقاصى " (٢)

ويقول عنه الشيخ محمد منير الدمشقي :

" محى السنة ،قامع البدعة الذى افتخرت به بهوفال على جميع الأقطار ،...... جد واجتهد فى اتقان علوم القرآن والسنة وتدوين علومهما ، واشتغل بالدرس والتأليف، وصار رأسا فى المعقول والمنقول ،وأحرز جميع المعارف ، واتفق على تحقيقه الموافق والمخالف، وصار مشارا اليه بالبنان والمجلى فى معرفة غوامض علوم الشريعة عند البرهان " (٣)

---

١ـ عبد الرزاق بن حسن بن ابراهيم البيطار الميداني الدمشقي ، كان من دعاة الاصلاح ،سلفي العقيدة، ( ١٢٥٣ ـ ١٣٣٥هـ ) الأعلام ٣ : ٣٥١

٢ـ حلية البشر ٢ : ٧٤٥

٣ ـ مقدمة الدين الخالص

ويلقبه معاصره السيد عبد الحي الحسني [(١)] :

بـ " علامة الزمان ، وترجمان الحديث والقرآن ، محيي العلوم العربية ، وبدر الأقطار الهندية ، السيد الشريف صديق حسن بن أولاد حسن ابن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي صاحب المصنفات الشهيرة والمؤلفات الكثيرة ...... وكان مع اشتغاله بمهمات الدولة كثير الاشتغال بمطالعة الكتب وكتابة الصحف " (٢)

---

(١) هو عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني ، من كبار علماء الهند باحث مؤرخ ـ وهو والد الشيخ ابي الحسن على الندوي ـ ( ١٢٨٦ـ ١٢٩٩ ) العلامة السيد عبد الحي الحسني ص: ٢٥

(٢) نزهة الخواطر ٨ :١٨٧

## الفصـــــــل الســـــــادس

=================

### منهجـــــــه فى اثبات العقائد

موقفـه من علم الكلام ومناهج المتكلمين

موقفـه من النظر العقلى فى اثبات العقائد

موقفـه من التقليد والايمان

موقفـه من التأويل للنصوص الدينية

وقبل أن نبدأ فى عرض آراء القنوجي الاعتقادية نتحدث عن منهجه فى اثبات العقائد وبيان موقفه من علم الكلام ومناهج المتكلمين وآراءهم فى النظر والتقليد والتأويل اظهارا لمنهجيته السلفية فى هذا المقام :

موقفه من علم الكلام ومناهج المتكلمين :

ان القنوجى - رحمه الله - كان يقول باتباع أسلوب القرآن الكريم فى تقرير العقائد وعلوم الدين ، اعتقادا منه أن ذلك أجل نفعا وأعظم فائدة وأبلغ تأثيرا من مؤلفات المتكلمين المتعمقين الخائضين فى ذات الله وصفاته ،

وان ما أودع الله فيه من أدلة وبراهين كاف وشاف فى الاستدلال على المسائل العقائدية دون اللجوء الى أساليب الجدليين والكلاميين المبتدعة فى أصول الدين ، التى لا تروى غليلا ولا تشفى عليلا ، كما يقول مستشهدا بابن الوزير (١) :

قوله تعالى :

" كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين (٢) " وفى معناها " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٣) " وانما كانت فى معنى الأولى لأن القرآن آكد مما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبعد من كل ريب فمن استراب فى شئ منه فهو فيما سواه أعظم ريبا ، ومن ولع بالنظر فى دقائق الكلام المختلف فيها بين أهله وأعرض عن التدبر فى الكتاب وفى الفرق بين نصوصه وظواهره وخصوصه ، وعموماته ربما تمكن فى نفسه القطع بصحة أمر من تلك الأمور المختلف فيها من غير أن يحكم دليل يقطع به ويستوثق من صحته " (٤)

---

١- ترجيح أساليب القرآن ص: ١١ ،
هو محمد بن ابراهيم بن علي المرتضى ابو عبد الله عز الدين من آل الوزير ، مجتهد باحث من أعيان اليمن ( ٧٧٥ - ٨٤٠ ) سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٠٠

٢- الاعراف : ٢

٣- النساء : ٦٥

٤- قصد السبيل ص: ٣

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحث على الرجوع الى كتاب الله تعالى ، وتفضيله على غيره لما فيه من خير وهدى ،

كما روى الترمذى عن الحارث بن عبد الله الهمذانى صاحب على رضى الله عنه قال : مررت فى المسجد ، فاذا الناس يخوضون فى الأحاديث ، فدخلت على علي عليه السلام فأخبرته فقال : أوقد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا انها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم ينته الجن اذ سمعته حتى قالوا : " انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، فآمنا به (١) " من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم (٢) "

---

١ - الجن : ١ ، ٢

٢ - أخرجه الترمذى وقال : " هذا حديث (غريب) لا نعرفه الا من هذا الوجه ( حديث حمزة الزيات ) واسناده مجهول ، وفى الحارث مقال " ٥ : ١٧٢ ، وذكره ابن الاثير ، جامع الاصول ٨ : ٤٦١ ، وابن كثير فى فضائل القرآن وقال : " وان كان (حمزة) ضعيف الحديث فانه امام فى القراءة ، والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور ، وقد تكلموا فيه بل كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده ، أما أنه تعمد الكذب فى الحديث فلا ، ص : ٥ ، وقال ابن الوزير : " لم يزل العلماء يتداولون هذا الحديث ، فهو مع شهرته فى شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول ، فصار صحيح المعنى فى مقتضى الاجماع والمنقول والمعقول " ترجيح أساليب القرآن ، ص : ١٥

كما أنه لا يعتمد على علم الكلام في المسائل العقدية ، لا في تحصيل العقيدة ولا في الدفاع عنها ، بل يرى أن الاعتماد على هذا سبب ضلال وظلام في العقيدة الاسلامية ، يقول : " وأفضى الكلام بكثير من أهله الى الشك ، وببعضهم الى الالحاد ، وببعضهم الى التهاون بوظائف العبادات " ( ١ )

والخوض في هذا والبحث عنه والاصغاء اليه مضرة عظيمة جدا ، والسير الى توحيد الله وصفاته العليا واسمائه الحسنى على نمط أهل الكلام المذموم نقص في الدين وابتعاد عن المنهج القويم ،

" فمن زعم أن الحق في كلام علماء الكلام ، والتوحيد هو الذى جاء به هؤلاء الطغام والملاحدة والفلاسفة اللئام ، والقرآن لا يكفي في ذلك ، والحديث لا يغني عما هنالك فقد خرج عن دائرة الاسلام وعليه دائرة السوء من الله العزيز العلام " ( ٢ )

وان الصحابة الذين رضى الله عنهم ، وشهد التنزيل بذلك لهم ، وهم خير أسوة للأمة ، وأكثر اتباعا لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظاهر والباطن ، لم يخوضوا في الجوهر والعرض ومصطلحات المتكلمين ، وما يتعلق بذلك من مباحثهم ، فمن رغب عن طريقهم وأكب على مباحث مخترعة وقوانين جدليه وأمور صناعية مستوردة من فلاسفة اليونان فكفاه ضلالا ،

قال ابن عقيل ( ٣ ) : " أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون منهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر ، فبئس ما رأيت ( ٤ ) "

---

١ - الدين الخالص ١/١٣٦

٢ - " ١/١٥٣

٣ - على بن عقيل محمد ابو الوفاء الظفرى الحنبلي ، أحد الأعلام وفرد زمانه علما ونقدا وذكاء ، توفي في ٥١٣هـ ، لسان الميزان ، ٤ : ٢٤٣ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٥ ، ذيل طبقات الحنابلة ١ : ١٤٢ ،

٤ - الانتقاد الرجيح ص : ١١ ، انظر " تلبيس ابليس ص : ٨٢

فلو كان التعمق والخوض فيه من الدين لكان أول ما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ويعلم طريقة المتكلمين ويحث عليه ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " هلك المتنطعون (١) " اى المتعمقون فى البحث (٢) "

فعلم وجوب الابتعاد عن الطرق المبتدعة التى أمسك عنها السلف الصالح ، يقول القنوجى : " وأما نصب الأدلة التى أحدثها المتكلمة فى الاسلام ، وجاءوا بها على نهج الفلاسفة الطغام ، وزادوا عليها من عند أنفسهم - ما نهوا عن الخوض فيه والاتيان به - ودعوا الناس اليه ، والزموهم العلم والاعتقاد به ، فليس من الشرعة الحقة فى صدر ولا ورد ، وليس عليه أثارة من علم ، وانما هو من الجهل البسيط والمركب (٣) "

ان خير القرون ومن بعدهم خلت منه ، مع العلم أنهم أعرف الخلق وأفصحهم فى مسائل الدين والعقيدة وسكتوا عنه لما فيه من الشر والشبهات والاعوجاج ، والبحث عن كيفية ما لا يعلم حقيقته الا الله ، والابتعاد عن المنهج الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ليله كنهاره لا يزيغ عنه الا هالك ،

فالخوض فيه هو العجز ، لان العقول دائرتها محدودة لا تتجاوزها ، والانسان لما كان عاجزا عن ادراك ما بين يديه كنفسه ، فهو أعجز عما هو غائب عنه ، من ذات الله وصفاته ، فمن يرد التطلع الى الحقائق التى استأثر الله بها ، ولم يقتنع بما جاءت به الشريعة الغراء ، يتيه فى وادى الضلال ، يقول القنوجى : " وليس فى قوة العقل ادراك ما عند الله من الحكم التى انفرد بها ، ولو لم يكن فى الجدال الا ان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر أنه علامة الضلال ، كما قال فيما اخرجه الترمذى " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا

---

١ - رواه مسلم ٤ : ٢٠٥٥
٢ - قصد السبيل ص : ٧
٣ - الدين الخالص ١/ ١٥٠

اوتوا الجدل (١)" لكفى (٢)"

والعقل أكرم شيء في ذات الانسان ، ولا ننكر افادته ، حيث أنه يرشدنا الى الهداية والتوحيد ، وبه نميز الخبيث من الطيب ، لكن الذى ننكره هو إعمال العقل فيما لا طاقة له به، وان الايمان لا يصح الا بطريقه [بالسمعيات] ، وهذا خلاف ما عليه السلف الصالح ، كما يقول عن ابى المظفر السمعانى (٣) ،

" ان العقل لا يوجب شيئا ولا يحرم شيئا ، ولا حظ له في شيء من ذلك ... ونحن لا ننكر أن العقل يرشد الى التوحيد ، وانما ننكر أنه يستقل بايجاب ذلك حتى لا يصح اسلام الا بطريقه ، مع قطع النظر عن السمعيات ، لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التى تواترت ، ولو بالطريق المعنوى ، ولو كان كما يقول أولئك ، لبطلت السمعيات التى لا مجال للعقل فيها أو أكثرها ، بل يجب الايمان بما ثبت من السمعيات ، فان عقلناه فبتوفيق الله تعالى ، والا اكتفينا باعتقاد حقيقته على وفق مراد الله تعالى " (٤)

فالأساس الذى بنوا عليه مذهبهم والمصطلحات التى استعملوها ، والأصول التى أصلوها ثم رتبوها حسب منهجهم ، انما هى اقحام للعقل فى غير ميدانه ، وفرية على فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فان العقل له حدود لا يستطيع أن يتجاوزها ،

---

١ - رواه الترمذى ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ١ : ١٩ ، واحمد ٥ : ٢٥٢ ، وحسنه الألبانى ، صحيح الجامع رقم ٥٥٠٩ ، تخريج المشكاة ١ : ٦٣

٢ - قصد السبيل ص : ٨ ، خلاصة المعتقد ص : ١٩

٣ - عبد الكريم بن منصور السمعانى ، ابو المظفر ، من العلماء برجال الحديث ، له "معجم" فى ثمانية عشر جزءا فى التاريخ ، الرسالة المستطرفة ص : ١٣٠ ، الأعلام ٤ : ٥٧ ،

٤ - الدين الخالص ١ : ١٤٣ ، انصافا لجمهور المتكلمين نقول : انهم يقولون بان ما يتعلق باليوم الآخر طريقه السمع ،

والعجب العجاب أنهم جعلوا تعقلاتهم مع تناقضها أصلا يعتمدون عليها في تقرير العقائد ، والقرآن والسنة تابعة لها ، فما كان موافقا ومؤيدا لها قبلوه، وما كان مخالفا أولوه ، يقول نقلا عن الشوكاني (١) : " دع عنك ما حدث من تلك التمذهبات في الصفات وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها ، وجعلوها أصلا يرد إليه كتاب الله وسنة رسوله ، فان وافقاها ، فقد وافق الأصول المقررة في زعمهم ،وان خالفاها خالف الأصول ، ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم ، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه ، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى ، أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لم يبالوا به ، ولم يرفعوا رؤوسهم ، ولا عدوه شيئا " (٢)

الويل ثم الويل أن وراء ذلك غاية ، وهي أنهم عكسوا القضية ، حيث أن التعطيل صار عندهم من خالص التوحيد ، والتوحيد صار من باب التشبيه والتجسيم ، فأنكروا صفاته تعالى الثابتة من الكتاب والسنة ،

" فسموا أعظم التعطيل بأحسن الأسماء وهو التوحيد ، وسموا أصح الأشياء وأحقها بالثبوت - وهي صفات الرب تعالى شأنه - بأقبح الأسماء وهو التركيب والتأليف ،

فتولد من بين هذه التسمية الصحيحة ، المعنى الباطل ، جحد حقائق أسماء الرب وصفاته ، بل وجحد ماهيته وذاته ، وتكذيب رسله وكتبه " (٣)

فالمقدمات التي أبدعها المتكلمون لا تفيد اليقين في باب المعرفة بالله تعالى ، بل الحيرة والشك مستولية عليها ، والذي ينفعنا والقلب يطمئن اليه هو الأدلة المستقاة من القرآن والسنة ،

---

١ - التحف في مذهب السلف ص : ٦
٢ - قصد السبيل ص : ٩
٣ - الدين الخالص ١ : ٩٦

" فان الدلالات الشرعية الصادرة عن اللطيف الخبير ، وعن نبيه البشير النذير تقنع وتسكن النفوس ، وتغرس في القلوب الاعتقادات الصحيحة " ( ١ )

وقد تعقب بعض المتكلمين هذا ، وقالوا : ان السلف من الصحابة والتابعين لم يتوجهوا الى الدلائل العقلية في التوحيد ، لعدم اشتغالهم بالتفريعات في أحكام الحوادث ، ولما جاء بعدهم الفقهاء من المتأخرين استحسنوه واستعملوه في أسلوبهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن علم الكلام له ميزة ، وهي : أنه يشتمل الرد على الملحدين والدهريين ، وبه تزول شبههم ، واليقين لا يرسخ الا به .

أجيب كما ذكر القنوجي عن أبي المظفر السمعاني يقول : " أولا : فان الشارع والسلف الصالح نهوا عن الابتداع وأمروا بالاتباع ، وصح عن السلف أنهم نهوا عن الكلام ، وعدوه ذريعة للشك والارتياب ، ....... وأما ثانيا : فان الدين كمل لقوله تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم ) ( ٢ ) فاذا كان أكمله وأتمه ، وتلقاه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم واعتقده من تلقى عنهم ، واطمأنت به نفوسهم ، فأي حاجة بهم الى تحكيم العقول والرجوع الى قضاياها وجعلها أصلا " ( ٣ )

ولقد حث أئمة السلف على ترك الجدال ( ٤ ) والمراء في الدين ، وترك النظر في كتب المتكلمين الذين مسخوا الدين عن طابعه الأصلي ، ويكرهون المجادلة

---

١ - الانتقاد ص : ٤
٢ - المائدة : ٣
٣ - الدين ١ : ١٤١
٤ - الجدل مع غير المسلمين دفاعا عن الاسلام كما كان من العلماء ، هذا أمر مطلوب ، ومنه قوله تعالى ( قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ) هود : ٣٢ ، أما جدال المسلمين بعضهم مع بعض في أمور ليس وراءها نفع ديني ولا دنيوي كالتعمق في ذات الله وصفاته مع عجز العقل - فيما لم يأت به النص - فهذا أمر مذموم .

والجلوس معهم ، ونقل شبههم الى المسلمين ، كي لا تقع في عقول من لا طاقة لهم بردها ، فحذروا من مجالسة أهل الأهواء والمناظرة معهم ، حماية لعقول المسلمين وأفكارهم عن ملابسة أفكار فلسفية ، جاء ذلك في كلام كثير من الائمة ومؤلفاتهم ، يقول القنوجي : " وكان ابو حنيفة يكره الجدال على سبيل الحق ، فضلا عن الباطل ،

ويروى عن ابي يوسف : انه لا يجوز الصلاة خلف المتكلم ، وان تكلم بحق لأنه مبتدع ، وقال ايضا : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، وعنه قال : من طلب الدين بالكلام تزندق "

وقال الشافعي : اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ، ولا دين له " وقال أيضا : لو علم الناس ما في هذا الكلام من الأهواء لفروا منهم فرارهم من الأسد ، وقال أيضا : حكمي في أهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على كلام أهل البدعة ، وعنه : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من ان يلقاه بشئ من علم الكلام ، وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شئ ما ظننت مسلما يقوله "

وقال مالك : لا يجوز شهادة أهل الكلام على أيّ مذهب كانوا ،

وقال أحمد بن حنبل : علماء الكلام زنادقة ، وقال أيضا : لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل " ( ١ )

ان أصل الفطرة هو قبول ما جاء به الرسل ، لكن أعداء الدين يريدون تغيير هذه الفطرة ، فادخلوا في الدين كلمات مجملة لا أصل لها في الشريعة ، فيوردون عليه اشكالات وشبهات ، وهذا من باب الخوض الذي أمر الشرع

---

١ - قصد السبيل : ٦ ، قطف الثمر : ٦ ، خلاصة المعتقد : ٧٤ ، قارن بشرح الطحاوية : ٢٢٩ ، احياء علوم الدين ١ : ٩٥ ، تلبيس ابليس : ٨٠

بالاعراض عنه ، حيث قال ( واذا رايت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ) (١)

ولذا أوصى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بترك النظر والمراء ، فقال : عليك بدين الأعراب والصبيان فى الكتاب (٢) " (٣)

وقد أفتى أئمة السلف بتحريم الكلام حينما رأوا تسرب الكلاميين وشرهم الى صفوف المسلمين ، فى دينهم وعقيدتهم ، يقول القنوجى : " وقد أفتى الجلال السيوطى بتحريم علوم الفلاسفة كالمنطق وغيرها باجماع السلف وأكثر المعتبرين من الخلف ، منهم ابن الصلاح والنووى وخلق لا يحصون ، ....... وذهب الى تحريمه مالك ومحمد وأحمد وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف " (٤)

بعد ما رأينا أن منهج المتكلمين هو الخوض والبحث فى ما لم يعلم حقيقته الا الله سبحانه وتعالى ، فكثر بذلك اضطرا بهم فى باب الدين ، وابتعدوا عن معرفة الحق ، وارتكبوا أنواعا من المحال ، لا يرضاها الله ورسوله ، فقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن طريقهم ، لما رأوا ان العقيدة والدين هو ما جاء به القرآن والسنة ، وأما غيرهما من قيل وقال فهو من باب المراء والجدال الذى منع الشارع منه ،

يقول القنوجى : " وقد رجع كثير من ائمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة وآماد بعيدة ، لما لطف الله بهم وأظهر لهم آياته وباطن برهانه ، منهم امام المتكلمين ابو المعالى ، فقد حكى عنه الثقات أنه قال : " لقد خليت أهل الاسلام وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت فى الذى نهوا عنه ، كل ذلك رغبة فى طلب الحق وهربا من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل الى

---

١ - الانعام : ٦٨
٢ - شرح السنة ١ : ٢١٧ بلفظ : الزم دين الصبى فى الكتاب والأعراب .
٣ - قطف الثمر ، ص : ٦
٤ - قصد السبيل ص : ٧

كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، وأختم عاقبة أمرى عند الرحيل بكلمة الاخلاص ، والويل لابن الجوينى ،

وكان يقول لأصحابه : " يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى الى ما بلغ ما تشاغلت به "

وزاد على القارئ فذكر أنه قال : " وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى ، أو قال : على عقيدة عجائز ينسابور (١) "

وكذا الرازى فيلسوف الاسلام وسلطان المتكلمين بعد ما نهج منهج الفلاسفة ، وسبر طريقهم فقال :

| | |
|---|---|
| العلم للرحمن جل جلاله | وسواه فى جهلاته يتغمغم |
| ما للتراب وللعلوم وانما | يسعى ليعلم أنه لا يعلم |

وقال ايضا :

| | |
|---|---|
| نهاية اقدام العقول عقال | وغاية سعى العالمين ضلال |
| وأرواحنا فى وحشة من جسومنا | وحاصل دنيانا أذى ووبال |
| لم نستفد من بحثنا طول عمرنا | سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا (٢) |

وقال فى وصيته التى مات عليها : "لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق فى ايراد المعارضات والمناقضات ، وما ذلك الا للعلم ، بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضائق العميقة والمناهج الخفية ،

وقال فى وصيته الأخرى : " ما رأيت فى الطرق الكلامية ما يشفى عليلا أو

---

١ - قصد السبيل : ١٦ ، عون البارى ٦ : ٥٦٧ ، وانظر شرح الطحاوية : ٢٢٨

٢ - قصد السبيل : ١٦ ، انظر الحموية : ٩١ ، النبوات : ١٠٨

يروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طرق القرآن ، اقرأ فى الاثبات " الرحمن على العرش استوى (١) " و " اليه يصعد الكلم الطيب (٢) " واقرأ فى النفى " ليس كمثله شئ (٣) " " ولا يحيطون به علما (٤) " ثم قال : " ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى (٥) "

وهكذا الشهرستانى لم يكسب من علوم الفلاسفة سوى أنه ازداد حيرة وندامة، كما يقول :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر الا واضعا كف حائر على ذقنه، أو قارعا سن نادم

وزاد القرطبى فذكر : أنه قال : " عليكم بدين العجائز فانه أسنى الجوائز (٦) "

والغزالى ايضا كانت أخريات أيامه فى الحيرة والندم من المسائل الكلامية ، ثم أعرض عن هذا وأقبل على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمات وصحيح البخارى على صدره " (٧)

وكان يعتقد ان الحق فى اتباع القرآن والسنة ، وينصح بعدم الخوض والتدبر فى الكلام ، وتغيير الظاهر بتأويلات بعيدة ، يقول : " الحق الاتباع ، والكف عن تغيير الظاهر رأسا ، والحذر عن ابتداع تأويلات لم يصرح بها الصحابة ، وحسم باب السؤال رأسا ، والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث ....... ،

والايمان المستفاد من الكلام ضعيف ، والايمان الراسخ ايمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها " (٨)

---

١ - طه : ٥
٢ - فاطر : ١٠
٣ - الشورى : ١١
٤ - طه : ١١٠
٥ - قصد السبيل : ١٧ ، انظر شرح الطحاويه : ٢٢٧
٦ - " " " " " ٢٢٨
٧ - قصد السبيل : ١٦
٨ - " " : ١٥ ، انظر الجواهر : ٩٩

والشوكاني كان في بداية عمره معتزليا ، ويشتغل بعلم الكلام الذي يسمونه علم التوحيد ، ويلازم مؤلفات المتكلمين ، حرصا على ازدياد البصيرة في الدين ، لكن ما ازداد منه الا بعدا عن الوصول الى الحق ، وهذا الذي تسبب في رجوعه الى مذهب السلف ، وخلعه ربقة الكلام من عنقه ،

يقول نقلا عن الشوكاني : "وها أنا أخبرك عن نفسي وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي فاني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم أصول الدين ، واكب على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ، ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة ، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التي حببت الى مذهب السلف" على أني كنت من قبل ذلك عليه ، ولكن أردت أن أزداد فيه بصيرة وبه شغفا ، وقلت عند النظر في تلك المذاهب:

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير (١)

وكتب بعض العلماء كتابا مستقلا في تحريم علم الكلام ، فالسيوطي جمع كتابا نقل فيه نصوص الائمة عليه ، وللحافظ سراج الدين القزويني من الحنفية كتاب في تحريمه ، (٢)

واذا كان هذا هو الموقف من علم الكلام للقنوجي ورفضه لمناهج المتكلمين واستشهاده بكلام الأئمة الأعلام الذين رفضوا علم الكلام وخرجوا على مناهجه بعد نشأتهم فيه وتبينهم لباطله ورجوعهم عما كانوا فيه ، اذا كان هذا هو موقف القنوجي من علم الكلام فاننا نحب أن نخص بالبحث بعض القضايا المنهجية ، هي : قضية النظر العقلي في اثبات العقائد ، وقضية التقليد في الايمان ، وقضية النصوص الدينية وموقفه من تأويلها ،

فما هو النظر السليم المؤدي الى الاعتقاد الصحيح وما هو حكمه وما هو رأي القنوجي فيما تذهب اليه الفرق الكلامية من ذلك ،

---

١ - قصد السبيل ص : ١٧ ، فتح البيان ٦/ ٤٦٦

٢ - الدين الخالص ١/ ١٣٦

موقفه من النظر العقلي في اثبات العقائد :

النظر : تقليب البصر والبصيرة لادراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرويه . (١)

وأما المناطقة فمعناه عندهم : الفكر ، وهو ترتيب أمور معلومة للتأدى الى مجهول ،

والأمور المعلومة اما تصورية واما تصديقية ، فالمجهولات التصورية نتوصل اليها بواسطة المعلومات التصورية ، وذلك بوضع المعلومات التصورية بهيئة مخصوصة ، بأن نضع الجنس ثم نقيده بالفصل أو الخاصة ،

فاذا أردت مثلا أن تعرف ما هو الانسان ؟ ، فانه يمكنك التوصل الى مطلوبك التصورى بواسطة أمور تصورية معلومة لك ، ومتعلقة بهذا الموضوع ، ثم ترتبها ترتيبا خاصا ، فتضع الجنس أولا وهو حيوان ، ثم الفصل ثانيا وهو ناطق ، ( حيوان ناطق ) وهو الانسان ، وقد كان مجهولا تصوريا ، وكذا المجهول التصديقي ، وهو العالم حادث مثلا ، يمكن الوصول اليه بترتيب مخصوص لمقدمتين معلومتين متعلقتين بهذه الدعوى بأن تقول : العالم متغير وكل متغير حادث ينتج العالم حادث" (٢)

أما القنوجي فانه قد صرف النظر عن طريق المناطقة ، وذهب الى الشرع يأخذ منه ، فالنظر عنده : هو تأمل حال المخلوقات للتوصل منها الى عظمة الخالق ، والى اصلاح الفطرة ان أصابها شيء ،

نرى ذلك واضحا في تفسيره للآيات التي أمرت بالنظر ،

---

١ - مفردات القرآن ص: ٤٩٧

٢ - الوحدانية : ٣٣٤

قال تعالى :

" هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " ( ١ )

يقول القنوجى : " وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ....... وبيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون الى أصنامهم فى هذه الحالة وما شابهها " ( ٢ )

قال تعالى :

" وفى أنفسكم أفلا تبصرون " ( ٣ )

يقول : " فى حال ابتدائها وتنقلها من حال الى حال ....... فانه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما الى ان تنفخ فيهم الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطرة ، وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وبالألسنة والنطق ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها .

" افلا تبصرون " اى تنظرون بعين البصيرة والعبرة الأرض وما فيها ، والأنفس وما فيها فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المنفرد بالألوهية " ( ٤ )

---

١ - يونس : ٢٢
٢ - فتح البيان ٤ : ٢٤٩
٣ - الذاريات : ٢١
٤ - فتح البيان ٩/١٢٢

وقال تعالى :

" أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض " ( ١ )

يقول : " القصد التعجب من اعراضهم عن النظر في الايات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية والمعنى : ان هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان به ، بل هم متبادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم ، لا يعملون فكرا ولا يمعنون نظرا " ( ٢ )

وقد اتفق المعتزلة والأشاعرة على وجوب النظر المؤدي الى معرفة الله ، الا أن المعتزلة يوجبونه من جهة العقل ، بينما الأشاعرة يرون أنه شرعي ( ٣ )

ومما يؤخذ على المعتزلة والأشعرية أنهم أمروا بالنظر على منهجهم أي بطريق الجوهر والعرض ، وهذا ما لم يرض به علماء السلف ، فانهم يرون أن هذه التعقيدات في النظر لم يأت بها الشرع ، بل هي بدعة ووسيلة في ادخال الشبه في الدين ، يقول ابن تيمية :

" ان جمهور العامة لا يعرف هذا الدليل ، بل ولا يعرف مسمى الجسم في اصطلاح المستدلين به ، ولا يعرف أن الهواء يسمى جسما ، بل أكثر الناظرين في العلم من أهل الفلسفة والكلام والفقه والحديث والتصوف ، لم يعرفوا صحة هذا الدليل ، بل قالوا : انه باطل ، والسلف والأئمة جعلوا هذا من الكلام المبتدع الباطل ، ولم يدع أحد من الأنبياء وأتباعهم أحدا الى الاستدلال على معرفة الله بهذا الطريق ، وانما ابتدعه في الاسلام ، من

---

١ - الاعراف : ١٨٥

٢ - فتح البيان ٤٦٩/٣

٣ - انظر الارشاد ص ٨ شرح المواقف ١٢/١ تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٢١

كان مبتدعا فى الاسلام ، من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، ولكن الذى يعرفه العامة والخاصة ، أن كل واحد من الآدميين محدث كان بعد أن لم يكن ، وأنه ليس بفاعل نفسه ولم يفعله مثله ،

ولهذا استدل سبحانه بذلك فى قوله تعالى " ام خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون " ( ١ ) وكذلك حدوث ما يشهدون حدوثه ، ويعلمون أنواعا من الأدلة غير هذا " ( ٢ )

بل يرون أن النظر هو التأمل والتفكر والاعتبار فى هذا الكون - الأنفس والآفاق - ليصل الانسان الى وحدانية الله تعالى ،

كما يقول ابن تيمية : " النظر الى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب اليه " ( ٣ ) وهى - مع أنها أدلة نقلية - أدلة عقلية أيضا ، كما صرح به ، ( ٤ )

فالتفكر فى السموات والأرض والكوكب وفى الأنفس ، كل هذا أمر بها الشرع ، وهو فى الوقت نفسه دليل عقلى نحتاج اليه عند ما تطمس الفطرة ، وتحتاج الى ما يجليها ، حتى تعود الى صفائها وتبقى متمسكة بايمانها ، ( ٥ )

هذا هو التفكر الذى أمر الله به عقب الأمر بالنظر ، فالتذكر نتيجة للنظر قال تعالى : " أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت فذكر انما انت مذكر " ( ٦ )

ان ابن القيم - رحمه الله - يرى أن النظر والتفكر فى آيات الله وبدائع مصنوعاته وعجائب مخلوقاته من أجل مقاصد القرآن ، واستدل على ذلك بآيات عديدة منها:

---

١ - الطور : ٣٥
٢ - درء تعارض العقل والنقل ٧/٤٥٠
٣ - مجموع الفتاوى ١٥ : ٣٤٣
٤ - انظر درء تعارض العقل والنقل ٩ : ٣٧
٥ - مجموع الفتاوى ٦ : ٧٣
٦ - الغاشية : ١٧ - ٢١

" ومن آياته الليل والنهار " ( ١ )

" قل انظروا ماذا فى السموات والأرض " ( ٢ )

" أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ " ( ٣ )

وأتى بأمثلة كثيرة مستقاة من آيات الله البينات التى تتضمن من العبـــــــر والدلالات على ربوبية الله تعالى وحكمته " ( ٤ )

هذا هو النظر الذى أمر به الشرع فى التفكر فى الكون وما فيه ، تبقى النفس مطمئنة موحدة ، ليس هو النظر بطريقة معقدة التى جاء بها المنطقيون وأوجبـــوا الوصول الى الحق عن طريقه ، وهذا ما ذهب اليه القنوجى تبعا للسلف .

---

١ - حم السجدة : ٣٧
٢ - يونس : ١٠١
٣ - الاعراف : ١٨٥
٤ - انظر مفتاح السعادة ١ : ٢١٣

موقفه من التقليد والايمان :

هل التقليد يكفي لصحة الايمان ؟

ان هذه المسألة قد اختلف فيها الناس ، وتناقضت فيها المذاهب ، فمنهم من يرى أن التقليد المحض يفيد في الايمان بالله ، بينما الآخرون يذهبون الى أن الايمان لا يعتد به الا اذا كان عن استدلال ،

بل يزعم البعض أنه لا يصح الا بعد معرفة الأدلة من علم الكلام ، حتى بالغ البعض ، فكفر واعوام المسلمين ، يقول القنوجي :

" الطرف الأول : قول من قال : يكفي التقليد المحض في اثبات وجود الله تعالى ونفي الشريك منه . . . . . . ومنهم من بالغ فحرم النظر في الأدلة "

والطرف الثاني : قول من وقف صحة ايمان كل أحد على معرفة الأدلة من علم الكلام ،

كما يستشهد بالغزالي ( ١ ) : أسرفت طائفة فكفر واعوام المسلمين ، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر ، فضيقوا رحمة الله الواسعة وجعلو الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين " ( ٢ )

والقنوجي يرى أن المسألة تحتاج الى البسط والتفصيل ، واجتناب الافراط والتفريط ، فلا يجوز اطلاق القول بحرمة التقليد ولا بحرمة النظر ، بل النظر لأهل العلم والمعرفة وأهل الحاجة اليه ، والتقليد لمن دونهم ، يقول مستشهدا

---

١ - فيصل التفرقة ص : ٢٠٢

٢ - عون الباري ٦ : ٥٦٥ ، الدين الخالص ١ : ١٣٣

بحافظ صلاح الدين العلائي : ( ١ )

" من لا له أهلية لفهم شئ من الأدلة أصلا وحصل له اليقين التام بالمطلوب ، اما بنشأته على ذلك ، أو لنور يقذفه الله تعالى فى قلبه ، فانه يكتفى فيه بذلك ،

ومن فيه أهلية لفهم الأدلة لم يكتف منه الا بالايمان عن دليل ، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه ، وتكفى الأدلة المجملة التى تحصل بأدنى نظر ، ومن حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم الى أن تزول عنه " ( ٢ )

فالقنوجى يرى صحة ايمان المقلد ، وذلك بعد جزمه بوجود الله كجفاة العرب الذين أسلموا بغير أن يعرفوا الأدلة عليه . يقول : " المطلوب من كل أحد التصديق الجزمى الذى لا ريب معه بوجود الله تعالى ، والايمان برسله وبما جاءوا به كيفما يحصل ، وبأى طريق اليه يوصل ، ولو كان عن تقليد محض ، اذا سلم من التزلزل ، واحتج بعضهم بما تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة أنهم حكموا باسلام من أسلم من جفاة العرب ، فقبلوا منهم من غير التزام بتعلم الأدلة " ( ٣ )

هذا وقد هاجم الذين يشترطون النظر ، ويقولون ان الايمان لا يتصور الا اذا خرج الانسان عن دائرة التقليد ، وقال انها جريمة فى وجه الأمة الاسلامية ،

---

١ - هو الشيخ الامام العلامة الحافظ صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيكلدى العلائى الدمشقى ، برع فى الحديث ومعرفة الرجال والمتون والعلل ، توفى فى ٧٦١ بالقدس الشريف ، ذيل تذكرة الحفاظ ، ... للسيوطى ص : ٤٣ ، الدر الكامنة ٢ : ٩٠ ، التنبيه والايقاظ للحسينى ص : ٣٦٠

٢ - الدين الخالص ١ : ١٤٧ ، عون البارى ٦ : ٥٧٤

٣ - الدين ١/١٤٢ ، عون البارى ٦/٥٧٠

يقول نقلا عن الشوكاني (١) : " فيا لله العجب من هذه المقالة التى تقشعر بها الجلود وترجف عند سماعها الأفئدة فانها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة وتكليف لهم بما ليس فى وسعهم ولا يطيقونه ، وكفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها الايمان الجملى ولم يكلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك ولا أخرجهم بذلك عن الايمان بتقصيرهم عن البلوغ الى العلم بذلك بأدلته " (٢)

وأغرب من هذا أن من ينكرون التقليد فى زعمهم ، يدعون الى تقليد أصولهم التى أستوردوها من فلاسفة اليونان ، وهم لا يعرفون ذلك ، فهؤلاء يشتبهون فى وادى الجهل والضلال ،

يقول القنوجي : " والعجب ان من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داع اليه ، حتى استقر فى الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التى أصلوها فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها ، وهذا هو محض التقليد فآل أمرهم الى تكفير من قلد الرسول صلى الله عليه وسلم فى معرفة الله ، والقول بايمان من قلدهم ، وكفى بهذا ضلالا " (٣)

تعقيب :

يتضح لنا مما مضى من كلام القنوجي حول النظر والتقليد ، أنه يرى صحة

---

١ - ارشاد الفحول ص : ٢٦٦

٢ - الانتقاد الرجيح ص : ٧٠

٣ - عون البارى ٦ : ٥٧٣ ، الدين ١/١٤٦ ، اذا صح هذا عن قوم لا شك أنهم أصبحوا بعيدين عن الله بعدا يبقون عليه حتى يتوبوا ، ولعله يقصد ما قاله الفلاسفة من تفضيل معرفة الفلاسفة على معرفة الأنبياء ، لأن المعرفة التى تأتى عن طريقهم - كما يزعمون - تتجه الى حقائق الأشياء ، أما المعرفة التى تأتى عن الأنبياء فهى أمثلة لابراز المعقول فى صورة المحسوس من أجل العوام " كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا " الكهف : ٥

ايمان المقلد اذا حصل معه الجزم التام ، وهو لا يقدر على الاستدلال ، أما الذى يستطيع فلابد له أن يستدل ، وكذا من حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم حتى تزول عنه .

هذا الموقف الذى اختاره القنوجى هو تاييد ودفاع عن مذهب السلف ، يقول ابن تيميه - رحمه الله - " أما فى المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة والفقهاء ومن أصحابنا وغيرهم من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد حتى على العامة والنساء ، حتى يوجبوه فى المسائل التى تنازع فيها فضلاء الأمة ، قالوا : لأن العلم بها واجب ، ولا يحصل العلم الا بالنظر الخاص .

وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك ، فان ما وجب علمه انما يجب على من يقدر على تحصيل العلم ، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق ، فكيف يكلف العلم بها ، وايضا فالعلم قد يحصل بلا نظر خاص ، بل بطرق آخر من اضطرار وكشف وتقليد من يعلم أنه مصيب وغير ذلك .

وبازاء هؤلاء قوم من المحدثة والفقهاء والعامة قد يحرمون النظر فى دقيق العلم والاستدلال والكلام فيه ، حتى ذوى المعرفة به ، وأهل الحاجة اليه من أهله ، ويوجبون التقليد فى هذه المسائل او الاعراض عن تفصيلها .

وهذا ليس بجيد أيضا ، فان العلم النافع مستحب ، وانما يكره اذا كان كلاما بغير علم ، أو حيث يضر ، فاذا كان كلاما بعلم ولا مضرة فيه فلا بأس به ، وان كان نافعا فهو مستحب ، فلا اطلاق القول بالوجوب صحيحا ، ولا اطلاق القول بالتحريم صحيحا " (١)

ويقول ابن حزم : " وقال سائر أهل الاسلام كل من اعتقد بقلبه اعتقادا لا يشك فيه وقال بلسانه لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأن كل ما جاء به

---

١ - مجموع الفتاوى ٢٠٢/٢٠

حق وبرئ من كل دين سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم فانه مسلم مؤمن ليس عليه غير ذلك ....... ونحن لا ننكر الاستدلال بل هو فعل حسن مندوب اليه محضوض عليه كل من أطاقه لأنه تزود من الخير وهو فرض على كل من لم تسكن نفسه الى التصديق ، نعوذ بالله عز وجل من البلاء ، وانما ننكر كونه فرضا على كل أحد لا يصح اسلام أحد دونه ، هذا هو الباطل المحض" (١)

ويقول السفاريني : "والحق الذى لا محيد عنه ولا انفكاك لأحد منه صحة ايمان المقلد تقليدا جازما صحيحا ، وان النظر والاستدلال ليسا بواجبين ، وأن التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة ، نعم يجب النظر على من لا يحصل له التصديق الجازم أول ما تبلغه الدعوة" (٢)

وقال الشوكانى : "ومن أمعن النظر فى أحوال العوام وجد ايمانها صحيحا فان كثيرا منهم نجد الايمان فى صدره كالجبال الرواسى ، ونجد بعض المتعلقين بعلم الكلام المشتغلين الخائضين فى معقولاته التى يتخبط فيها لا يزال ينقص ايمانه وتنتقض فيه عروة عروة ، فان أدركته الألطاف الربانية نجا والا هلك ، ولهذا تمنى كثير من الخائضين فى هذه العلوم المتبحرين فى أنواعها فى آخر أمره أن يكون على دين العجائز" (٣)

وقال علاء الدين السمرقندى (٤) : "وأما التقليد فى التوحيد وأمور الدين ففيه كلام بين أهل الأصول ....... والصحيح أنه متى وجد الاعتقاد والجزم على طريق التقليد من غير شك وارتياب ، فانه يكون ايمانا صحيحا" (٥)

وبعد أن انتهينا من بيان الموقف السلفى للقنوجي من قضية النظر العقلى والتقليد ورأيه فى مسالك المتكلمين ، نحب أن نبين موقفه من القضية المنهجية الهامة وهى قضية التأويل للنصوص الدينية بحيث يتضح لنا رفضه لتأويلات المتكلمين والتزامه بأخذ العقائد من أدلتها الشرعية دون تأويل أو تعطيل ،

---

١ــ الفصل ٤ : ٣٥ ــ ٤٠
٢ــ لوامع أنوار البهية ١ : ٢٦٩
٣ــ ارشاد الفحول ص : ٢٦٦
٤ــ هو محمد بن أحمد أبو بكر علاء الدين السمرقندى صاحب "تحفة الفقهاء" شيخ كبير فاضل ، الفوائد البهية ص : ١٥٨
٥ــ ميزان الاصول ص : ٦٧٦

موقفه من التأويل للنصوص الدينية :

ان خير القرون كانوا على التسليم التام بما جاء به الكتاب والسنة ، وخاصة فى مسائل العقيدة فلم يؤثر عنهم خلاف وجدال حول مسائل الأسماء والصفات ،" بل كلهم على اثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة ، من أولهم الى اخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشئ منها ابطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها واعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالايمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرا واحدا ، وأجروها على سنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين ، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه " (١)

ثم خلف من بعدهم خلف وصلوا بعقولهم الى ما ظنوه الحق ، وعلى هذا بنوا مذاهبهم ، ثم ذهبوا الى كتاب الله وسنة رسوله ، فان وجدوا ما فى كل منهما يوافق ما ذهبوا اليه أبقوه على ظاهره ، وان وجدوه يخالف ما ذهبوا اليه أولوه ،

وهنا نجد أن العقول هى التى تحكمت فى النص مع أن الواجب كان هو العكس ، حيث كان يجب تحكيم النص وجعله المرشد للعقل ، ومن اتباع هذه الأهواء نجد الفساد الذى دخل على المسلمين فلم يعد هناك ضابط ولا مرشد ، وتشعبت بالناس الطرق ،

وان المتتبع للفكر الذى ينسب الى الاسلام يجد هذه النتيجة ، فنجد المعتزلة يذهبون الى نفى الصفات ، بينما الأشاعرة يثبتون بعضها وأولوا باقيها بألفاظ بعيدة مما أوقعهم فى التعطيل والتحريف ، وكذلك الفلاسفة

---

١ - أعلام الموقعين (١/ ٤٩)

حينما أولوا كل آيات النعيم والعذاب الجسمانيين ، وقالوا بالروحانى فقط ، حيث لا جنة ولا نار موصوفين بما جاء به القرآن الكريم ، وكانت الشيعة بضلالاتها أسوأ مثال ،

هذا ما أزعج المخلصين لدينهم فوقفوا من التأويل موقف العدالة ، لا كرها للمؤولين لذاتهم ولكن حبا للدين ودفاعا عن الوحى ،

معنى التأويل :

التأويل لغة : الرجوع ، وهو من آل يؤول اذا رجع ، (١)

وقال الجوهرى : التأويل: تفسير ما يؤول اليه الشيء ، (٢) والتأويل عند السلف له معنيان :

الأول : هو الحقيقة التى يؤول اليها الكلام ، وهو نوعان :

أ - الانشاء ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن ، تعنى قوله : " فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " (٣)

ب - الاخبار ، فتأويله عين الأمر المخبر به اذا وقع ، (٤) وهذا يشتمل على اخبار الله عن الأمور الغيبية كاليوم الآخر ، والجنة والنار ، ويشتمل على صفاته تعالى ايضا التى لا يعلم كيفيتها الا الله سبحانه ، (٥)

---

١ - لسان العرب ١١ : ٣٢ ، معجم مقاييس اللغة ١ : ١٥٩ ، المصباح المنير ١ : ٣٩

٢ - الصحاح ٤ : ١٦٢٧

٣ - البخارى ٢ : ٢٩٩ ، مسلم ١ : ٣٥٠

٤ - مجموع الفتاوى ١٣ : ٢٧٧ ، مختصر الصواعق ١ : ١٢

٥ - شرح الطحاوية : ٢٣٣ ، مختصر الصواعق ١ : ١٠

الثانى : التأويل بمعنى التفسير والبيان ، وذلك فى اصطلاح كثير من المفسرين القدامى كابن جرير ونحوه ، وأهل الفقه والحديث ، (١)

كما يقول القنوجى :

" التأويل يطلق ويراد به فى القرآن شيئان :

أحدهما : التأويل بمعنى حقيقة الشئ وما يؤول أمره اليه ، ومنه قوله : " هذا تأويل رؤياى " (٢) ومنه قوله : " هل ينظرون الا تأويله ، يوم يأتى تأويله " (٣) اى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ،

والثانى : التأويل هو التفسير والبيان والتعبير عن الشئ ، كقوله : " نبئنا بتأويله " (٤) اى بتفسيره " (٥)

أما التأويل بمعنى صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره (المعارض للعقل) ـ كما نجده عند المتكلمين ـ فهو تأويل مذموم ، بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، فهم يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر والصفات ، (٦)

ان القنوجى رحمه الله لا يعتمد على علم الكلام والمتكلمين فى أساليبهم ومناهجهم فى مسائل التوحيد ، بل نرى أنه يهاجمهم ويشدد النكير على صنيعهم ، وأن التأويل فى باب العقيدة لم يحدث الا من علم الكلام والفلسفة ، وقد لاحظنا أن القنوجى سلك فى التأويل نفس ما سلك فى علم الكلام ، لما فيه من اثارة الحيرة والشبهات ، وزلزلة العقيدة ،

فالمطلوب هو الايمان بما وصف الله به نفسه فى الكتاب ،أو وصفه به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم بدون تعطيل أو تأويل أو تكييف أو تشبيه ،لا نتجاوز الكتاب والسنة ، وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، فالمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا تؤول ولا ترد استنادا إلى الشبهات ، بل معانيهما واضحة

---

١ - جامع البيان ٣ : ١٨٢
٢ - يوسف : ١٠٠
٣ - الاعراف : ٥٣
٤ - يوسف : ٣٦
٥ - فتح البيان ٢ : ١٦
٦ - فتاوى ١٣ : ٢٩٥ ،

مفهومة فى صدور خير القرون ، اثبات بلا تأويل ، وتنزيه بلا تعطيل ،

والتأويل عنده شئ خطير جدا ، وثلمة بارزة فى بنيان الدين ، ومؤد الى ارتباك فى فهم العقيدة النقية الصافية ، يقول : "لو ذهبنا الى تأويل كل صفة ، وكل لفظة منها ، وقعنا فى حيص بيص (١) ، وكنا على مراحل شاسعة من أصل التوحيد المطلوب" ، (٢)

ان تأويل النصوص الواردة فى الكتاب والسنة من عمل الشيطان ، بل هو نوع من التحريف والتكذيب ، الذى لا يرضاه الله ورسوله ، ولا نجد واحدا من السلف أول شيئا من صفات الله تعالى ، بل نهى عنه فى كل زمان ومكان ،

" ولهذا لا نجد أحدا من سلف الأمة وأئمتها أول شيئا من صفات الرحمن ، بل صرحوا بأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان ، وأن التأويل فرع التكذيب ، وأن صرف الكلام - بلا برهان شرعي ودليل سمعي - ضرب من التحريف ، والخوض فى ذلك قسم من البدعة والهذيان " (٣)

ويرى القنوجي أن التأويل عمل عدوانى ، وابتداع فى الدين ، لم يأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بتغيير مفاهيم آيات الصفات ، بل فى هذا استخفاف بحق الله تعالى ، يقول :

قد اعتدى الناس حتى أحدثوا بدعا فى الدين بالرأى لم تبعث به الرسل
حتى استخف بحق الله أكثرهم وفى الذى حملوا من حقه شغل (٤)

الأمر الذى ندب اليه الشارع وحث عليه ، هو اجراء الصفات كما جاءت ، بدون تعرض لها بعمل ليس عليه برهان ، والتأويل لم يثبت فى حديث ، ولم يرد عن الصحابة العدول رضى الله عنهم على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لو كان التأويل من الدين ، لنقل الينا ، لأن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة ،

---

١ - وقعوا فى حيص بيص : أى فى اختلاط من أمر لا مخرج لهم ولا محيص منه ، وأيضا فى شدة وضيق ، اللسان ( حيص بيص ) .
٢ - الدين ١ : ١٥٣
٣ - الدين ١ : ١٥٣
٤ - الانتقاد : ٢٩

فمن أوجبه فهم ممن يحللون الحرام ويحرمون الحلال ، ويخالفون الله ورسوله ، يقول القنوجي : " لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك يعني المتشابهات ولا المنع من ذكره ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل الله اليه من ربه وينزل عليه " اليوم أكملت لكم دينكم (١) " ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته الى الله تعالى مما لا يجوز مع حثه على تبليغ الشاهد الغائب حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وما فعل بحضرته ، فدل على أنهم اتفقوا على الايمان به على الوجه الذي أراد الله تعالى فيها ، وأوجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله : " ليس كمثله شيء (٢) " فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم (٣) "

وان التأويل الذي أوجبه المؤولون ليس الا تنفيذا لأوامر الشيطان الذي يجري في الانسان مجرى الدم ، ليزيل لذة الايمان وحلاوته وحقيقته عن المؤمنين ، ويبعد عن الطريق المستقيم حتى يصير مفقود الايمان الذي أمر الله تعالى به ، كما يقول القنوجي : " اياك أن تؤول أخبار الصفات ، فان في ذلك دسيسة من الشيطان ، ليفوت المؤمن الايمان بعين ما أنزل الله تعالى ، قال الله تعالى : " آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون (٤) " وهذا المؤول ما آمن حقيقة الايمان الا بما أوله بعقله ففاته الايمان بعين ما أنزل الله تعالى فليتأمل (٥) "

وتأويل آيات الصفات أو حملها على المتشابهات ، وكذلك الأحاديث الصحيحة التي وردت في صفات الله تعالى ، هو عادة أعداء الحديث ودينهم ، فهم يبغضون أهل الحديث ويحسدونهم ، ويسمونهم حشوية ،

---

١ - المائدة : ٣
٢ - الشورى : ١١
٣ - الانتقاد ص : ١٢
٤ - البقرة : ٢٨٥
٥ - الانتقاد ص : ١٤

وتارة مشبهة ، مع انهم آمنوا وفق ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله وهو ما ذهب اليه السلف الصالحون من الصحابة والتابعين أى اجراء الصفات على ظاهرها بدون تأويل ، يقول : " ولا نرد ما أخبر به الصادق المصدوق عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث متبعيه حشوية ، ولا نجحد صفات خالقنا من علوه على خلقه ، واستوائه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة لمن أثبت ذلك مشبها " ( ١ )

فمن يرى أن حمل آيات الصفات على ظاهرها هو مثار الشبهة والشك ، ولا تزول هذه الشبهه الا بالتأويل ، فهو مكذب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم " ومتبع غير سبيل المؤمنين ، بل هو موافق لفرعون ومخالف لموسى حيث أنكر الفرعون بأن الله فوق السموات ، يقول القنوجي : " من اعتقد أنه ليس فى السموات اله يعبد ، ولا على العرش اله يصلى له ويسجد ، وأن محمدا لم يعرج به الى ربه ولا نزل القرآن من عنده ، فهو معطل فرعونى ، فان فرعون كذب موسى فى أن ربه فوق السموات ، فقال : " يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ، فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا " ( ٢ ) .... فمن وافق فرعون وخالف موسى ومحمدا فهو ضال ، ....... ومن لم يعتقد ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، يكون مكذبا للرسول ، متبعا غير سبيل المؤمنين بل يكون فى الحقيقة معطلا لربه ، نافيا له ، فلا يكون له فى الحقيقة اله يعبد ، ولا رب يسأله ويقصده ، وهذا قول الجهمية ونحوهم من اتباع فرعون المعطل " ( ٣ )

والذى يحمل كلام الله ورسوله على التأويلات البعيدة المستوردة ، لا يؤمن عليه الكذب فى كل أقواله ، ولا يعتمد عليه فى أفعاله ، بل له الويل والهلاك ،

---

١ - الدين ١٠٣/١

٢ - المؤمن : ٣٦ ، ٣٧

٣ - قطف الثمر : ٤

يقول : " كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التى هى بالألغاز والأحاجى أولى منها بالبيان والهداية ، وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم : ( ولكم الويل مما تصفون (١) ) (٢)

وما من فساد طرأ على الدين من اختلاف الأمم ، ووقوع الفتنة ، واراقة الدماء بين المسلمين وغيرها ، الا وسببها التأويل ، والابتعاد عن منهج السلف الصالح .

كما يستشهد القنوجى بابن القيم (٣) الذى يوضح فيه أن تمزق الدين وادخال العقائد الباطلة ، انما هو بسبب التأويل ، يقول : " فأصل خراب الدين والدنيا انما هو التأويل الذى لم يرده الله ورسوله بكلامه ، ولا دل عليه أنه مراده ، وهل تختلف الأمم على أنبيائهم الا بالتأويل ، وهل وقعت فى الأمة فتنة صغيرة أو كبيرة الا بالتأويل ...... وبالجملة فافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة انما أوجبه التأويل ...... وانما دخل أعداء الاسلام من المتفلسفة والقرامطة والاسماعيلية والنصيرية من باب التأويل .

فما امتحن الاسلام بمحنة قط الا وسببها التأويل ، فان محنته اما من المتأولين ، واما أن تسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل ، أو خالفوا فى ظاهر التنزيل ، وتعللوا بالأباطيل .

وهل دخلت طائفة الالحاد من أهل الحلول والاتحاد الا من باب التأويل ،

وهل فتح باب التأويل الا مضادة ومناقضة لحكم الله فى تعليمه عباده البيان الذى امتن فى كتابه على الانسان بتعليمه اياه " (٤)

ومن أكبر جنايا فى الشريعة الاسلامية التى جناها المتكلمون ، أنهم أولوا كثيرا

---

١ - الأنبياء : ١٨
٢ - فتح البيان ٢ : ١١ ، قصد السبيل : ١١
٣ - أعلام الموقعين ٤ : ٢٥١
٤ - فتح البيان ٢ : ١٢ ، قصد السبيل : ١١

من الآيات استنادا على أنها لا ينبئ ظاهرها عن حق ، ومفهومها عن قصد ، وقالوا ان التأويل هو الذى قصده الشرع ، وهيهات ، هذا صنيع الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ويبطلون الشرائع بجعل ذلك التأويل من الذرائع ، فمزقوا الدين تمزيقا ،

يقول نقلا عن ابن رشد (١) : " وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، وهؤلاء أهل الجدل والكلام ، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره ، وقالوا ان هذا التأويل هو المقصود به ، وانما أمر الله به فى صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم ، ونعوذ بالله من هذا الظن بالله ، بل نقول : ان كتاب الله العزيز انما جاء معجزا من جهة الوضوح والبيان ، فما أبعد عن مقصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابه أنه متشابه ، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه ، وقال لجميع الناس ان فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل ، مثل ما قالوه فى آية الاستواء على العرش وغير ذلك ، مما قالوا ان ظاهره متشابه . . . . . .

فهذه هى حالة الفرق الحادثة فى هذه الشريعة ، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذى تأولته الفرقة الأخرى ، وزعمت أنه هو الذى قصده الشرع ، حتى تمزق الشرع كل ممزق ، وبعد جدا عن موضوعه الأول (٢)"

ان التأويل هو من باب تغيير الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وقد فطرهم على الحق ، ومن الفطرة قبول ما جاء به الرسل بدون خوض فى آيات الله تعالى ، فالذين يحاولون تغييرها وتزييفها هم يكيدون للاسلام ، ويبغضون تعاليم الدين ، ويخفون العداء للرسل فى قلوبهم ، ويسعون فى فسخ الشريعة المحمدية ، التى لا خفاء فيها ولا غموض ، ويوردون عليها اشكالات

---

١ - مناهج الأدلة : ١٨١

٢ - قصد السبيل ص : ١٣ ، فتح البيان ١٣/٢

وشبهات ، فيجعلونها من باب المتشابهات التي لا بد من تأويلها ، يقول القنوجي : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ( ١ ) : كل مولود يولد على الفطرة أى فطرة الاسلام ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ، ثم يقول أبو هريرة : " اقرأوا ان شئتم " فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ( ٢ ) " هذا معنى قول عمر بن عبد العزيز : " عليك بدين الأعراب والصبيان فى الكتاب ، يعنى عليك بما فطرهم الله عليه ، فان الله فطرهم على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها ،

وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم ، فيريدون أن يغيروا فطرة الله ودين الله ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم " ( ٣ )

ان المتأولين الذين جعلوا التأويل من الدين ليسوا من الفرقة الناجية التى أشار اليها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه عن افتراق الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة ، ثم حددها بقوله : هى التى ما أنا عليه وأصحابى ، وهم غير مؤولين بلا شك ، كما يقول مستشهدا بابن رشد : " ولما علم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ان مثل هذا يعرض ولا بد فى شريعته ، قال صلى الله عليه وسلم : " ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة " ( ٤ ) ويعنى بالواحدة التى سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله " ( ٥ )

---

١ - البخارى ١١ : ٤٩٣ ، مسلم ٤ : ٢٠٤٧
٢ - الروم : ٣٠
٣ - قطف الثمر ص : ٦
٤ - حديث افتراق الأمة رواه باختلاف الألفاظ الترمذى ٥ : ٢٥ وقال : حسن صحيح ،أبو داود ٤ : ١٩٨ ، وابن ماجة ٢ : ١٣٢١ ،أحمد ٢ : ٣٣٢ ، والدارمى ٢ : ٢٤١ ، والحاكم ١ : ١٢٨ وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال بعد أن ساق بعض الطرق : هذه أسانيد تقام بها الحجة فى تصحيح الحديث ، والآجرى فى الشريعة ص : ١٤ ، وابن أبى عاصم فى السنة ٢ : ٤٦٣ ، وصححه ابن تيمية ، فتاوى ٣ : ٣٤٥
٥ - قصد السبيل ص : ١٤

ان المتأولين لو عرفوا مسالك التأويل وما نجم عنه من فساد وشر في الأمة الاسلامية ، ومن تمزيق الدين وتشتيته ، وظهور الزنادقة في الاسلام ، لأحبوا الممات بدلا من هذه الحياة .

كما يقول القنوجي : " ولو علم المتأولون كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالتأويلات التي لم يردها ، ولم يدل عليها كلامه اى باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة ، وأى بناء للاسلام هدموا بها ، وأى معاقل وحصون استباحوها ، كان أحدهم لأن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه أن يتعاطى شيئا من ذلك " ( ١ )

نظرا الى هذه المفاسد التي ذكرت في السطور الماضية ، نرى الأئمة من السلف يدعون الناس الى البعد عن التأويل ، وسلوك سبيل السلف من الصحابة والتابعين ،وهو امرار النصوص على ظواهرها ، لو كان التأويل من أمور الدين لكان اهتمام الصحابة به أكثر فأكثر منا ، كما يقول عن الجويني : " ذهب أئمة السلف الى الانكفاف عن التأويل ، واجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها الى الرب تعالى ( ٢ ) ، والذى نرتضيه رأيا وندين به اتباع سلف الأمة ، وقد درج صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ، ودرك ما فيها . . . . . . لو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محبوبا لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، واذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع " ( ٣ )

ويحكى عن سفيان الثورى ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك انهم قالوا : " أن تروى هذه الأشياء ويؤمن بها ، ولا يقال كيف ؟ ، وفي رواية : أمروها

---

١ - فتح البيان ٢ : ١١

٢ - ليس مذهب السلف هو تفويض المعاني ، بل هي مفهومة ، وانما التفويض للكيفية ، راجع قطف الثمر : ٩

٣ - فتح البيان ٢ : ١٠ ، الانتقاد ص : ٢٢ ، عون البارى ٦ : ٥٨٢ ، وانظر أعلام الموقعين ٤ : ٢٤٦

بلا كيف ، وروى عنهم أيضا : ان اجراء الصفات كما هى ليس بتشبيه ، وانما التشبيه أن يقال سمع كسمع وبصر كبصر " ( ١ )

وامام أهل السنة وقامع البدعة أحمد بن حنبل يطعن فيمن كان عقيدته مخالفة لما كان عليه سلف هذه الأمة ،

فمن عول على التأويل أو رد المحكم الى المتشابه فعاقبته وخيمة ، يقول القنوجى : " قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب نبينا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم الى يومنا هذا ، وأدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها ، فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق " ( ٢ )

والامام أبو حنيفة رحمه الله يكفر من أنكر علو الله تعالى كما يقول القنوجى عن مولانا الزائر ( ٣ ) : روى البيهقى عن الامام أبى حنيفة ان الله فى السماء ، وقال الامام نفسه فى الفقه الأكبر " من قال : لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض كفر ، لأن الله تعالى يقول : ( الرحمن على العرش استوى ) ( ٤ ) وعرشه فوق السموات ، ( ٥ )

وهذه العقيدة يدين بها أبو الحسن الأشعرى امام طائفة الأشعرية ، كما

---

١ - الانتقاد ص : ٧
٢ - الانتقاد : ١٦ ، انظر حادى الأرواح : ٣٦
٣ - هو محمد فاخر محمد يحيى زائر الاله آبادى ، من كبار علماء الهند ، وله عدة مؤلفات ، توفى فى سنة ١١٦٤ ، تراجم علماء هند ص : ٢٧٤
٤ - طه : ٥
٥ - قال القنوجى : ليست هذه الرواية المنسوبة الى الامام الأعظم فى بعض نسخ الفقه الأكبر ، وهى فى بعضها موجودة ، ويؤيد وجودها ايراد الحافظ ابن القيم اياها فى النونية منسوبة الى الفقه الأكبر ( انظر شرح القصيدة النونية ١ : ٤٤٧ ) ورواية البيهقى المتقدمة ، ونقل الثبت الثقة الزائر اياها ، ولعله أسقطها منه بعض من ليس من أهل هذه العقيدة ، الانتقاد : ١٣ ،

حققه الدهلوي (١) : " أقرأني أبو طاهر المدني (٢) بخط أبيه أن الشيخ أبا الحسن قال في كتابه (٣) : اني على مذهب أحمد في مسألة الصفات ، وأن الله فوق العرش ، (٤)

تعقيب :

نرى فيما تقدم أن القنوجي - رحمه الله - يوجب الأخذ بأسلوب الكتاب والسنة في تقرير العقائد ، كما يرى أن الاعتماد على المتكلمين وأسلوبهم سبب الحيرة والضلال ، وأن الخوض واقحام العقل فيما لا طاقة له به من أمور العقيدة من البدع التي حذر منها السلف ،

هذا وكما يرى تحكيم الكتاب والسنة الصحيحة في كل قضية من قضايا العقيدة ، وعدم رد شيء منها أو تأويله ، بل يشدد النكير على المؤولين ويهاجمهم ، ويقرر أن التأويل عمل شيطاني وهو سبب ظهور الزنادقة في الاسلام ،

هذا الموقف الذي سار عليه القنوجي هو تأييد لمذهب السلف من وجه ، ودفاع عنه من وجه آخر ،

فقد ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث الى تحريم علم الكلام ، (٥)

يقول الامام أحمد بن حنبل : " لا تجالسوا أهل الكلام وان ذبوا عن السنة " (٦)

والامام ابن قتيبة قد اغتر في أول أمره بالمتكلمين ، ثم شاهد جرأتهم على

---

١ـ هو الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم المحدث الدهلوي ، سلطان علماء الهند في عصره ، منحه الله حظا وافرا من العلوم النقلية والعقلية ، وكانت وفاته سنة ١١٧٦هـ ، أبجد العلوم ٣ : ٢٤١ ، تراجم علماء حديث هند ص: ٣٨

٢ـ هو أبو طاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدني ، كان مجتهدا في الطاعة ومشتغلا بالعلم والمذاكرة ، رقيق القلب كثير البكاء ، توفي في سنة ١١٤٥هـ ، ابجد العلوم ٣ : ١٦٨ ، سلك الدرر ٤ : ٢٧

٣ ـ الابانة ص : ٨

٤ ـ الانتقاد ص : ١٣

٥ ـ احياء علوم الدين ١ : ٩٥

٦ ـ مناقب الامام أحمد بن حنبل ص : ٢٠٥

الله تبارك وتعالى ، كما يقول : " فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتربهم ، طامع أن اصدر عنه بفائدة ، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدى لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تبارك وتعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس ، أو لئلا يقع انقطاع - ما أرجع معه خاسرا نادما " (١)

يقول ابن تيميه : " ان الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بنى آدم حشوا وقولا للباطل وتكذيبا للحق فى مسائلهم ودلائلهم ، لا يكاد - والله أعلم - تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك " (٢)

وقد تحدث الشاطبى رحمه الله عن بعض طرق الاستدلال عند المتكلمة فذكر منها : " ردهم للأحاديث التى جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم ، ويدعون أنها مخالفة للمعقول ، وغير جارية على مقتضى الدليل ، فيجب ردها ، كالمنكرين لعذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، ورؤية الله عز وجل فى الآخرة ...... - وذكر عدة أحاديث - ثم قال : وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول ،

ربما قدحوا فى الرواة من الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عنهم - وحاشاهم - وفيمن اتفق الأئمة من المحدثين على عدالتهم وامامتهم ، كل ذلك ليردوا به على من خالفهم فى المذهب " (٣)

ان التأويل الذى وقع فيه المتكلمون هو من أبشع الفتن فى تاريخ الأمة ، فقد رأى الامام ابن القيم رحمه الله أن جميع ما عرض فى هذه الشريعة من الفساد والخراب فهى من قبل التأويل ، وذكر الأمثلة على ذلك من واقع التاريخ ، ثم قال : " لو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين ، وما نال الأمم قديما وحديثا بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عدة أسفار " (٤)

---

١ - تأويل مختلف الحديث ص : ٦١
٢ - نقض المنطق ص : ٢٤
٣ - الاعتصام ١/ ٢٣١
٤ - أعلام الموقعين ٤/ ٢٥٤

وقال ابن الوزير : " فاعلم أن منشأ معظم البدع يرجع الى أمرين واضح بطلانهما ، فتأمل ذلك بانصاف وشد عليه يديك ، وهذان الأمران الباطلان هما : الزيادة في الدين باثبات ما لم يذكره الله تعالى ورسله عليهم السلام من مهمات الدين الواجبة ، والنقص منه بنفي بعض ما ذكره الله تعالى ورسله من ذلك بالتأويل الباطل " (١)

هذا وأن ما ذهب اليه القنوجي أن المؤولين ليسوا من الفرقة الناجية هو ما قد سبق اليه ابن رشد ـ كما مضى ـ واليه يميل ابن تيمية ، كما يقول : ان أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة : الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها ، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها ، تصديقا وعملا وحبا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها ، الذين يروون المقالات المجملة الى ما جاء به من الكتاب والحكمة ، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم ان لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول ، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه " (٢)

---

١ - ايثار الحق على الخلق ص : ٨٦
٢ - فتاوى ٣ : ٣٤٧

# الباب الثاني

## وجود الله وصفاته

الفصل الأول : أدلته على وجود الله

الفصل الثاني : الوحدانية وابطال الشرك والعبادات الوثنية

الفصل الثالث : صفات الله عزوجل

الفصل الرابع : القضاء والقدر

الفصل الخامس : الايمان

# الفصل الأول
========

## أدلته على اثبات وجود الله

تمهيد

المبحث الأول : الفطرة

المبحث الثاني : الاستدلال بالمخلوقات

المبحث الثالث : الاستدلال بالمعجزة

تمهيـــــد :

سبق أن ذكرنا أن القنوجي لا يعتمد على أساليب المتكلمين ولا الفلاسفة ، بل اعتماده على الكتاب والسنة المطهرة ، حيث فيهما هداية وشفاء ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما بعدى كتاب الله وسنة رسوله " ( ١ ) وقال أيضا : " تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك " ( ٢ )

كما أنه يرى أن الانسان في الاستدلال على وجود الله مع وجود الكتاب والسنة والفطرة لا يحتاج الى غيرهما من الأدلة الكلامية ، المبنية على آراء غريبة ، تنشأ بسببها شبه ربما يعجز وشكوك يذهب الايمان معها ،

ان الوصول الى وجود الله سبحانه لا يحتاج الى كل التعقيدات التى أتى بها المتكلمون والفلاسفة ، ومن نهج نهجهم ، وأفنوا حياتهم فى سبيل الوصول الى وجود الله تعالى عن طريقها ،

بل هو طريق سهل واضح ، والعقل البشرى يدرك هذه الحقيقة تمام الادراك بدون أن يشعر بحاجة الى ما رسمه المتكلمون من مناهج معقدة للتعرف على الخالق ، اذ الموجودات كلها - من نبتة صغيرة ملتصقة بالأرض الى نخلة باسقة ذاهبة فى السماء ، ومن نمل يدب على الأرض الى نسور محلقة فى الفضاء - تشير الى خالقها ، يشهد لذلك قول الأعرابى الذى عبر عنه ،

يقول القنوجي :

" سئل بعض الأعراب ما الدليل على وجود الصانع الواحد ؟ . قال : ان

---

١ - رواه مالك مرسلا ، الموطأ ٢ : ٨٩٩ ، والحاكم المستدرك ، وصححه الألبانى انظر تخريج المشكاة ١ : ٦٦ ، صحيح الجامع : ٢٩٣٤

٢ - رواه ابن ماجة ١ : ٤ ، وابن أبى عاصم ، السنة ١ : ٢٧ ، قال الألبانى فى تخريجه : حديث صحيح ،

البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوى بهذه اللطافة ومركز سفلى بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير " (١)

قبل أن أبدأ فى بيان المسالك التى سلكها القنوجى استعرض بايجاز مسلك المتكلمين والفلاسفة فى هذه المسألة ، حتى يظهر أمام القارئ الكريم اتجاه القنوجى الذى رضى به ،

المتكلمون :

سلك المتكلمون فى الاستدلال على وجود الله مسلكين ، كما يقول الشهرستانى موضحا منهجهم : " وقد سلك المتكلمون طريقين فى اثبات الصانع تعالى ، وهو الاستدلال بالحدوث على محدث صانع "...... (٢)

فهم يرون أن العالم حادث وانه لابد له من محدث ، يخرجه من حيز العدم الى حيز الوجود ،

الفلاسفة :

ان الفلاسفة أثبتوا وجود الله عن طريق الواجب والامكان ، كما صرح بذلك صاحب المواقف : " المسلك الثانى للحكماء : وهو أن - فى الواقع - موجودا ،

---

١ - الدين الخالص ١ : ٢١ ، ليس هذا من كلام الأعراب، بل قول الأعرابي هى : " البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج أفلا تدل على الصانع الخبير " البيان والتبيين ١ : ١٦٣.

٢ - نهاية الاقدام : ١٢٤

فان كان واجبا فذاك ، وان كان ممكنا احتاج الى مؤثر ، ولا بد من الانتهاء الى الواجب ، والا لزم الدور أو التسلسل " (١)

ان المتتبع لما ذكره القنوجى من أدلة على وجود الله ، يتبين له أنه يركز على الأدلة الشرعية ، فالطرق التى سلكها القنوجى لاثبات وجود الله تعالى يمكن تلخيصها فى ثلاثة :

١ - الفطرة ، ٢- الاستدلال بالمخلوقات ٣- الاستدلال بالمعجزة

أولا : الفطـــــرة :

معنى الفطرة :

الفطرة : هى الخلقة ، وقد فطره يفطره فطرا أى خلقه ، (٢)

قال الفيروزآبادى : هى الخلقة التى خلق عليها المولود فى رحم أمه والدين " (٣)

والمراد بها "الاسلام" يقول ابن تيمية : " فالصواب أنها فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهى فطرة الاسلام ، وهى الفطرة التى فطرهم عليها يوم قال : (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) وهى السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة ، فان حقيقة الاسلام أن يستسلم لله لا لغيره وهو معنى لا اله الا الله" (٤)

يقول القنوجى فى معرض تفسيره قوله تعالى : "فطرة الله التى فطر الناس عليها (٥)"

" الفطرة فى الأصل الخلقة ، والمراد بها هنا الملة ، وهى الاسلام والتوحيد ، هذا قول المفسرين فى الفطرة ، وهو مذهب جمهور السلف "(٦)

فعلم أن وجود الله تعالى هو أمر بديهى ، ولا ينبغى الخوض فيه ، بل هو من القضايا المسلمة التى لا توضع موضع النقاش والبحث ، ولذلك نرى أن

---

١ - انظر الاشارات ٣ : ٨٥
٢ - لسان العرب ، الصحاح ( فطر )
٣ - القاموس المحيط ( فطر )
٤ - انظر الفتاوى ٤ : ٢٤٥
٥ - الروم : ٣٠
٦ - فتح البيان ٧ : ٢٥٢

القنوجي يذهب مذهب السلف ممن يقول : ان طريق معرفة وجود الله فطرى ، يقول : " وبالجملة فالحق الحقيق بالقبول ، الذى أنزل الله تعالى لأجله كتبه ، ودعا اليه كل رسول ، هو التوحيد الخالص من شوب الأكدار ، المصفى من قذرات الأفكار ، وهو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان بوجود الصانع لهذا العالم بالفطرة التى فطر الله الخلق عليها من غير استدلال بأدلة نظرية مبنية على شفا جرف هار " (١)

والأولى حمل " الناس " فى الآية ( فطر الناس عليها ) على العموم ، من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك ،لولا عوارض تعرض لهم ، فتطمس فطرتهم فيكونون كفارا ، ويعضد هذا المعنى بعدة أحاديث : (٢)

فقد جاء فى الحديث الثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود الا يولد على الفطرة ، وفى رواية : على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا ان شئتم ( فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ) وفى رواية : حتى تكونوا أنتم تجدعونها " (٣)

روى عن أسود بن سريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية الى خيبر فقاتلوا المشركين ، فانتهى القتل الى الذريه ، فلما جاءوا قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما حملكم على قتل الذرية ؟ ، قالوا يا رسول الله انما كانوا أولاد المشركين ، قال : وهل خياركم الا أولاد المشركين ، والذى

---

١ - الدين ١ : ١٥١
٢ - انظر فتح البيان ٧ : ٢٥٣
٣ - البخارى ١١ : ٤٩٣ ، مسلم ٤ : ٢٠٤٧

نفسي بيده ما من نسمة تولد الا على الفطرة ، حتى يعرب عنها لسانها "(١)

واخرج الامام أحمد (٢) من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يعبر عنه لسانه ، فاذا عبر عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا "

وروى أيضا عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوما فقال في خطبته حاكيا عن الله سبحانه ، واني خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم (٣)

والقرآن الكريم يتحدث عن بداهة وجود الله تعالى حتى عند ذوى العقائد المنحرفة في آيات كثيرة ، وينبههم على جهلهم وفرط غباوتهم " يقول سبحانه تعالى :

" أفي الله شك فاطر السموات والأرض " (٤) يقول القنوجي : " الاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار ، أى أفي وحدانيته سبحانه شك ؟ ، وهي في غاية الوضوح والجلاء ، ثم أن الرسل ذكروا بعد انكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الانكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته ، فقالوا ( فاطر السموات والأرض ) أى خالقهما ومبدعهما وموجدهما وما فيهما بعد العدم " (٥)

قال تعالى :

( قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ) (٦)

---

١ - أخرجه أحمد ، ٣ : ٤٣٥ ، والحاكم ، ٢ : ١٢٣ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ١ : ١٤٤ ، وصحيح الجامع ، رقم : ٤٤٣٥ ،

٢ - في المسند ، ٣ : ٣٥٣ ، وفيه " يعرب عنه لسانه ، فاذا أعرب "

٣ - رواه مسلم ٤ : ٢١٩٧

٤ - ابراهيم : ١٠

٥ - فتح البيان ٥ : ١٢٦

٦ - المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥

" أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل أهل مكة عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف بها ، فقال : ( قل لمن الأرض ومن فيها ) المراد "بمن" الخلق جميعا ....... ( ان كنتم تعلمون ) شيئا من العلم ، وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم ( سيقولون لله ) أى لا بد أن يقولوا ذلك ، لأنه معلوم ببداهة العقل ، وهذا اخبار من الله بما يقع منهم فى الجواب قبل وقوعه " (١)

وقال تعالى :

( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ) (٢) " أى قد كفروا بها ولم يقروا حال كون أنفسهم مستيقنة لها أنها من عند الله ، والاستيقان أبلغ من الايقان " (٣)

والغزالى (٤) أيضا - كما يقول القنوجي - يؤيد من قال ان اثبات وجود الله تعالى فطرى ، يقول : " فى فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغنى عن اقامة برهان " (٥)

---

١ - فتح البيان ٦ : ٣٠٣
٢ - النمل : ١٤
٣ - فتح البيان ٧ : ٧١
٤ - الاحياء ١ : ٢٦٢
٥ - الدين الخالص ١ : ١٥٠ ، الانتقاد الرجيح ص : ٤

ثانيا : الاستدلال بالمخلوقات :

تقدم لنا أن الايمان بوجود الله سبحانه فطرة فطر الله النفوس عليها ، ولكن الواقع أثبت أن هذه الفطرة كثيرا ما تفسد ، فنرى من ينكر وجود الله سبحانه ، وهنا لا بد من التدخل لاصلاح هذه الفطرة ، ويكون ذلك بنصب الأدلة على وجود الله تعالى (١) ،

والقنوجي لم يذهب الى المتكلمين ليأخذ منهم استدلالهم على وجود الله ، بل نراه هنا يتبع المنهج الشرعي في الاستدلال على وجود الله سبحانه ، فالله سبحانه هو الأعلم بالنفوس وما يصلح لها ، ومن هنا كان المنهج الشرعي هو أصلح طريق لمعرفة الحق ، حيث أرشد الأمة اليه من الاعتبار بخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وما بينهما ،

قال تعالى :

( ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ) (٢) يقول القنوجي : " هذه الأمور الثمانية التي هن من أعظم صنعة الصانع الحكيم ، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها ، أو يقتدر عليه أو على بعضه ، وهي خلق السموات ، وتعاقب الليل والنهار ، وجرى الفلك في البحر ، وانزال المطر من السماء ، واحياء الأرض به ، وبث الدواب فيها بسببه ، وتصريف الرياح ، وتسخير السحاب ، فان من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها ،

---

١ - عون الباري ٦ : ٥٦٥ ، الفتاوى ٤ : ٢٤٧
٢ - البقرة : ١٦٤

انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته ، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه " ( ١ )

قال تعالى :

( أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ) ( ٢ )

يقول في تفسيره : " القصد التعجب من اعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية ، والمعنى أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان به ، بل هم متبادرون في ضلالتهم ، خائضون في غوايتهم ، لا يعملون فكرا ، ولا يمعنون نظرا " ( ٣ )

قال تعالى :

( قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ) ( ٤ ) فبعد ما أمر الله تعالى بالسفر معتبرين ومتفكرين ليعلموا ما حل بهم من العذاب ، قال : لمن ما في السموات والأرض ، يقول القنوجي : " هذا احتجاج عليهم قاطع وتبكيت لهم ساطع ، لا يقدرون على التخلص منه أصلا ، قل لله ، تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق ، بحيث لا يتأتى لأحد أن يجيب بغيره " ( ٥ )

وقال تعالى ضمن حوار موسى مع فرعون لما سأله عن الرب ، ( قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ) ( ٦ ) يقول : " اراد بالمشرق طلوع الشمس وطلوع

---

١ - فتح البيان ١ : ٢٦٢
٢ - الأعراف : ١٨٥
٣ - فتح البيان ٣ : ٤٦٩
٤ - الانعام : ١١ ، ١٢
٥ - فتح البيان ٣ : ١٣٦
٦ - الشعراء : ٢٤ ، ٢٨

النهار ، واراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ، ومعلوم أن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم لا يكون الا بتقدير قادر حكيم " ( ١ )

يقول سبحانه ايضا :

( وفى أنفسكم أفلا تبصرون ) ( ٢ )

يقول مفسرا هذه الآية : " فى حال ابتدائها وتنقلها من حال الى حال ....... فانه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما الى أن تنفخ فيهم الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطرة ، وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها ......

( أفلا تبصرون )

اى تنظرون بعين البصيرة والعبرة الأرض وما فيها والأنفس وما فيها ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المنفرد بالألوهية " ( ٣ )

يقول سبحانه :

( فلينظر الانسان مم خلق ) ( ٤ )

" اى فلينظر نظر التفكر والاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نطفة قادر على اعادته " ( ٥ )

---

١ - فتح البيان ٧ : ١٢
٢ - الذاريات : ٢١
٣ - فتح البيان ٩ : ١٢٢
٤ - الطارق : ٥
٥ - المذكور ١٠ : ٣٠٥

ثالثا : الاستدلال بالمعجزة :

ينطلق هذا الدليل من أن الظواهر الخارقة التي تظهر على يد الأنبياء كمعجزة ، أو على يد الأولياء ، ككرامة للولي ومعجزة للنبي الذي يتبعه الولي .

هذه الظواهر التي لا يمكن أن تكون من ذاتها بدون الفاعل المختار ، فاذا كانت النار تحرق كل ما هو قابل للاحتراق ، ثم نار ابراهيم عليه السلام الذي رمى به ولم تحرقه ، هنا يكون الاستدلال بأنه لو كان الكون من فعل الطبيعة لكان من المحتم أن يحترق ابراهيم ، فعدم احتراقه دليل على قوة عليا عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله : ( قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ) (١) وكذلك عصا موسى ، واحياء الميت على يد عيسى ، ورد عين قتادة على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، (٢) كل هذا يدل على أنه من فاعل مختار ، بيده كل التأثير في الكون وهو الله سبحانه .

والقنوجي يأخذ بهذا المنهج وهو الاستدلال بمعجزات الأنبياء على وجود الله سبحانه كما يستشهد بالبيهقي (٣) قائلا : " سلك بعض أئمتنا الى اثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمعجزات الرسالة ، فانها أصل في وجوب قبول ما دعا اليه النبي صلى الله وآله وسلم ، وعلى هذا وقع ايمان الذين استجابوا للرسل "

---

١ - الأنبياء : ٦٩

٢ - روى عن قتادة أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها فقالوا لا حتى نستأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمروه فقال : لا ثم دعا به فوضع راحته على حدقته ثم غمزها فكان لا يدري أي عينيه ذهب ، رواه البغوي وابو يعلي والبيهقي في الدلائل كما ذكره ابن حجر في الاصابة ٣ : ٢٢٥

٣ - الاعتقاد : ٤٥

ثم ذكر - البيهقي - قصة النجاشي وقول جعفر بن أبي طالب ليستدل بها على صحة هذا الطريق ، ثم ساقها بسنده عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لما فتن أصحابه بمكة ، أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة ، فذكر الحديث بطوله الى أن قال : فكلمه جعفر رضي الله عنه - أي النجاشي - فقال : كنا على دينهم - يعني على دين أهل مكة - حتى بعث الله عز وجل فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وعفافه ، فدعا الى أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما يعبد قومنا وغيرهم من دونه ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، وأمرنا بالصلاة والصيام والصدقة وصلة الرحم ، وكل ما يعرف من الأخلاق الحسنة ، فتلا علينا تنزيلا جاءه من الله عز وجل ، ففارقنا عند ذلك قومنا وآذونا ،

فقال النجاشي : هل معكم مما نزل عليه شئ تقرؤنه علي ؟ قال جعفر : نعم فقرأ ( كهيعص ) فلما قرأها بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلت مصاحفهم ، وقال النجاشي : ان هذا الكلام ، والكلام الذى جاء به عيسى عليه السلام ، ليخرجان من مشكاة واحدة " ( ١ )

ثم ذكر القنوجي وجه الاستدلال بهذا الحديث قائلا عن البيهقي : " فاستدلوا - أي النجاشي وأصحابه - باعجاز القرآن على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، فآمنوا بما جاء به من اثبات الصانع ووحدانيته وحدوث العالم وغير ذلك مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن وغيره " ( ٢ )

---

١ - اخرجه البيهقي في الاعتقاد ص : ٤٦ ، وابن اسحق ، سيرة ابن هشام ١ : ٣٤٦ وقال الألباني في تعليقه على " فقه السيرة" للغزالي أنه صحيح ص : ١٢٦

٢ - عون الباري ٦ : ٥٧٢ ، الدين الخالص ١ : ١٤٥

تعقيب :

من خلال ما ذكرنا من موقف القنوجي في قضية وجود الله تعالى ، يتبين لنا أنه يرى أن معرفة وجوده فطرية ، وأنه لا يحتاج الى التعقيدات التي أتى بها المتكلمون والفلاسفة ، نعم قد يقع الفساد في فطرة الانسان ، فحينئذ يحتاج الى احيائها وذلك عن طريق النظر والاستدلال .

والقنوجي يركز ههنا على الأدلة الشرعية في هذا الموضوع ، ويرى أن النظر في الكون والانسان عامل من عوامل تجلية الفطرة ، إذ النظر فيهما يؤدي قطعا على ما تنطق به الفطرة من معرفة الله عز وجل .

هذا ويرى ايضا أن المعجزة هي الأخرى من الطرق الشرعية التي يمكن الاستدلال بها .

ولا يخفى على من له أدنى المام بمذهب السلف مدى موافقة القنوجي لهذا المنهج .

يقول ابن تيميه - رحمه الله - : " أول ما أنزل قوله ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ) وقوله : ( اقرأ وربك الأكرم )

ذكر في الموضعين بالاضافة التي توجب التعريف ، وأنه معروف عند المخاطبين ، اذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق ، وان المخلوق مع أنه دليل يدل على الخالق ، لكنه سبحانه معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ، ومعرفته فطرية ، مغروزة في الفطرة ، ضرورية بديهية ، أولية . . . . . .

وهذه الآية ايضا تدل على أنه ليس النظر أول واجب ، بل أول ما أوجب الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ( اقرأ باسم ربك ) لم يقل " انظر واستدل حتى تعرف الخالق .

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة ، فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ، ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال ...... والذين قالوا : معرفته لا تحصل الا بالنظر ، فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته " (١)

وأراد بالفطرة الاسلام كما قال : " أما قوله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الاسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال : ( الست بربكم ؟ قالوا بلى ) ، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة ، والقبول للعقائد الصحيحة ، (٢)

فابن تيميه رحمه الله يقرر ههنا أن وجود الله تعالى أمر فطري لا يحتاج الى دليل ، واحتياجه انما يكون عند تغير الفطرة ، كما يقول : " ان الاقرار بالخالق وكماله يكون فطريا ضروريا في حق من سلمت فطرته ، وان كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة ، وقد يحتاج الى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها " (٣) وبه يقرر تلميذه الامام ابن القيم رحمه الله قائلا : " فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه ، فصرف ذلك التأله والمحبة الى غيره تغيير للفطرة ، ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها الى حالتها التي خلقت عليها ، فمن استجاب لهم رجع الى أصل الفطرة ، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها " (٤)

---

١ - الفتاوى ١٦ : ٣٢٤ ،

٢ - مجموع الفتاوى ٤ / ٢٤٥ ، وانظر رسالة في السماع والرقص ، ص ١٦٦ ضمن الرسائل المنيرية .

٣ - مجموع الفتاوى ٦ / ٧٣ ، رسالة في الكلام على الفطرة ص ٣٤٥ ضمن الرسائل الكبرى .

٤ - اغاثة اللهفان ٢ / ١٥٣ ، وانظر شفاء العليل ص ٥٩٤

فالاعتبار والتأمل فى الكون يهدى الناس الى وجود خالق حقيقى ، حتى أعداء الدين ومعارضيه يعترفون بأن هذا الانسجام والتناسق لم يحصل صدفة ، بل وراءه المدبر الذى يدير هذا النظام الضخم كما يستشهد بذلك جون وليم كلونس ، " ان هذا العالم الذى نعيش فيه ، قد بلغ من الاتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة ، أنه ملئ بالروائع والأمور المعقدة التى تحتاج الى مدبر ، والتى لا يمكن نسبتها الى قدر أعمى ، ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة ، وهى بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن ايماننا بوجوده " ( ١ )

ان الانسان وصل الى القمر واتسعت اكتشافاته وزادت امكاناته ،ولكنه مع هذه الامكانات المذهلة لا زال يقف عاجزا ويعترف بعجزه كلما ظن أنه تقدم فى العلم ، فبرغم ما عنده من وسائل لا زلنا نرى عجزه أمام الجفاف الذى يصيب كثيرا من نواحى الأرض ،

" والسحاب ارادة الله هى التى تكونه ، يمر السحاب فوق مناطق جدباء محتاجة الى قطرة ماء فلا تمطر ، ويمر نفس السحاب فوق مناطق مليئة بالحياة فتمطر ، لماذا لا تجعلوها تمطر هنا ولا تمطر هناك ، لماذا لا تجعلوها تمر فوق هذه الأرض وتترك تلك ،

العلم يقول اننا لا نزال فى ضوء التجارب ولكن استمرار الحياة وعناصر استمرار الحياة من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده ، فهو الذى خلق وهو الذى يعطى الحياة استمرارها الى أجل مسمى " ( ٢ )

وأما المعجزة التى اعتبرها القنوجى طريقة شرعية سليمة ، فقد ذهب ابن تيميه الى هذا الطريق مستدلا بما جاء فى القرآن من قصة فرعون الذى كان

---

١ - الله يتجلى فى عصر العلم ص : ٤٨ ، انظر الاسلام يتحدى ، ص : ٦٢
٢ - أين الله ؟ ص : ٤٢

منكرا للرب سبحانه وتعالى ،

قال تعالى :

( فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني اسرائيل ، قال : الم نربك فينا وليدا - الى قوله - قال فرعون وما رب العالمين ؟! ،قال : رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟! قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ، قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين ، قال : أو لو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين " (١)

يقول شيخ الاسلام بعد سوقه للآيات المذكورة : " فههنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التى جعلها دليلا على صدقه فى كونه رسول رب العالمين ، وفى أن له الها غير فرعون يتخذه ، وكذلك قال تعالى : ( فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو ) (٢) فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ،وذلك لأن المعجزة - التى هى فعل خارق للعادة - تدل بنفسها على ثبوت الصانع ، كسائر الحوادث ، بل هى أخص من ذلك ، لأن الحوادث المعتادة ليست فى الدلالة كالحوادث الغريبة ، ولهذا يسبح الرب عندها ، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد ،ويحصل فى النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد ، اذ هى آيات جديدة فتعطى حقها ، وتدل بظهورها على الرسول ، واذا تبين أنها تدعوا الى الاقرار بأنه رسول الله ، فتقرر بها الربوبية والرسالة ،لا سيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية " (٣)

---

١ - الشعراء : ١٥ - ٣٣

٢ - هود : ١٤.

٣ - مجموع الفتاوى ١١ / ٣٧٨ ، انظر مختصر الصواعق المرسلة ١ : ١٦٨

# الفصـــل الثـــــــاني

## الوحدانية وابطال الشرك والعبادات الوثنية

تمهيـــــد

المبحث الأول : معنى التوحيد

المبحث الثانى : أنواع التوحيد

المبحث الثالث : اثبات التوحيد

المبحث الرابع : ابطال الشرك والعبادات الوثنية

تمهيـــــــــد :

ان توحيد الله تبارك وتعالى هو أصل الأصول فى الدين ، واهتم به الاسلام اهتماما بالغا ، حيث أنه أول دعوة الرسل جميعا ، فما من نبى أو رســول الا وكانت كلمته الأولى لقومه : ( يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره (١) )

وقال تعالى :

( ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) (٢)

ولا شك أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا اله الا الله ، وافراده بالعبادة ، ونفى الشريك عنها ،

فالتوحيد هو الأساس ، والشرك شئ طارئ على البشرية ، ولذلك أرســل الله الرسل لإزالة هذا الطارئ الذى أفسد على الناس صفاء العقيدة ، ونــرى أن القرآن الكريم قد هاجم الشرك مهاجمة شديدة ، وحاربه من كل زاوية بجميع أشكاله ،

وقد ركز القرآن الكريم غاية التركيز على قضية التوحيد ، وبين أنه الفطـــرة ، وفى تقرير التوحيد وابطال الشرك يبدأ بالمسلمات عند الخصم ، فالمشـــرك يعترف بأن الله وحده هو الخالق ،

قال الله تعالى :

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن اللـــه فأنى يؤفكون (٣)

---

١ ـ هود : ٥٠

٢ ـ النحل : ٣٦

٣ ـ العنكبوت : ٦١

يقول القنوجي : " أتى بشيئين أحدهما يتعلق بالذوات وهو ( خلق السموات والأرض ) والثاني يتعلق بالصفات وهو قوله ( وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ) خلقها ،لا يقدرون على انكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده ، ( فأنى يؤفكون ) أي فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده بالألهية ؟ ، وأنه وحده لا شريك له (١)"

ويقول سبحانه :

" ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٢)"

" أي أقروا وأعترفوا بأن خالقهم الله ، ولا يقدرون على الانكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه ، فكيف ينقلبون عن عبادة الله الى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فان المعترف بأن الله خالق ، اذا عمد الى صنم أو حيوان ، وعبده مع الله ، أو عبده وحده ، فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفي هذا من الجهل ما لا يقدر قدره (٣)"

وكذلك قوله تعالى :

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٤)"

وقوله تعالى :

"ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله (٥)"

ففي هذه الآيات نرى اعترافهم واقرارهم على أن الله سبحانه هو وحده الخالق لوضوح البرهان عليه ، ولا يوجد هناك نزاع في قضية الخلق ،وأن ليس لله شريك فيه ،

---

١ - فتح البيان ٧/٢٢٧
٢ - الزخرف : ٨٧
٣ - فتح البيان ٨/٤٣٨
٤ - الزخرف : ٩
٥ - لقمان : ٢٥

ماداموا هم معترفين فى قضية الخلق ، وهذا نوع من أنواع التوحيد ، وهو توحيد الربوبية ، الذى لا يكفى بمجرده ، فلابد من الانتقال الى القضية الأخرى وهى عبادة الله ، وهى توحيد الألوهية .

فانه اذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده ، لا شريك له فى ربوبيته ، كانت العبادة حقه الذى لا ينبغى إلا له ، فانه لا يصلح أن يعبد الا من كان ربا خالقا ، مالكا مدبرا ، وما دام ذلك لله وحده فيجب أن يكون هو المعبود وحده الذى لا يجوز أن يكون معه لأحد شركة فى شئ من صور العبادة "( ١ )

وقد سلك القنوجى رحمه الله هذا المنهج مستدلا بالآيات القرآنية التى تدل على توحيد الربوبية ، فينتقل منها الى دعوة توحيد الالهية ، حيث يجعل التوحيد الأول دليلا وبرهانا على التوحيد الثانى كما هو منهج السلف .

قال تعالى :

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ( ٢ )"

" ذكر الله سبحانه اعترافهم اذا سئلوا عن الخالق بأنه الله سبحانه لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية ، مع عبادتهم للأصنام والأوثان ، واتخاذهم الألهة من دون الله ، وفى هذا أعظم دليل على أنهم كانوا فى غفلة شديدة ، وجهالة عظيمة لأنهم اذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ، وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الادراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل ( ٣ )"

---

١ - انظر دعوة التوحيد ص : ٨٣
٢ - الزمر : ٣٨
٣ - فتح البيان ٨/٣٩٧

المبحـــث الأول :

معنـــى التوحيـد :

يقول القنوجي مبينا معنى التوحيد عـــن السفاريني :×

«التوحيد تفعيل للنسبة ، كالتصديق والتكذيب ، لا للجعل فمعنى وحدت الله نسبت الوحدانية اليه ، لا جعلته واحدا ، فان وحدانيته تعالى ذاتيـــة له ، ليست بجعل جاعل »

والتوحيد كما جاء به الشرع :

« هو افراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ، ذاتا وصفاتا وأفعـالا ، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ، ولا تشبه صفاته الصفات ، ولا تنفك عن الذات ، ولا يدخل أفعاله الاشتراك فهو الخالق دون من سواه (١)»

وكلمة التوحيد تشتمل على نفي واثبات ، أى نفي الألوهية لغير اللـــه تعالى، ولا يستحق اثباتها الا لله فقط ، كما يقول القنوجي : " نفي اعتقـاد الألوهية عما سوى الله تعالى ، واعتقاد اثباتها لله وحده لا شريك له ، ليس في ذلك حق لملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فكيف بمن عداهما من صالحى عباد الله تعالى وأعدائه !

قال تعالى :

"إن كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا (٢)"

هذا يدل على أن كل ملك ، ورسول ، وولي ، وصالح - وان بلـــغ في علو الرتبة وسمو المكانة - عبد لله وحده ، ليس له شرف الا عبودية المعبـــود المطلق الفرد الأحد (٣)"

---

× - لوامع الانوار البهية ١ : ٥٦

١ - الدين ١/ ٢٠٣ ، عون البارى ٦/ ٥٥٦

٢ - مريم : ٩٣

٣ - الدين ١/ ١٨٩

المبحث الثاني :

أنواع التوحيد :

ان التوحيد عنده نوعان :

الأول : "توحيد في المعرفة والاثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ،

الثاني : توحيد في الطلب والقصد ، وهو توحيد الالهية والعبادة ، وسمي دين الاسلام توحيدا لان مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لاشريك له وواحد في ذاته لاندله ، وواحد في ألوهيته وعبادته"

ثم ينقل كلام ابن القيم : * " الاول : يعني توحيد المعرفة هو اثبات حقيقة الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ، واثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ،

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الافصاح كما في أول "الحديد" (١) و "طه" (٢) وآخر "الحشر" (٣) وأول "الم تنزيل" السجدة" (٤) وأول "آل عمران" (٥) وسورة "الاخلاص" وغير ذلك ،

---

* - مدارج السالكين ٣ : ٤٤٩

١ - " سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم ، هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش" ،

٢ - " تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى " ،

٣ - " هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم " ،

٤ - " الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون " ،

٥ - " الله لا اله الا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراه والانجيل " ،

والثانى : يعنى توحيد الطلب والقصد - :

هو ما تضمنته سورة " قل يا أيها الكافرون " وقوله " قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا (١)" وأول (٢) سورة " تنزيل الكتاب ، وآخرها (٣) ، وأول (٤) سورة " المؤمن" ووسطها (٥) وآخرها (٦) ، وأول (٧) سورة " الأعراف " وآخرها (٨) ، وجملة سورة " الأنعام " وغالب سور القرآن ،

---

١ - ال عمران : ٦٤

٢ - " تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين " ، وما بعدها ،

٣ - " وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين" ،

٤ - " تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير " ،

٥ - " ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو فأنى تؤفكون " ، ٦٢

٦ - " فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين " ،

٧ - " اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون " ،

٨ - " واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون " ،

بل كل سورة فيه هى متضمنة لنوعى التوحيد ، شاهدة به ، داعية اليه ،
فان القرآن اما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى ،

واما دعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادى الطلبى ،

واما أمر ونهى والزام بطاعته فى كل ما يؤتى به ويذر ، فهو من حقوق التوحيد ومكملاته ،

واما خبر عن اكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا ويكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده ،

واما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما يحل بهم فى العقبى من العذاب والوبال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ،

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم (١) ،

نلاحظ ههنا أن القنوجى ذكر نوعين من التوحيد ، ولم يذكر توحيد الأسماء والصفات على حدة ، بل أتى به فى ضمن توحيد المعرفة والاثبات ، كما يظهر من قوله عن ابن تيمية

" التوحيد الذى جاءت به الرسل انما جاء يتضمن اثبات الألهية لله وحده ، بأن يشهد أن لا اله الا هو ، ولا يعبد الا اياه ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يوالى الا له ، ولا يعادى الا فيه ، ولا يعمل الا لأجله ، وذلك يتضمن اثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات " (٢)

---

١ - الدين ١ : ٥٦

٢ - " ١ : ٥٦

واذا ثبت أن التوحيد يشتمل على ثلاثة انواع ، كما ذكرها بعض السلف (١) ، فانى أرى من تمام الفائدة أن أبين مفهوم الأنواع الثلاثة ، ثم العلاقة بينها ،

١ - توحيد الربوبية :

ومعناه : ان الله وحده هو الخالق للعالم ، هو الرب لهم ، والرازق لهم ، يقول مبينا معنى الرب عن المقريزى :

" فالرب مصدر رب يرب فهو راب ،

فمعنى قوله ( رب العالمين ) أى رابهم ، وهو الرب الخالق الموجد لعباده ، القائم بتربيتهم واصلاحهم ، المتكفل لهم بكل شئ من خلق ورزق وعافية واصلاح دين ودنيا " (٢)

بناء على هذا التوحيد يكون الخلق والرزق والتدبير والتصريف خاص بالله تعالى ، لا يشاركه أحد فى هذه الأمور من مخلوقاته ، وهذا مركوز فى الفطرة الانسانية ، لم يذهب الى نقيضه أمة من الأمم ، حتى ان المشركين الذين بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم كانوا يقرون به ولا يشركون فيه أحدا ، يقول : " وهذا لا ينكره المشركون ، ولا يجعلون لله فيه شريكا ، بل هم مقرون به ،

قال تعالى :

" ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله (٣) "

وقال تعالى :

" ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٤) "

---

١ - انظر "رسالة عبد الرحمن بن حسن " ضمن العقد الفريد ص : ٣٤٦ الأسئلة والأجوبة الأصولية ص : ٢٧ ، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص : ٣ ،
٢ - الدين ١ : ٦٤
٣ - الزخرف : ٨٧
٤ - الزخرف : ٩

وقال تعالى :

" قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ؟ - الى أن قال - فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون (١)"

وقال تعالى :

" قل : لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون (٢)"

وقال تعالى :

" قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل : أفلا تتقون (٣)"

وقال تعالى :

" قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل : فأنى تسحرون (٤)"

هذا فرعون قد عرف مع شدة انكاره وجحوده الصانع ، قد كان مستيقنا به في الباطن ، يقول القنوجي : " وهذا فرعون - مع غلوه في كفره ودعواه أقبح دعوى ، ونطقه بالكلمة الشنعاء - حكى الله سبحانه فيه على لسان موسى عليه السلام : " لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر (٥)"

وقال ابليس اللعين : " اني أخاف الله رب العالمين (٦)"

وكل مشرك مقر بأن الله خالقه ، وخالق السموات والأرض ، ورب ما فيهما ورازقهم (٧)"

---

١ - يونس : ٣١
٢ - المؤمنون : ٨٤ - ٨٥
٣ - " : ٨٦ - ٨٧
٤ - " : ٨٨ - ٨٩
٥ - الاسراء : ١٠٢
٦ - المائدة : ٢٨
٧ - الدين ١/ ٦١ - ٦٢

غير أن هذا التوحيد لا يكفى للانسان ، بل لا بد معه أن يقر بتوحيد الألوهية ، ويعتقد أنه لا يستحق العبادة غير الله سبحانه وتعالى يقول عن ابن تيمية :

" وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ـ وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ـ كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف ،

ويظن هؤلاء أنهم اذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد ، وأنهم اذا شهدوا بهذا وفنوا فيه فقد فنوا فى غاية التوحيد ،

فان الرجل لو أقر بما يستحقه الرب من الصفات ، ونزهه عن كل ما تنزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شئ ، لم يكن موحدا حتى يشهد أن لا اله الا الله ،

فيقر بأن الله ـ وحده ـ هو الاله المستحق للعبادة ولا يستحقها غيره ، ويلتزم بعبادته تعالى وحده لا شريك له (١)"

(٢) توحيد الالهية :

" ومعناه افراد الله وحده بجميع أنواع العبادات (٢)"

والاله من أله يأله الهة ، وألوهة ، وألوهية ، بمعنى عبد عبادة ، وليس معناه القادر على الاختراع ، كما يقول فى معرض رده على المتكلمين عن ابن تيمية :

" والاله هو المألوه المعبود الذى يستحق العبادة ، وليس هو الاله بمعنى القادر على الخلق ،

فاذا فسر المفسر " الاله " بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الاله ، وجعل اثبات هذا هو الغاية فى التوحيد ، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمى الصفاتيه ، وهم الذين يقولون عن أبى الحسن وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسوله ،

---

١ ـ الدين ١/٥٨

٢ ـ الدين ١/٦٢

فان مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شئ ، وكانوا - مع هذا - مشركين (١)".

فالحاصل ان توحيد الألهية هو المقصد الأعظم ، لأن الله عز وجل لم يبعث نبيا قط ، يدعو الى اثبات الخالق والاقرار بوجوده ، بل كلهم بعثوا ليدعوا الى عبادة الله وحده ،

قال تعالى :

" وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء (٢)".

هذا هو الذى وقع فيه النزاع بين الرسل وبين أممهم ، كما حكى ذلك فى القرآن الكريم ، فالمشركون من كل أمة أتخذوا أندادا ظنا منهم أنهم وسائط لقضاء حاجاتهم ،

" ان المشركين لم يتخذوا ما اتخذوا معبودا لهم كالأوثان والأصنام والمسيح وأمه عليهما السلام ، والجن والشياطين لأجل أنهم أشركوهم فى خلق شئ من الأشياء وفى خلق أنفسهم ،

بل اتخذوهم الهة وعبدوهم ، بناء على أنهم يقربونهم الى الله تعالى زلفى كما أفصحوا بذلك " (٣)

هذا التوحيد أعظم أنواع التوحيد ، والانسان لا يصير موحدا حتى يقر بتوحيد الألوهية كما يقر بتوحيد الربوبية ، وكثير من الناس لا يهتدون الى ذلك ، فيقرون بالنوع الثانى ، ولا يخلصون فى النوع الأول ،

(٣) توحيد الأسماء والصفات :

ومعناه : أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم بدون تحريف أو تعطيل ، وبدون تكييف وتمثيل ،

---

١ - الدين ١/٥٩
٢ - البينه : ٥
٣ - الدين ١/٦٣

العلاقة بين أنواع التوحيد :

هذه الأنواع الثلاثة من التوحيد متكافلة ومتلازمة ، ولا ينفع أحدها دون الآخر ، فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الالهية ، فكذلك لا ينفع توحيد الالهية بدون توحيد الربوبية ، بل في الواقع " هي متلازمة ، فكل نوع منها لا ينفك عن الآخر ، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر ، فما ذلك الا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب " (١)

وبالجملة فالانسان لا يفوز ولا ينجو الا بعد أن يأتي بالتوحيدين ، اللذين بعث الله رسله لتحقيقهما ، وانه لا يتم أحدهما الا بالآخر ، فيقول نقلا عن ابن القيم (٢) : " ملاك السعادة والنجاة والفوز ، بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتب الله تعالى ،

وبتحقيقهما بعث الله رسله ، واليهما دعت الرسل من أولهم الى آخرهم ، ...... وقد جمع الله هذين النوعين من التوحيد في سورتي الاخلاص ، وهما سورة " قل ياايها الكافرون " المتضمنة للتوحيد العملي الارادي ، وسورة " قل هو الله أحد " المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري ،

فسورة " قل هو الله أحد " فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وبيان ما يجب تنزيهه عنه من النقائص والأمثال ،

وسورة " قل يا أيها الكافرون " فيها ايجاب عبادته وحده لا شريك له ، والتبري من عبادة كل ما سواه ،

ولا يتم أحد التوحيدين الا بالآخر ،

ولهذا كان النبي صلى الله عليه واله وسلم يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر وصلاة المغرب اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته ، ليكون مبدأ النهار توحيدا ، وخاتمته توحيدا (٣) "

---

١ - الدين ٥٦/١

٢ - اجتماع الجيوش الاسلامية ص : ٤٦

٣ - الدين ٢٠٠/١

تعقيـــــب :

من خلال ما تقدم من كلام القنوجي رحمه الله حول التوحيد نلاحظ مايلي :

١ - ان التوحيد هو أول دعوة الرسل جميعا ، وأن معناه : افراد اللـــه بالعبادة ،

لا شك أن ما ذهب اليه القنوجي في بيان معنى التوحيد هو تاييد لمذهب السلف ، وأنه خالف المتكلمين حيث يدور كلامهم على قضية الجانب النظـــري كنفي الأشباه عن الله ، أو انفراده عن الغير والمباين له ، فاقتصارهم علـــى ذلك ليس هو التوحيد الذى جاء به الشرع ، بل التوحيد الذى جاء به الشرع هو أنه لا بد في حقيقة التوحيد بالاضافة الى هذا الجانب النظرى مـــــن التوحيد العملي وهو افراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ،

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله في معرض رده على المتكلمين فـــي اقتصارهم على معنى الوحدانية على الجانب النظرى : " ان التوحيد الـذى أنزل الله به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو المذكور في الكتاب والسنة ، وهـــو المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ، ليس هو هذه الأمور التي ذكرها هؤلاء المتكلمون ، وان كان فيها ما هـو داخل في التوحيد الذى جاء به الرســـول صلى الله عليه وسلم ، فهم مع زعمهم أنهم الموحدون ، ليس توحيد هــــم التوحيد الذى ذكر الله ورسوله ، بل التوحيد الذى يدعون الاختصاص بـــه باطل في الشرع والعقل واللغة ، وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هــــو عبادة الله وحده ، فمن عبد الله وحده لم يشرك به شيئا فقد وحده ، ومـــن عبد من دونه شيئا من الأشياء فهو مشرك به ، وليس بموحد مخلص له الديـــن وان كان مع ذلك قائلا بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد ، حتى لـــو أقر بأن الله وحده خالق كل شيء ، وهو التوحيد في الأفعال الذى يزعـــم

هؤلاء المتكلمون انه يقر أنه لا اله الا هو ، ويثبتون بما توهموه من دليل التمانع وغيره لكان مشركا ، وهذا حال مشركي العرب الذين بعث الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم ابتداء ، وانزل القرآن ببيان شركهم ، ودعاهم الى توحيد الله واخلاص الدين له . . . . . .

والتوحيد الذى جاءت به الرسل يتناول التوحيد فى العلم (الاعتقاد) والقول ( الوصف ) وهو وصفه سبحانه بما يوجب أنه فى نفسه أحد صمد ، لا يتبعض ويتفرق فيكون شيئين وهو واحد متصف بصفات تختص به ، ليس فيهما له شبيه ولا كفؤ ،

والتوحيد فى الارادة والعمل ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وقد أنزل الله تعالى ذلك فى " قل يا أيها الكافرون " و " قل هو الله أحد " (١)

٢ - أنه قسم التوحيد الى قسمين ، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وفرق بين هذين النوعين ، وأن توحيد الربوبية لا يكفى وحده ، بل هو دليل وبرهان على توحيد الالهية الذى هو أصل التوحيد ، فعلم من هذا أن أنواع التوحيد متلازمة متكافلة لا ينفك أحدهما عن الآخر ،

لا ريب أن الطريق الذى سلكه القنوجى فى بيان أنواع التوحيد ، والتركيز على توحيد الالهية هو طريق سلفى سار عليه علماء السلف الذين ذهبوا الى أن التوحيد قسمان ،

كما أنه خالف المتكلمين فى تحديد أنواع التوحيد ، الذين ذكروا أن التوحيد له ثلاثة معان ، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " فان عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد فى كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع ، فيقولون : هو واحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى

---

١ - نقض تاسيس الجهمية ١ / ٤٧٨

صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، وأشهر الأنواع الثلاثة عند هم هو الثالث ، وهو " توحيد الأفعال " وهو أن خالق العالم واحد ، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب ، وأن هذا هو معنى قولنا : لا اله الا الله ، حتى يجعلوا معنى الالهية القدرة على الاختراع ،

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم أولا لم يكونوا يخالفونه فى هذا ، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شئ ، حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر ايضا ، وهم مع هذا مشركون " (١)

ثم يقول تعبيرا عن راى السلف فى بيان أنواع التوحيد بقوله : " توحيد الربوبية وتوحيد الالهية هو التوحيد الواجب الكامل الذى جاء به القرآن ، ...... وكل واحد من وحدانية الربوبية والالهية - وان كان معلوما بالفطرة الضرورية البديهية ، وبالشريعة النبوية الالهية - فهو أيضا معلوم بالأمثال الضرورية التى هى المقاييس العقلية " (٢)

وان توحيد الربوبية الذى يقوم على اعتقاد أن الله سبحانه رب كل شئ وخالقه ، لا يكفى بمجرده ، ولا ينجى من العذاب ، اذا لا بد من الاقرار أن العبادة من حقه الذى لا ينبغى الا له ،

يقول ابن تيميه : " فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ، فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، (٣) فإقرار المرء بأن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله ، ان لم يقترن به اقراره بأنه لا اله الا الله ، فلا يستحق العبادة أحد الا هو ، وأن محمدا رسول الله ، فيجب تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، فلابد من الكلام فى هذين الأصلين " (٤)

---

١ - مجموع فتاوى ٣ / ٩٧
٢ - " ٢ / ٣٧
٣ - " ١ / ٢٣
٤ - الرسالة التدمرية ص : ٦٩

لا يخفى على القارئ الكريم أن يعرف النسبة بينهما ، وهى أنهما متلازمان ، يكمل بعضها بعضا ، ولا يصح أحدها بدون الآخر ،

كما يقول ابن تيميه بعد ذكر الآيات التى تنص على عجز المعبودات الباطلة ، كقوله تعالى : " يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا" (١) وأمثالها ، " والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه ، فأفاد الأصلين الذين بهما يتم التوحيد : وهما اثبات صفات الكمال ردا على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين " (٢)

---

١ - مريم : ٤٢

٢ - مجموع فتاوى ٦ / ٨٣

المبحث الثالث :

اثبات التوحيد :

ان القنوجي - رحمه الله - يثبت الوحدانية لله تعالى من طرق متعددة مستنبطة من الآيات القرآنية والسنة النبوية ، وفيما يلي بيان لأهم هذه الطرق :

أولا : الفطرة :

ان الانسان مغطور على التوحيد ، كما تقدم في الكلام على وجود الله ، والفطرة - اذا لم تدنس - تأخذ بيد الانسان الى التوحيد .

كما روى عن عياض بن حمار ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : انى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما احللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا " (١)

فأخبر أنه خلقهم حنفاء (٢) ، وذلك يتضمن معرفة الرب ، ومحبته وتوحيده ، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية ، وهي معنى قول " لا اله الا الله "

استشهد القنوجي على أن التوحيد فطرى بعدد من الآيات الكريمة التي تنص على بداهته ،

أ - قال تعالى : ( واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه ) (٣)

" أن الكفار انما يعتقدونه في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة ، فأما في هذه الحالة ، فان كل واحد منهم يعلم

---

١ - رواه مسلم ٤ : ٢١٩٧

٢ - الحنف : هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، المفردات : ١٣٣

٣ - الاسراء : ٦٧

بالفطرة علما لا يقدر على مدافعته ، أنه لا ينقذه مما هو فيه الا الله سبحانه ، (١)

ب - وقال تعالى :

( حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ) (٢)

أى لم يشوبوا دعاءهم بشئ من الشوائب كما جرت عادتهم فى غير هذا الموطن ، أنهم يشركون أصنامهم فى الدعاء ، وليس هذا منهم الا لأن الفطرة استيقظت فادركوا أنه لن ينجيهم الا الله سبحانه ،

وفى هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله فى الشدائد ، وأنه لن يجيب المضطر اذا دعا الا الله سبحانه ، (٣)

ج - قال تعالى :

( فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ) (٤)

يقول القنوجى موضحا بداهة توحيد الله تعالى " اذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا الى الفطرة بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام ، لعلمهم أنه لا يشكف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه " (٥)

ثانيا : الاستدلال :

القنوجى حين أراد أن يستدل على الوحدانية اتجه الى القرآن الكريم

---

١ - فتح البيان ٥ : ٣٨٠
٢ - يونس : ٢٢
٣ - فتح البيان ٤ : ٢٤٩
٤ - العنكبوت : ٦٥
٥ - فتح البيان ٧ : ٢٣٠

يأخذ منه ، لأنه وجد أن غير القرآن الكريم لا يمكن أن يوفى الموضوع حقه ،

والقرآن الكريم نزل فى بيئة كانت على الشرك ، ولذلك نجد أنه استعمل عدة طرق ، يمكن تلخيصها فى ثلاثة :

١ - هدم ثقتهم فى معبوداتهم ،

وذلك بابطال أن يكون لهذه المعبودات (١) أى تأثير ، ولذلك لا تستحق أن تكون آلهة بل هى -كغيرها- مخلوقة ،

٢ - ما فى الكون من حكمة ترشدنا الى أن هذا الكون من فعل اله واحد ،

٣ - الفساد الذى يترتب على تعدد الآلهة ، والقنوجى يوضح هذا واليك البيان :

---

١ - الأصنام ، الملائكة ، عيسى عليه السلام ، الكواكب وغيرها ،

## الدليل الثاني : دليل العناية الالهيـــة :

هذا الكون الفسيح بما أودع الله فيه من العجائب واللطائف والتناســق التام التي يضطر الانسان بها إلى التفكر والتدبر ،

فمن نظر الى السموات وما فيها من أجرام ، والى الأرض بما فيها مـــن عجائب المخلوقات ذات ألوان وأنواع ، يصل بنظره وتمعنه الى أن موجده واحد أحد ، أوجده بنظام ونسق يدل على توحيد خالقها وأنه مستحق للعبادة ،

قال تعالى :

" أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض (١) "

" القصد التعجب من اعراضهم عن النظر فى الايات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالالهية ، والمعنى : أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعـــوا بالتفكر ، ولا نظروا فى مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك الى الايمان بـــه ، بل هم متبادرون فى ضلالتهم خائضون فى غوايتهم لا يعطون فكرا ولا يمعنون نظرا (٢) "

وقال تعالى :

" ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السمـــاء والأرض لآيات لقوم يعقلون (٣) "

---

١ - الأعراف : ١٨٥
٢ - فتح البيان ٣/٤٦٩
٣ - البقرة : ١٦٤

" هذه الأمور الثمانية التي هن من أعظم صنعة الصانع الحكيم ، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها ، أو يقتدر عليه ، أو على بعضه ، وهي خلق السموات وتعاقب الليل والنهار ، وجرى الفلك في البحر ، وانزال المطر من السماء ، واحياء الأرض به ، وبث الدواب فيها بسببه ، وتصريف الرياح ، وتسخير السحاب ، فان من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها ، انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته ، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه (١)"

واذا علم أن كل هذه المخلوقات مرتبط بعضها ببعض ، فكل واحد في خدمة الآخر ومسخر من أجله ، وكلها مسخرة للانسان ، علم من كل هذا أن الغاية واحدة ، فينتقل من ذلك الى الحكم بأن الخالق واحد ، وهذه أمور واضحة جدا ومحسوسة أيضا ، فالانسان اذا استعمل فيها أدنى فكر وتمعن ، توصل به الى أن الكائنات التي يرى أمامه لم تحدث صدفة ، بل أوجدها موجد بغاية الدقة والاحكام ، وقدر فيها سيرها ووظائفها التي من أجلها خلقت ، حيث يؤدي كل واحد منها ما خلق من أجله ويكون الكل مرتبطا بعضه ببعض ،

وقال تعالى :

" وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (٢)"

يقول نقلا عن ابن كثير (٣)

" يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في ايات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار

١ - فتح البيان ١/٢٦٢
٢ - يوسف : ١٠٥
٣ - تفسير ابن كثير ٢ : ٤٩٤

شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهةومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك " (١)

وقال تعالى :

" سنريهم آياتنا في الآفاق " (٢)

" اى دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله ، والمعنى : سنريهم آياتنا فى النواحى على ما أخبرهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة " (٣)

لو تفكر الانسان فى نفسه ، وما أودع الله فيه من صفات عجيبة ووظائف مختلفة ، ثم ما يمر به الانسان من أطوار من نطفة الى أن يصير انسانا كاملا ، لا تضح لديه وضوح الشمس أن له مدبرا منظما ، ألا وهو الله الواحد فقط ،

قال تعالى :

( وفى أنفسكم أفلا تبصرون ) (٤)

" وفى أنفسكم " فى حال ابتدائها وتنقلها من حال الى حال ، آيات تدل على توحيد الله ، . . . .فانه خلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما الى أن ينفخ فيهم الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم ، وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس ، وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطرة وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ،

---

١ - ترجمان القرآن ٥/٨١٥
٢ - حم السجدة : ٥٣
٣ - فتح البيان ٨/٣٤٨
٤ - الذاريات : ٢١

وبالألسنة والنطق ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها " ( ١ )

وما دام الله سبحانه هو الخالق فانه يكون هو الاله الحق ، ومن لا يستطيع أن يخلق شيئا ولا أن يكون له تأثير ما فى شئ من الأشياء كيف يكون آلهـا ، قال تعالى : ( أفمن يخلق كمن لا يخلق ) ( ٢ )

كما يقول تعالى :

( أفلا تبصرون )

أفلا تبصرون " اى تنظرون بعين البصيرة والعبرة الأرض وما فيها والأنفس وما فيها ، فيستدلون بذلك على الخالق الرازق المنفرد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند وأن وعده الحق وقوله الحق ، وأن ما جاءت اليكم به رسله هو الحق الذى لا شك فيه ولا شبهة تعتريه " ( ٣ )

---

١ - فتح البيان ٩ : ١٢١
٢ - النحل : ١٧
٣ - فتح البيان ٩ : ١٢٢

تعقيب :

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الطريقة التى سار عليه القنوجى فى الاستدلال على وحدانية الله تعالى عن طريق الاتجاه بالحس والعقل معا الى التفكير بهذا الكون العظيم الضخم ، والانسجام والتناسق التام ، ودقة النظام الذى يسير عليه وتدبير أموره تدبيرا محكما غاية الاحكام طريقة سلفية ،

فقد استدل ابن جرير على وحدانية الله تعالى بالآيات التى تحدثت عن المظاهر الكونية ،

قال تعالى :

( أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ) (١)

يقول فى تفسيره : " أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله فى ملك الله وسلطانه فى السموات وفى الأرض ، وفيما خلق الله جل ثناؤه من شئ فيهما فيتدبروا ذلك ، ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك ممن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة او الدين الخالص الا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا الى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان " (٢)

ويقول ايضا فى تفسيره لقوله تعالى :

( وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ) (٣)

" وكم من آية فى السماوات والأرض لله ، وعبرة وحجة وذلك كالشمس والقمر والنجوم ، ونحو ذلك من آيات السماوات ، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ، يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها ، لا يعتبرون بها ، ولا يفكرون فيها ، وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الألوهية لا

---

١ - الاعراف : ١٨٥
٢ - جامع البيان ٩ : ١٣٦
٣ - يوسف : ١٠٥

تنبغى الا للواحد القهار الذى خلقها وخلق كل شئ فدبرها " (١)

وكذلك ابن القيم يستدل بعظمة الكون على عظمة خالقه ووحدانيته ، وذلك فى قوله تعالى : ( ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ) (٢)

يقول :

" فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السماوات كقطرة فى بحر ، ولهذا قل أن تجئ سورة فى القرآن الا وفيها ذكرها اما اخبارا عن عظمها وسعتها ، واما أقساما بها ، واما دعاءا الى النظر فيها ، واما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، واما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة ، واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وانه الله الذى لا اله الا هو " (٣)

---

١ - جامع البيان ١٣ : ٧٦
٢ - آل عمران : ١٩٠
٣ - مفتاح دار السعادة ١ : ١٩٦

الدليل الثالث :

وحدة النظام الكوني وسلامته من الفساد:

ههنا أدلة عقلية وردت في القرآن الكريم تدل على وحدانية الله تعالى ، وهذه الايات تحث الانسان على التفكر والتدبر والتعقل ، فتهديه الى أن الاله واحد فقط ، وليس له شريك ، لأن النظام الكوني المنسجم لا يتصور في حال الشركة ، بل يوجب الفساد ،

أ ـ قال تعالى : "لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا" (١)

"أي لو كان في السموات والأرض الهة معبودون غير الله لبطلتا بما فيهما من المخلوقات ، وخرجتا عن نظامهما المشاهد ، وهلك من فيهما ، لوجود التمانع من الآلهة على العادة عند تعدد الحاكم من التمانع في الشيء وعدم الاتفاق عليه ، لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام ، ويدل العقل على ذلك ، وذلك انا لو قدرنا الهين لكان أحدهما اذا انفرد صح منه تحريك الجسم ، واذا انفرد الثاني صح منه تسكينه ، فاذا اجتمعتا وجب أن يبقيا على ما كانا عليه ، حال الانفراد ، فعند الاجتماع يصح أن يحاول أحدهما التحريك ، والآخر التسكين ، فاما أن يحصل المراد وهو محال ، واما أن يمتنعا وهو ايضا محال ، لأنه يكون كل واحد منهما عاجزا ، فثبت أن القول بوجود الهين يوجب الفساد ، فكان القول به باطلا" (٢)

ومن رأى أنها اقناعية لجواز أن يتفقا ، كما ذهب اليه التفتازاني ، فيقول القنوجي تعقيبا عليه بأنه قول منكر ، ويستشهد بقول الرازي (٣)

---

١ ـ الأنبياء : ٢٢
٢ ـ فتح البيان ١٤٧/٦
٣ ـ تفسير رازي : ١٥١/٢٢

" لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال ، لان استناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد ، فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع ، فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا ، فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال ،

وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد ....... والفساد لازم على كل التقديرات (١)

والمحققون من العلماء ما قنعوا بأن هذه الآية اقناعية بل جعلوها من الحقائق القطعية ،

ب - وقال تعالى :

" ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٢)"

" لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه ( وما كان معه من اله ) شريك فى الألوهية ، ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من اثبات الشريك ، فقال : ( اذا لذهب كل اله بما خلق ) وفى الكلام حذف أى لو كان مع الله آلهة أخرى لانفرد كل اله بخلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ،

( ولعلا بعضهم على بعض ) أى ولغلب القوى على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بنى آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق

---

١ - انظر فتح البيان ١٤٧/٦
٢ - المؤمنون : ٩١

أن يكون الـها ، واذا تقرر عدم امكان المشاركة فى ذلك وأنه لا يقوم به الا . . واحد ، تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فانه يدل على نفي الولد ، لأن الولد ينازع أباه في ملكه (١)"

ج ـ قال تعالى :

" قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لا بتغوا الى ذى العرش سبيلا" (٢)

"(قل) لهم في شأن الاستدلال على ابطال التعدد الذى زعموه واثبات الوحدانية ، (لو كان معه آلهة كما ) أى كونا مشابها لما (يقولون ) المراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة (اذا لا بتغوا الى ذى . . العرش سبيلا ) طريقا للمغالبة والمقاتلة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم " (٣)

---

١ - فتح البيان ٦/ ٣٠٤
٢ - بنى اسرائيل ٤٢
٣ - فتح البيان ٥/ ٣٦٠

تعقيب :

نلاحظ في السطور الماضية أن القنوجي يرى أن قوله تعالى ( لو كان فيهما الهة الا الله لفسدنا ) آية قطعية برهانية ، تدل دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى ، والقرآن كله يقرره بأسلوب معجز لا يسع المشركين أمامه الا ... التسليم .

ثم جاء بعض المتكلمين الذين يظنون بسوء فهمهم أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية ، وهذا الزعم الفاسد كما أبطله القنوجي ، فقد سبقه ابن تيميه ، يقول بعد ذكره قوله تعالى :

( لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا )

" ما أحسن هذا البرهان ، فلو قيل بعده وما فسدتا فليس فيهما الهة الا الله ، لكان هذا من الكلام الغث الذى لا يناسب بلاغة التنزيل ......

ومما ينبغى أن يتفطن له ، فان من أعظم كمال القرآن تركه فى أمثاله المضروبة وأقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجلية الواضحة المعلومة ، ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة التى قد علم من أول الكلام أنها هى المقصود ، بل انما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره وينتفع بمعرفته ، فذلك هو البيان ، وهو البرهان ، وأما ما لا حاجة الى ذكره فذكره عي .

وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال والمنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك : الطريقة الكلامية البرهانية فى أساليب البيان ليست فى القرآن الا قليلا ، وقال الثانى : انه ليس فى القرآن برهان تام ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى ، فانه ليس فى القرآن الا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل وتدبر " ( ١ )

---

١ - فتاوى ١٤ / ٦١ ، درء تعارض ٧ / ٣٦١

فالآية المذكورة دليل قطعي لاثبات الوحدانية لله تعالى ، وأنه ليس في الوجود معبود بحق الا الله الواحد الأحد ،

واما الذين قالوا ان هذا الدليل خطابي فقط ، يراد به الاقناع ، اذ يجوز الاتفاق على خلق العالم بنظامه الذى نشاهده ، قول منكر ، ولو بطريق التعاون ، ويتوجه ابن رشد على من يظن أنها اقناعية ، ويقرر

" فأما الآية فدلالتها مغروزة في الفطر بالطبع ، وذلك أنه من المعلوم بنفسه أنه اذا كان ملكان كل واحد منهما فعله فعل صاحبه ، أنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة ، لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد فعل واحد ، فيجب ضرورة - ان فعلا معا - أن تفسد المدينة الواحدة ، الا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عطلا ، وذلك منتف في صفة الالهة ، فانه متى اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد فسد المحل ضرورة ، هذا معنى قوله سبحانه " لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا " (١)

وفي توضيح أن الآية برهانية يقول ابن تيميه بعد ذكر الأوجه عند فرض الهين :

" وهذه الوجوه وغيرها تبين امتناع ربين كل منهما معاون للآخر ، أو كل منهما مانع للآخر فلم يبق الا ان يكون كل منهما قادرا مستقلا وحينئذ فيمكن اختلافهما ، واذا اختلفا لزم ان لا يفعل واحد منهما شيئا ولزم عجزهما ، ولزم كون كل واحد منهما مانعا ممنوعا ، فتبين امتناع ربين سواء فرضا متفقين أو مختلفين ، وأما اذا فرضنا مستقلين وفرض كل منهما مستقلا بخلق العالم ، فهذا أظهر امتناعا ، لان استقلال احدهما يمنع ان يكون له فيه شريك فكيف اذا كان الآخر مستقلا به فتقدير استقلال كل منهما يقتضي ان يكون كل منهما

---

١ - مناهج الأدلة ص : ١٥٦

فعله كله ، وان لا يكون واحد منهما فعل منه شيئا ، فيلزم اجتماع النقيضين مرتين ، ولهذا امتنع ان يكون مؤثران تامان مستقلان يجتمعان على أثر واحد ، فان مثال ذلك ان نقول : هذا خاط الثوب وحده ، وهذا خاط ذاك الثوب بعينه وحده ، وان نقول هذا أكل جميع الطعام ونقول هذا أكل جميع ذاك الطعام بعينه ، وهذا كله مما يعرف امتناعه ببديهة العقل بعد تصوره " (١)

وهل يليق بنا أن نقول أن الآية اقناعية بعد ان سماه الله برهانا ، لقد أخطأ ـ عقلا وشرعا ـ من ظن من المتكلمين أن الآية اقناعية ،

أخطأوا عقلا ، وهذا يتبين مما رد به ابن رشد والرازى وابن تيميه ، فقد برهنوا على أنه لا يمكن اتفاقهما ،(٢)

وأخطأوا شرعا لأن الله سبحانه قد سمى ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم برهانا ، وأنه لا يوجد عند المخالفين برهان أى برهان ،

قال تعالى :

( أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون ،أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ) (٣)

---

١ - منهاج السنة ٢/ ٦٧
٢ - ارجع فى تفصيل ذلك ما تقدم
٣ - النمل : ٦٠ ، ٦٤

فقد برهن في هذه الآيات أنه لا تأثير لأحد غير الله سبحانه وتعالـــى ،
ولذلك ليس هناك اله معبود بحق الا هو ،

واذا كان المشركون ليس معهم برهان ، فان البرهان الحقيقي هو ما جـاء
به الشرع دليلا على وحدانية الله سبحانه وحده ،

## المبحث الرابع :

### ابطال الشرك والعبادات الوثنية :

واذا كنا قد قدمنا فى المبحث السابق أدلة القنوجي على توحيد الله، فالواقع ان من أهم طرق اثبات التوحيد ابطال كل أنواع الشرك والعبادات الوثنية، فان بطلان ذلك كله يقدم الدليل الواضح على أن التوحيد هو الحق،

وقبل أن نستعرض المسالك التى سلكها القنوجي فى ابطال الشرك والعبادات الوثنية، يجدر بنا أن نذكر معنى الشرك، والأسباب التى أدت اليه،

### الشـــرك :

الشرك هو تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى الخصائص والصفات التى لا ينبغى الا لله سبحانه من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع والخوف والرجاء وغير ذلك ، فمن علق شيئا من ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعله شريكا لمن له الحمد كله ، (١)

هذا الاعتقاد الذى يعتقده الانسان فى بعض الناس الذين ظهرت على يديهم أشياء غريبة ، فيرى أن هذا لم يصدر منه الا لكونه متصفا بصفة الكمال ، مما لا يتصور وقوعه من الانسان العادى ، فحينئذ يتذلل له غاية التذلل ، ويعامله معاملة العباد مع الله تعالى ،

كما قال تعالى :

( ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ) (٢)

" فأخبر أن من أحب مع الله تعالى شيئا غيره كما يحبه فقد اتخذ ندا من دونه .... وهذا هو العدل المذكور فى قوله سبحانه :

( ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ) (٣)

« والمعنى أنهم يعدلون به غيره فى العبادة فيسوون بينه وبين غيره فى الحب والعبادة ......

---

١ - انظر فتح المجيد : ٧٢ ، الادراك : ٣٣
٢ - البقرة : ١٦٥
٣ - الانعام : ١

فمن أحب غير الله وخافه ورجاه وذل له وخضع ، كما يحب الله ويخافه ويرجوه ويخضع له فهو المشرك ، وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله " (١)

أسباب الشرك :

بعد تتبع كتب القنوجى يظهر لنا أسباب الشرك عنده و نجعلها فيما يأتى :

أولا : تقليد الآباء ،

هذا التقليد الأعمى قد سيطر على عقلهم وفكرهم ، فطارت العقول والأفكار ، فصاروا كالأنعام بل أضل ، وبدأوا يتيهون فى وادى الجهل ،

يقول ذاما لحالهم : " انهم اذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالق فى العبادة ، وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الادراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا اسلافهم واحسنوا الظن بهم ، هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل " (٢)

ثانيا : رجوع الخير والشر الى اله واحد ،

هل هناك اله واحد فى العالم الذى أوجد الكائنات بما فيها من تناقض - كما زعموا - من خير وشر ونور وظلمة ،

ولذا " يقولون بأن للعالم ربين ، أحدهما خالق الخير ، والآخر خالق الشر " (٣)

ثالثا : اتخاذهم الأصنام شفعاء ،

ان قلنا باله واحد ، فهل يمكن أن نصل اليه مباشرة بدون تدخل أى

---

١ - فتح البيان ٣ : ١٢٧

٢ - فتح البيان ٨ : ٢٢٩

٣ - الدين ١ : ٧١

٣ - هذا مذهب الثنوية الذين يجعلون للعالم أصلين النور والظلمة ، وهذا يتمثل فى مذاهب مانى ومزدك أيضا ، الملل : ٢ : ٨٠ ، ٨٦

وسيط من الوسائط ، فهم " كانوا يرون الأصنام والأوثان وكلا ُهم عند اللـــه فيعبدونها " ( ١ )قائلين ما نعبدهم لشئ من الأشياء الا ليقربونا الى اللـــه تقريبا " ( ٢ )

---

١ - الدين ٢ : ٦

٢ - فتح البيان ٨ : ١٩٧ ، وانظر الوحدانية ص : ٣٧٤

**عبادة الأصنام وابطالها (١) :**

ان كل من فكر وأبعد عنه الغواشى التى تغطى العقل ، لابد أن يعلم أن ما يحدث فى العالم من صغير وكبير ، هو من قضاء الله وقدره ، وهو الذى يقدر على ايصال النفع والضر ،

وأما من يعتقدون فى الأصنام ، قائلين انها قادرة على جلب النفع ودفع الضر ، فهذا من أبين الكذب ، لأن الأصنام خلق من خلق الله تعالى ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئا ، ان أراد الله بها سوءا ،

والعجب من عظيم خطأ هؤلاء الجهال ، حيث أشركوهم فى العبادة مع الله تعالى ، التى لا يستحقها الا هو ، وهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تخلق شيئا ، بل هى كالعابدين لها من خلق الله سبحانه ،كما أنها لا تستطيع نصرهم ولا هم يستطيعون نصر أنفسهم ، ولبيان هذا يستدل القنوجى بقوله تعالى :

( أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ) (٢)

" الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يجعل أهل مكة لله شريكا لا يخلق شيئا ،ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع ضر عنهم ( وهم يخلقون ) اى وهؤلاء

---

١ - فكرة عبادة الأصنام فكرة قديمة ، وقد أخبرنا القرآن الكريم أنها كانت موجودة فى زمن نوح عليه السلام ( قال نوح رب أنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ما له وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا ) نوح : ٢١ - ٢٤
وقيل : أول من شرع عبادة الأصنام هم بنو شيث بن آدم ، وأما أول من أدخلها مكه فهو عمرو بن لحى ،
كتاب الأصنام ص : ٨ ، ٥٠

٢ - الأعراف : ١٩١ - ١٩٢

الذين جعلوهم شركاء من الأصنام والشياطين مخلوقون ( لا يستطيعون لهم نصرا ) ان طلبوه منهم ( ولا أنفسهم ينصرون ) ان حصل عليهم شئ من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز ، ثم كرر سبحانه بقوله :

( والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ) (١)

لمزيد من التاكيد والتقرير ، ولما فى تكرار التوبيخ والتقريع من الاهانة للمشركين والتنقص بهم واظهار سخف عقولهم وركاكة أحلامهم " (٢)

قال تعالى :

( ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون ) (٣)

" ان هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقا أى رزق كائنا منها ، وفى هذا انكار منه سبحانه عليهم ، حيث اختاروا عبادة ما لا ينفع ولا يضر ، ولا يستطيعون الفائدة فى نفى الاستطاعة عنهم ،

ان من يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة التملك بطريق من الطرق ، فبين سبحانه أنه لا يملك أصلا ، ولا يستطيع أبدا " (٤)

قال تعالى :

( ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز ) (٥)

---

١ - الأعراف : ١٩٧
٢ - فتح البيان ٣ : ٤٧٩
٣ - النحل : ٧٣
٤ - الدين ٢ : ٨
٥ - الحج : ٧٢ ، ٧٣

( ان الذين تدعون من دون الله ) المراد بهم الأصنام التى كانت حول الكعبة وغيرها ، ( لن يخلقوا ذبابا ) واحدا مع ضعفه وصغره وتخصيص الذباب لمهانته واستقذاره ، والمعنى : لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات وهو أجهل الحيوانات ، لأنه يرمى نفسه فى المهلكات ، ومدة عيشه أربعون يوما ، وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض ، يقع روثه على الشئ الأبيض فيرى أسود ، وعلى الأسود فيرى أبيض ،

( ولو اجتمعوا له ) ان هذه الأصنام ان اجتمعت لا تقدر على خلق ذبابة على ضعفها ، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا ، ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال :

( وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه )

اى اذا أخذ واختطف منهم هذا الخلق الأقل الأرذل شيئا من الأشياء بسرعة لا يقدرون على تخليصه منه ، لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب فقال :

( ضعف الطالب والمطلوب ) قال ابن عباس : الطالب آلهتهم والمطلوب الذباب ، ثم بين الله سبحانه ان المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة الى هذه الغاية فى العجز ما عرفوا الله حق معرفته ، فقال :

(وما قدروا الله حق قدره ) اى ما عظموه حق تعظيمه ، ولا عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، ( ان الله لقوى ) على خلق كل شئ ( عزيز ) غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين فانها جماد لا يعقل ولا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شئ " (١)

---

١ - فتح البيان ٦ : ٢٥٨

قال تعالى :

( قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ) (١)

" هذا خطاب وأمر للنبى صلى الله عليه واله وسلم بأن يقول لكفار قريش ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذى نزل بكم فى سنى الجوع ،

فأجاب عنهم سبحانه ( لا يملكون ..... ) اى ليس لهم قدرة على خير ولا شر ولا على جلب نفع ولا دفع ضر فى أمر من الأمور ،

وليس للآلهة الباطلة مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف ، ولا هم معين لله تعالى ، بل هو المنفرد بالايجاد والابقاء ، فهو الذى يعبد " (٢)

ثم يبين عدم التسوية بين دينونة الانسان لاله واحد ودينونته لآلهة متعددة ،

فقال تعالى :

( ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ) (٣)

" هل يستوى هذا الذى يخدم جماعة شركاء ؟ أخلاقهم مختلفة ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب ، مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذى يخدم واحدا لا ينازعه غيره ، اذا أطاعه رضى ، واذا عصا عفا عنه ، فان بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما ، لأن أحدهما فى أعلى المنازل ، والآخر فى أدناها " (٤)

---

١ - سبأ : ٢٢
٢ - الدين الخالص ٢ : ١٠
٣ - الزمر : ٢٩
٤ - فتح البيان ٨ : ٢٢٤

قال تعالى :

( ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقته منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ) (١)

يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبين ما جعلوه شريكا له .

" ومن المعلوم أنهم لا يستوون فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء ، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ، ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه .

وحاصل المعنى أنه كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ، ورجل حر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه ، كذلك لا يستوى الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها ، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، .....

المقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين الأمرين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له " (٢)

ثم ضرب الله مثلا آخر الزاما وتبكيتا لهم .

فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول - كما قال تعالى - :

( قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمت والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ) (٣)

" أراد بالأعمى المشرك والكافر ، وبالبصير المؤمن الموحد ، فالأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه ، والثاني عالم بذلك .

---

١ - النحل : ٧٥
٢ - فتح البيان ٥ : ٢٧٤ ، ٢٧٦
٣ - الرعد : ١٦

والمراد بالظلمات الشرك والكفر ، وبالنور التوحيد والايمان ، اى كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ، ما بين الأعمى والبصير وما بين الظلمات والنور . . . . .

مع هذا الفرق الواضح الجلى كيف اشتبه عليهم الأمر ، بل اذا تفكروا وجدوا الله هو المتفرد الوحيد بالخلق ،

والمعنى أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه فتشابه - بهذا السبب - الخلق عليهم ، حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم ،

بل انما جعلوا له شركاء الأصنام والأوثان والعباد الصلحاء ونحوها بمحض سفه وجهل ، وهى بمعزل أن تكون كذلك لأنه لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا أثر البتة ، ثم أمر سبحانه بأن يوضح لهم الحق ، ويرشدهم الى الصواب فقال :

( قل الله خالق كل شئ ) كائنا ما كان ، ليس لغيره فى ذلك مشاركة بوجه من الوجوه ، فلا شريك له فى العبادة ،

( وهو الواحد ) أى المتفرد بالربوبية والألوهية ( القهار ) لما عداه ، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب ، لا يقدر على شئ من التصرف فى أمور العالم أصلا " (١)

ثم يبين الله عجزهم وغاية ذلهم بقوله :

( ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ) (٢)

هذه الأصنام التى جعلتموها ندا لله سبحانه ، وتطلبون منها ، مع أنها غير قادرة على النفع والضر ،

---

١ - الدين ٢ : ٢٨
٢ - الأعراف : ١٩٥

" فانهم ـ كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ـ ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم ، فضلا عن أن يمشوا في نفعكم ، وليس لهم أيد يبطشون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء ، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون ، وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون ، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز " (١)

وقال تعالى :

( وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ) (٢)

( وان تدعوهم ) اى الأصنام ، ( الى الهدى لا يسمعوا ) دعاءكم لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق ، فضلا عن المساعدة والامداد ، وهذا أبلغ من نفي الاتباع ، ( وتراهم ينظرون اليك ) اى يقابلونك كالناظر ، ( وهم لا يبصرون ) فيه بيان عجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، (٣)

وان المشركين لم يقتصروا على هذا القدر ، بل تجاوزوه ، حتى ذبحوا للأصنام والطواغيت ، وقد ورد اللعن بلسان المصطفى صلى الله عليه وسلم على هذا الصنيع ، كما روى " عن ابى الطفيل قال : سئل على رضى الله عنه هل خصكم رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بشيء ؟ ، فقال : ما خصنا بشيء لم يعم به الناس كافة الا ما في قراب سيفي هذا ، فأخرج صحيفة فيها لعن الله من ذبح لغير الله " (٤)

فالحديث هذا يدل صراحة أن من ذبح حيوانا باسم أحد من دون الله فهو ملعون مردود ، اذ لا يجوز الذبح الا باسم الله تعالى فقط ، حيث خصه تعالى لنفسه ، وانما فعل هذا على رضى الله عنه اهتماما بشأن هذه المسألة ، كانها مما لا ينبغي أن ينسى في وقت من الأوقات ،

---

١ ـ الدين ٢ : ٢٤
٢ ـ الأعراف : ١٩٨
٣ ـ فتح البيان ٣ : ٤٨٢
٤ ـ الدين ٢ : ٨٧ ، الحديث رواه مسلم ٣ : ١٥٦٧

## تعقيب :

نلاحظ في الصفحات الماضية أن القنوجي قد هاجم الشرك في كل زاوية من زواياه ، وأثبت أن الأصنام وغيرها من المعبودات الباطلة لا تقدر على جلب النفع والضر ، بل هي عاجزة عن نصر أنفسها فضلا أن تنصر غيرها ،

كما يرى أن الشرك برغم ما فيه من باطل وعذاب في الآخرة ، هو فوق هذا سبب الشقاء في الدنيا ، لأنه يمزق صاحبه نفسيا ، وهذا أشر من التمزيق الجسدي ، فكل انسان يريد الاستقرار النفسي ، وعابد الاثنين ممزق الى أين يتجه بولائه ، ومتى يستقر نفسيا ؟ ، عند رضى الأول أو الثاني ،

فالذي يملك النفع والضر هو الله سبحانه فقط ، وبيده أزمة الأمور ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ،

يقول الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ : " الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الالهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذي يوجب تعلق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، شبيها بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، واليه يرجع الأمر كله ، وبيده الخير كله ، فأزمة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها اليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، الذي اذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات ، ومن خصائص الالهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم

والاجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والانابة ، والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل ، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره ، فمن فعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ندله ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله " (١)

وهذا الشرك أعظم ذنب عصى الله به ، كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك " (٢)

" فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الالهية والربوبية فقد كفر باجماع الأمة ، فان الله هو المستحق للعبادة لذاته : لأنه المألوه المعبود ، الذى تألهه القلوب وترغب اليه ، وتفزع اليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية ، (٣)

---

١ - فتح المجيد ص : ٧٢

٢ - البخارى ٨ : ١٦٣ ، مسلم ١ : ٩٠

٣ - الفتاوى ١ : ٨٨

## عبـــادة الملائكـــــة وابطالها :

ان طائفة كانوا يدعون الملائكة (١)، معتقدين أنهم يعينون في المصائب، ويفرجون الكرب ، ويشفعون لهم ، فنصبوا تماثيلهم ، كما صور النصارى صـــورة عيسى عليه السلام في كنائسهم ، طلبا للشفاعة ،

ان القنوجي يحتج على من يعتقد في الملائكة ببيان بطلان ألوهيتهم بقوله تعالى :

( يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالـــوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ) (٢)

" اى يقول تقريعا للمشركين وتوبيخا لمن عبد غير الله عز وجل ......

( قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم ) تنزيها لك انت الذى نتولاه ونطيعـــه ونعبده من دونهم ، ما اتخذناهم عابدين ، ولا تولينا هم وليس لنا غيـــرك وليا ،

قال النحاس (٣) : ان الملائكة اذا أكذبتهم كان في ذلك تبكيـــــــت للمشركين وتقريع للكافرين ، واردا على المثل السائر " اياك أعنى فاسمعـــي يا جاره " (٤)(٥)

وقوله تعالى :

( قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ) (٦)

---

١ - أنظر مجموع الفتاوى ١ : ١٥٨

٢ - سبأ : ٤٠ ، ٤١

٣ - هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادى ، النحاس النحوى المصرى ، كان من الفضلاء ، توفي بمصر سنة ٣٣٨هـ ، وفيات الأعيان ، ١ : ٩٩ ، البداية والنهاية ١١ : ٢٢٢ ، النجوم الزاهـــــرة ٣ : ٣٠٠

٤ - يضرب في التعريض بالشيء يبديه الرجل وهو يريد غيره ، كتاب الأمثـــال ص : ٦٥

٥ - فتح البيان ٧ : ٤٦٠

٦ - الاسراء : ٥٦

" هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة ، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بالهية عيسى ومريم وعزير ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه ( فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ) لا يستطيعون ذلك ، والمعبود الحق هو الذى يقدر على كشف الضر وعلى تحويله من حال الى حال ، ومن مكان الى مكان ، فوجب القطع بأن هذه التى تزعمونها الهة ليست بالهة " (١)

وقال تعالى :

( اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ) (٢)

" قال طائفة من السلف ان قوما كانوا يدعون الملائكة وعزيرا (٣) ، فأفصح الله سبحانه تعالى بأن هؤلاء عبيدى كما أنتم عبيدى ، ويرجون رحمتى كما أنتم ترجون رحمتى ، ويخافون عذابى كما أنتم تخافون عذابى ،

واستطرد القنوجى قائلا : " وما أحق هذه الآية بالتفكر فيها ، والتدبر لها ، وما فى معناها من الآيات الأخرى الكثيرة الطيبة ،

ولما قاتلهم رسول الله صلى الله وآله وسلم لم يفرق بين الذين يعتقدون فى الأحجار والأشجار والقبور ونحوها ، (٤) وبين من يعتقدون فى الملائكة والأنبياء والصلحاء ، بل ساقهم مساقا واحدا ، وسلخهم من مسلخ واحد ، ونص عليهم بالكفر والشرك من غير فرق بينهم ،

---

١ - فتح البيان ٥ : ٣٧١

٢ - الاسراء : ٥٧

٣ - انظر الرد على المنطقيين ص : ١٠١

٤ - بحثت عن قوم كانوا يعتقدون فى القبور فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقاتلهم ، فلم أستطع الوصول اليه ،

وهذا واضح بين ـ بحمد الله تعالى ـ يعرفه كل من له أدنى درك ، وأيسر عقل ، وأنزر فهم ، وذلك شئ كثير " (١)

ان علم الغيب علم مختص بالله سبحانه تعالى ، ولا يطلع أحد عليه مهما بلغ فى علو الرتبة والمكانة والقداسة حتى الملائكة الذين يسبحون ويقدسون الا اذا أعلمه الله تعالى كما قال :

( عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، الا من ارتضى من رسول ) (٢)

وقال تعالى :

( وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ) (٣)

يقول : " أمره سبحانه للملائكة بهذا، لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك ( قالوا ) يعنى الملائكة ( سبحانك ) تنزيها لك ،وذلك لما ظهر عجزهم ( لا علم لنا الا ما علمتنا ) اى انك أجل من أن نحيط بشئ من علمك الا ما علمتنا " (٤)

وقال تعالى :

( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ) (٥)

يقول فى معرض تفسيره :

" عنده خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتح التى يتوصل بها الى المخازن ، أى لا علم لأحد من خلقه بشئ من الأمور الغيبية التى استأثر الله بعلمها ،

---

١ ـ الدين ١ : ١٩٢
٢ ـ الجن : ٢٦ ، ٢٧
٣ ـ البقرة : ٣١ ، ٣٢
٤ ـ فتح البيان ١ : ١٠٧
٥ ـ الانعام : ٥٩

ويستوى فى ذلك الملائكة والأنبياء والرسل ، والأولياء والجن والشياطين وغيرهم ، كما يدل على هذا الجملة المستثناة ، فان هذه الآية الشريفة بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى ،

بل الاعتقاد أنهم يعلمون الغيب من أسوأ الاعتقادات ومن أبين المفتريات ، يقول :

" فمن اعتقد فى نبى أو ولى أو جن أو ملك أو امام ....... أن له مثل هذا العلم ، وهو يعلم الغيب بعلمه ذلك فهو مشرك بالله ، وعقيدته هذه من أبطل الباطلات وأكذب المكذوبات ، (١)

وقد أبطل الله تعالى زعم من يزعم أن الملائكة يشفعون لهم بقوله :

( من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ) (٢)

وبقوله :

( ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ) (٣)

ففيه دليل على أن الشفاعة لا تتصور الا بعد اذن من الله تعالى ، كما أنه لا يستحقها أحد الا بعد كونه ممن رضى الله عنه يقول :

" ان الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام كائنا من كان الا أن ياذن الله للملائكة والأنبياء ونحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها ، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى :

( ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ) (٤)

---

١ - الدين ١ : ٤٢٥ ، المواعد العوائد ص : ١١١
٢ - البقرة : ٢٥٥
٣ - الأنبياء : ٢٨
٤ - الدين ٢ : ١٢

تعقيب :

ان الملائكة من صفوة خلق الله تعالى ، يسبحونه ويقدسونه ، كما قال تعالى :

( وله من فى السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) (١)

وقال تعالى :

( ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ) (٢)

وهم من أكرم عباد الله تعالى كما قال فى وصفهم :

( وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ) (٣)

فمن كان متحليا بهذه الأوصاف الحميدة فهل يرضى بالشرك والافك والضلال ، كلا ، كما رأينا فى كلام القنوجى ، بل هم عباد الله تعالى ، وان الذين يعبدونهم عباد أمثالهم ، وأن دعاءهم وعبادتهم للملائكة أمر ليس لهم عليه دليل ،

كما يقول ابن تيميه - رحمه الله - " والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ، ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم ، وقد قال الله تعالى : ( قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا ) (٤) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح ، فبين

---

١ - الأنبياء : ١٩ ، ٢٠
٢ - الأعراف : ٢٠٦
٣ - الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧
٤ - الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون اليه كما يفعل سائر عباده الصالحين - الى أن قال - فان دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم فى هذه الحال ونصب تماثيلهم - بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذى لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتابا ، وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، ولا أمر به امام من أئمة المسلمين ، (١)

---

١ - مجموع الفتاوى ١/١٥٧

## تأليه المسيح وابطاله :

أشرك الانسان بالله فعبد الحجر والكواكب والملائكة وغير ذلك ، وهو في كل مراحل هذه العبادات كان يعلم أن هذه المعبودات انما هي مخلوقة لله سبحانه ، وفي هذه الأثناء كانت تتكون الفلسفات التي قد تجعل الصلة بين الخالق والمخلوق صلة الكل بالجزء ، أو الأصل بالفرع .

ولما بعث الله عيسى ، وبدلت رسالته بعده ، وجدنا النصارى يذهبون الى تلك الفلسفات الضالة ليستخرجوا منها دينا ينسبونه لله سبحانه ، وبخاصة في الأصول فكانت ضلالة تدينوا بها وهي أن نسبوا لله الولد .

ثم قالوا بصلب هذا الولد تكفيرا عما زعموه خطيئة حلت بالبشرية ، وهذه الضلالة استقاها أصحابها من الديانات السابقة وبخاصة الهندية (١) والمصرية (٢) .

وجاء القرآن ( مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه (٣) ) فبين الباطل وناقشه ، وأظهر زيفه ، ومن هذه الضلالات التي ناقشها القرآن الكريم .

ما زعموا أنه اله (٤) .

كما قال تعالى :

( لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم (٥) )

بل هو من جنس البشر ، فلا ينبغي الاعتقاد فيه أنه رب .

---

١ - انظر العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ص : ١٧
٢ - انظر الوحدانية ص : ٤٤
٣ - المائدة : ٤٨
٤ - القائلون بهذه المقالة هم فرقة من النصارى يقال لهم اليعقوبية ، المعروفين الآن بطائفة الارثوذكس ، انظر البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، ص : ٥٨ .
٥ - المائدة : ١٧

كما قال تعالى :

( ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ) (١)

" فيه تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير ، واشارة الى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منه ، وازراء على من قلد الرجال فى دين الله فحلل ما حللوه ، وحرم ما حرموه عليه (٢)"

الذين يقولون بألوهية عيسى عليه السلام هم مكذبون على لسانه ، حيث يتبرأ من مقالتهم ، ويدعوهم الى التوحيد وعدم الشرك بالله ،

قال تعالى :

( وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم (٣) )

" والحال أن قد قال المسيح هذه المقالة ، فكيف يدعون الالهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم (٤)"

ومن أغرب عقائدهم قولهم بالتثليث ، وهو الأب ، والابن والروح القدس (٥) ، فجعلوا الواحد ثلاثة ، " وهو كلام معلوم البطلان ولا ترى فى الدنيا مقالة أشد فسادا ، ولا أظهر بطلانا من مقالة النصارى (٦) ،

وان اعتقادهم هذا قد تحير فيه علماؤهم واختبطوا اختباطا ، " فتارة يوصف بأنه ابن الانسان ، وتارة بأنه ابن الله ، وأخرى بأنه ابن الرب ، وهذا تناقض ظاهر ، وتلاعب بالدين (٧) ،

ويستدل القنوجى على فساد قولهم وبطلانه : بعدة آيات ،

---

١ - التوبة : ٣١
٢ - الدين ١/٢٢
٣ - المائدة : ٧٢
٤ - فتح البيان ٣/٦٨
٥ - الكاثوليك والبروتستانت يعتقدون أن الآلهة ثلاثة ، البرهان ص : ٥٨
٦ - الدين ١/٢٥ ، انظر اظهار الحق ١/٥٩٠
٧ - الدين ١/٢٤

قال تعالى :

( انتهوا خيرا لكم (١) ) اى عن التثليث " انما الله اله واحد (٢)" لا شريك له ، ولا صاحبة له ولا ولد ، سبحانه أن يكون له ولد ، لأن الولد جزء من الأب ،

وقال ايضا :

( وما من اله الا الله (٣) )

" فيه رد على من قال بالتثليث ، وبيان التوحيد ، أى ليس فى الوجود اله لا ثانى له ولا شريك له ولا ولد له ، ولا صاحبة له الا الله سبحانه (٤) ،

وقال ايضا :

( وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل (٥) ) ،

( ذلك قولهم ) الاشارة الى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة ، ووجه قوله ( بأفواههم ) مع العلم بأن القول لا يكون الا بالفم ، بأن هذا القول كما كان ساذجا ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى لا معنى لها ، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها الا كونها خارجة من الأفواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها (٦) ،

وهذا القول الباطل بأنه " ابن الله " ورثوه خلفا عن سلف ، كما ذكر أقوالا مفسرا آية ( يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ) ،

---

١ - النساء : ١٧١
٢ - النساء : ١٧١
٣ - آل عمران : ٦٢
٤ - الدين ١/٢٢
٥ - التوبة : ٣٠
٦ - فتح البيان ٤/١١٤

الأول : أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم اللات والعزى ومنات بنات الله ،

الثانى : شابهوا قول من يقول من الكافرين ان الملائكة بنات الله ،

الثالث : أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيرا ابن الله والمسيح ابن الله (١)،

وأما قولهم بصلبه ، فلا سند لهم فى اثبات هذا ، بل هو من أباطيلهم ، وأكاذيبهم ، والحق أنه لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله اليه ، كما قال تعالى :

( وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم (٢) )

" اى ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب (٣)"

ثم قال :

( وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه (٤) )

وقال تعالى :

( اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى (٥) )

" ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخر أجلك الى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم (٦)"

---

١ - فتح البيان ١١٥/٤

٢ - النساء : ١٥٧

٣ - فتح البيان ٤٠٢/٢

٤ - النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

٥ - آل عمران : ٥٥

٦ - فتح البيان ٦٥/٢

تعقـــــيب :

قد بين الله تعالى في كتابه العزيز عن عيسى عليه السلام بأنه بشر ، وأن ما نسب اليه من أنه اله أو ابن الاله فهو برئ منه ، بل كان يدعو نفسه علـــى الدوام بابن الانسان ، (١) ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في الأناجيل اشارة الى شئ من ذلك ،

فقد جاء في الاية الثالثة من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا قـــول عيسى عليه السلام في خطاب الله هكذا :

( وهذه هي الحياة الأبدية ان يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته ) (٢)

ففيه صراحة واضحة أن الله واحد وعيسى عليه السلام رسوله فقط ،

وأقوال عيسى عليه السلام في اثبات الوحدانية لله تعالى وابطال التثليث كثيرة جدا ، كما ذكرها رحمة الله الهندى ، (٣)

ويجدر بنا ان نذكر ههنا موقف آريوس الصامد بمجمع نيقية الذى (٤) يعتبـــر المسيح مخلوقا لله ، وقد أدى هذا الى طرده ولعنه من حظيرة الكنيسة :

" ولقد كان مذهب آريوس مكتملا في مواده وأصوله منذ ظهوره ، وهو يقـــوم في أساسه على انكار اللاهوت في المسيح وتصوره انسانا محضا مهما عظيما " (٥)

ومن قبل القرآن والانجيل كانت التوراة شاهدة على ذلك ،

( اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنا رب واحد ، فتحب الرب الهك من كـل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك ، ولتكن هذه الكلمات التى أنــــا

---

١ - محمد الرسالة والرسول ص : ٦٦

٢ - اظهار الحق ٢ : ٢٥

٣ - " " ٢ : ٢٥ ، ٣٩

٤ـ انعقد هذا المجمع سنة ٣٢٥ م اثر تنازع عام حول شخصية المسيح ،أهو رسول من عند الله فقط أم له بالله صلة خاصة ؟ ، وبرغم اتفاق الأكثرية على رأى آريوس الـــذى يعتقد المسيح مخلوقا قرر المجمع ألوهية المسيح ولعن كل من يقاومها ،النصرانية ص: ١٤٦

٥ـ فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحين ٢ :٢٨٧

أوصيك بها اليوم على قلبك ، وقصها على أولادك ، وتكلم بها حين تجلس في بيتك ، وحين تمشي في الطريق ، وحين تنام ، وحين تقوم ، واربطها علامة على يدك ، ولتكن عصائب بين عينيك ، واكتبها على قوائم أبواب بيتك ، وعلى أبوابك ) (١)

ولو كانت ولادة عيسى بدون أب تجعله في عداد الألوهية ، لكان آدم أبو البشر أولى بأن يكون الها ، حيث ولد بدون أب وأم ، وهم يعلمون هذا ،

وأيضا احتياجه الى تناول الطعام احتياج الحيوان يخرجه عن أن يكون الها ،

وكذلك اجراء بعض المعجزات التي تتحير فيها العقول على يديه ، لا يدل على أنه اله ، بل هي من عمل الله أظهرها على يديه ، والا لكان كل الأنبياء الهة ، لأنهم قد كانت لهم معجزات لا تكون الا من اله ، ولو كان احياء الميت دليل ألوهية من جرى على يديه فالمسيح ليس هو الوحيد في هذا ، فعلاوة على عصا موسى نرى الطير قد رجعت اليها الحياة على يد ابراهيم ، وحمار عزير ، وعزير نفسه قد رجعت اليهما الحياة بعد مائة سنة ،

انه لو عقل المسيحيون لعرفوا أنه ملك الله يتصرف فيه كيف يشاء ، فكل ما نراه معجزة عند التأمل نعرف أنه ليس شيئا كبيرا بالنسبة لنشأة الكون نفسه ، فأي عاقل يعترف بأن الله هو الذي أنشأ الكون ثم بعد ذلك ينكص على عقبيه ويعبد غير الله حين يرى شيئا قد جرى بقدرة الله على يد ذلك الشخص ، انه الشيطان يصرف الانسان عن الحق الى الباطل ، فهل يحذر الانسان من الشيطان؟،

وكذلك ما يقولون به من صلب عيسى عليه السلام :

---

١ - سفر التثنية ٦ : ٤ ، أقانيم النصارى ص : ١٢

فهى فكرة خاطئة بنيت على خطأ ، فكانت النتيجة خطأ ووهما وضلالا ، عاش عليه المسيحيون الى الآن ،

لقد بنيت قضية الصلب عندهم على أن عيسى صلب ليتحمل الآلام عن البشرية التى حلت عليها اللعنة بسبب خطيئة آدم ،

والانسان يقف مشدوها من هذه العقول التى قبلت هذا الرأى ،

آدم أخطأ فما ذنب أولاده ، وعلى فرض أن الله حمل أولاد آدم ذنب أبيهم ، فما ذنب عيسى حتى يتحمل هذه الآلام ،

ان الله حينما يريد أن يغفر لا يحتاج الى ايلام أحد ، ليكون هذا الغفران ،

ولذلك يأتى القرآن الكريم ليبين لهم ما وقعوا فيه من أخطاء حين قالوا بالصلب ، وقبل أن نورد آيات القرآن الكريم فى هذا ، نورد شهادة مسيحى موجود حتى الآن ، هو الدكتور نظمى لوقا الذى يقول عن المسيحية المبدلة ، وكيف حملت البشرية وزر خطيئة آدم ، ثم كيف كان الاسلام رحمة للبشرية حيث بين أن آدم حين أخطأ توجه الى الله بالتوبة ، فتاب عليه ، يقول فى ذلك :

" أما الانسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم ، ذلك الوزر الذى اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثة ، لابد لها من كفارة وفداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشرى كافة . . . . . . فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ، وتطمئنهم الى العدالة التى لا تأخذ البرئ بالمجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد ، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة ،

ويحسم القرآن هذا الأمر ، حين يتعرض لقصة آدم ، وما يروى فيها من

أكل الثمرة المحرمة فيقول في سورة طه (١) : ( وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ) ويقول في سورة البقرة (٢) : ( فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم ) (٣)

والقرآن يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته ، (المسيح) بل أنقذه قبل أن تصل اليه الأيادي ،

قال تعالى :

( وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم (٤) ) ،

ويزداد الأمر يقينا عندما نقلب أوراق الأناجيل ، حيث تذكر نجاته من كل المكر والمحاولات التي بذلها اليهود لقتله ،

كما جاء في يوحنا ، ٧ : ٣٢ - ٣٤

" حدث ذات مرة في احدى محاولات اصطياده أن أرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداما ليمسكوه ،

فقال لهم يسوع :"أنا معكم زمانا يسيرا بعد ، ثم أمضي الى الذي أرسلني ، ستطلبوني ولا تجدوني حيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا (٥)"

هذا النص يدل دلالة واضحة على أن الله رفعه ، ولا شك في أنه في السماء حيث يعجز اليهود عن البلوغ اليه ، بالاضافة الى عجزهم عن تحديد المكان الذي أشار اليه في حديثه هذا ،

هذا ، وقد وجدت جماعة أخرى تقول : ان المسيح لم يمت على الصليب، بل أنزل حيا ، واليه مال الفيلسوف الألماني " فنتيوريني " في بداية القرن التاسع عشر ، حيث خلص من دراسة لما قيل عن الصلب والدفن الى أن :

---

١ - الآية : ١٢٢
٢ - الآية : ٣٧
٣ - محمد الرسالة والرسول ص : ٧٥
٤ - النساء : ١٥٧
٥ - " المسيح في مصادر العقائد المسيحية " ص : ٢٠٧

" يسوع قد أغمى عليه فقط ، ثم أفاق فيما بعد نتيجة لبرودة القبر المنحوت في الصخرة (١)"

وهذه العقيدة - أنه لم يقتل - كانت شائعة بين أوساط المسيحيين ، التى اضطر بها مؤلفوا الأناجيل إلى ذكرها ، كما يقول أحمد عبد الوهاب :

" ولا شك أن قوة تلك الجماعات وذيوع معتقداتها فى نجاة المسيح من القتل ، كانت هى السبب الرئيسى الذى منع كتبة الأناجيل من تجاهلها ، واضطرهم الى الرد عليها بما يتفق وتعاليم بولس التى سطرها فى رسائله قبل أن يكتب أقدم الأناجيل بأكثر من ١٥ عاما ، تلك التعاليم التى لم تعرف فى المسيحية شيئا سوى الصلب (٢)"

والداعى للصلب كما يقولون باطل ، لأنهم يرون أنه صلب لأجل خطيئة ارتكبها أبو البشر ، فالقرآن يفند هذا الزعم ، بل آدم تاب واستغفر ، وعلى فرض أنه لم يتب ، فالانسان لا يتحمل الا نتيجة عمله ، كما قال تعالى :

( لا تزر وازرة وزر أخرى ) (٣)

---

١ - المرجع المذكور ص : ٢٧٤

٢ - المذكور ص : ٢٧٤ وانظر " القرآن الكريم والتوراه والانجيل والعلم ص : ١٢٣ وما بعدها .

٣ - الأنعام : ١٦٤

## عبادة الكواكب وابطالها :

ثم يتوجه القنوجي - رحمه الله - تجاه من يعبدون الكواكب والشمس والقمر اعتقادا منهم أن فيها قوة الهداية والرشاد والنفع والضر ،

واعتقدوا ايضا أن نزول المطر بالنوء (١) ، كما روى عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله وآله وسلم صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : قال أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب" (٢)

فالقنوجي يفند هذه المزاعم الفاسدة التي يعتقدها العرب ، ويبين أن هذه المعبودات حادثة وصفة الحدوث تجعلها في جملة المخلوقات التي خلقها الله ، لا تصلح أن تكون مؤثرة في الأشياء ،

ويستدل على هذا بعدة آيات :

قال تعالى :

( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ) (٣)

( قال هذا ربى ) أراد قيام الحجة على قومه اى ابراهيم عليه السلام - كالحاكي لما هو عندهم ، وما يعتقدونه لأجل الزامهم ، ( فلما أفل قال لا أحب الآفلين ) يعنى لا أحب ربا يغيب ويطلع ، فان الغروب تغير من حال الى حال وهو دليل الحدوث فلم ينجع فيهم ذلك "

---

١ - واحد الأنواء وهى منازل القمر ، شرح مسلم ٢ : ٦١
٢ - مسلم ١ : ٨٤ ، البخارى ٧ : ٤٣٩
٣ - الأنعام : ٧٧

وان الهداية والرشاد والتوفيق قاصرة على الله تعالى ، ولا تكون في يد غيره ، قال تعالى :

( فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ) (١)

" في الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى ، لأن ابراهيم عليه السلام أضاف الهداية اليه سبحانه وتعالى ، ( لأكونن من القوم الضالين ) الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير ،

وأخيرا تبرأ ابراهيم عليه السلام عن عبادة هذه المخلوقات وأنها شرك ،

( فلما رأ الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برئ مما تشركون ) (٢)

" أى من الأشياء التى تجعلونها شركاء لله وتعبدونها من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة الى محدث ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر ، مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها " (٣)

هذا وبين أن وظيفة النجوم ثلاثة كما ورد في الحديث :

" انما جعل الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها " (٤)

وان الشمس والقمر خلقها الله لأعمال محددة وهى معرفة الزمن والجهة ، قال تعالى :

( وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) (٥)

---

١ - الأنعام : ٧٨
٢ - الأنعام : ٧٩
٣ - فتح البيان ٣ : ١٨٩
٤ - البخارى ٦ : ٢٩٥
٥ - النحل : ١٢

" أى مذللات مقهورات ( بأمره ) تعالى تجرى على نمط متحد ، يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان ،ولا تصرف لها فى نفسها فضلا عن غيرها ،

وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أنه هذه النجوم هى الفعالة المتصرفة فى العالم السفلى ، فأخبر الله سبحانه أنها مذللات تحت قهره وارادته " ( ١ )

وقال ايضا :

( وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ) ( ٢ )

" ومعنى دائبين : يجريان دائما فى اصلاح ما يصلحانه من النبات والحيوان، وازالة الظلمة ، لأن الشمس سلطان النهار ، وبها يعرف فصول السنة ، والقمر سلطان الليل ، وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده " ( ٣ )

فهذه الآيات تصرح أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقات تحت سلطان الله تعالى ، وانما أوجدها لمصالح العباد ، وسخرها لهم ، فكيف ينبغى السجود لها مع كونها حادثة ،

قال تعالى :

( من آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم أياه تعبدون ( ٤ ) )

" هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وانما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدواالليل والنهار للايذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجود يـ

---

١ - فتح البيان ٥/٢٢٢
٢ - ابراهيم : ٣٢
٣ - فتح البيان ٥/١٤٦
٤ - حم السجدة : ٣٧

لهما ، بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الأعراض التى لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر فى نظم الكل فى سلك آياته ، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر ، وأمرهم أن يسجدوا لله عز وجل ، لأنهما مخلوقان من مخلوقاته وان كثرت منافعهما ، فلا يصح ان يكونا شريكين له فى ألوهيته " (١)

وهذه العبادة التى جاءوا بها انما هى نتيجة لا طاعة الشيطان ، فصاروا مطيعين لها ، منكرين اختصاص الله تعالى الذى هو خالقنا الحقيقى بالعبادة ،

قال تعالى :

( وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ) (٢)

" اى يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه ، قيل كانوا مجوسا ، قيل : زنادقة ، ( وزين لهم الشيطان أعمالهم ) التى يعملونها وهى عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر ، ( فصدهم عن السبيل ) اى صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح وهو الايمان بالله وحده ) (٣)

---

١ - فتح البيان ٨ : ٣٣٦

٢ - النمل : ٢٤

٣ - فتح البيان ٧ : ٨٤

تعقـــــيب :

ان الانسان عند ما يترك الدين الالهى فانما ينحط بنفسه ، قال تعالى :

( ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ) (١)

ولما كان الانسان يشعر دائما بالحاجة والضعف فانه - عند ما يترك دين ربه - يركن الى الأشياء التى يظن أن فيها نفعه أو ضرره ، فيعبدها طمعا أو خوفا ،

ومن هنا اتجه البعض الى الكواكب يعبدها لأنه وجد فيها هذه المنافع ، كما اتجه البعض الى الأصنام ،

ولو اتبع الانسان شريعة ربه لانتقل من الكواكب الى خالقها ، ولذلك يناديه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

( لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون ) (٢)

يقول ابن تيميه - رحمه الله - فى ضمن تفسيره قوله تعالى :

( لا أحب الآفلين ) (٣)

" والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ، ويتخذونها أوثانا يكونون فى وقت البزوغ طالبين سائلين ، وفى وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم ، فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة ، ولا ينتفعون اذ ذاك. بعبادة ،

---

١ - الحج : ٣١

٢ - حم السجدة : ٣٧

٣ - الأنعام : ٧٧

فبين ما فى الآلهة التى تعبد من دون الله من النقص ، وبين ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق ، الفاطر ، العليم ، السميع ، البصير ، الهادى ، الرازق ، المحى المميت" (١)

نرى ههنا فرقا شاسعا بين تفسير ابن تيمية لهذه الاية ، وبين تفسير القنوجى لها ، حيث نرى موافقة القنوجى للمتكلمين الذين سلكوا فى الاستدلال على وجود الله طريق حدوث العالم ،

بينما نرى ان ابن تيمية يذهب الى بطلان هذه الطريقة ، وأنها ليست طريقة الرسل عليهم السلام ولا طريقة أتباعهم ، يقول :

" فهذه الطريقة مما يعلم بالاضطرار أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها الى الاقرار بالخالق ونبوة أنبيائه ، ولهذا اعترف حذاق أهل الكلام - كالأشعرى وغيره - بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الأمة وائمتها ، وذكروا أنها محرمة عندهم ، بل المحققون على أنها طريقة باطلة ، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعى بها مطلقا ، ولهذا تجد من اعتمد عليها فى أصول دينه فأحد الأمرين لازم له ،

اما أن يطلع على ضعفها ، ويقابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم ، فتتكافأ عنده الأدلة ، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة ، كما هو حال طوائف منهم ،

واما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد فى الشرع والعقل ، كما التزم جهم لأجلها فناء الجنة والنار ، والتزم لأجلها أبو الهذيل انقطاع حركات أهل الجنة ، والتزم قوم لأجلها - كالأشعرى وغيره - أن الماء والهواء والتراب والنار له طعم ولون وريح ونحو ذلك ، والتزم قوم لأجلها ولأجل غيرها أن

---

١ - مجموع فتاوى ١٦ : ٢٠٧

جميع الأعراض كالطعم واللون وغيرها لا يجوز بقاؤهما بحال ، لأنهم احتاجوا الى جواب النقض الوارد عليهم لما أثبتوا الصفات لله ، مع الاستدلال على حدوث الأجسام بصفاتها ، فقالوا صفات الأجسام أعراض ، أى أنها تعرض فتزول ، فلا تبقى بحال ، بخلاف صفات الله فانها باقية " (١)

وأى عاقل لو تدبر لعلم أن السجود لا يجوز الا للخالق الحقيقى ، وبهذا يكون عبدا مخلصا ،

وأما غيره من المخلوق سواء العلوى كالشمس والقمر أو السفلى كالشجر والحجر ، فلا يسجد له مهما عظم ، فمن سجد له فهو ظالم ،

كما روى عن قتادة قال :

" انما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء وجعلها علامات يهتدى بها ، وجعلها رجوما للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به ، وان ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من اعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمرى ما من نجم الا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشئ من هذا الغيب ، ولو أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ » ثم يقول الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ :

« فتأمل ما أنكره هذا الامام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين ، ومازال الشر يزداد فى كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار ، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار ، فمقل ومستكثر ، وعز فى الناس من ينكره ،

---

١ - درء تعارض العقل والنقل ١ : ٣٩

وعظمت المصيبة به فى الدين ، فانا لله وانا اليه راجعون " (١)

والى هذه الوظائف الثلاث أشار عز وجل فى كتابه الكريم ، حيث قال :

( ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ) (٢)

وبقوله :

( وعلامات وبالنجم هم يهتدون ) (٣)

فمن قال غير هذا فهو مكذب للقرآن وجاحد به ، وهو عند الله من منكريه ، وعابد للكواكب ،

---

١ - فتح الجميد : ٣١٧

٢ - الملك : ٥

٣ - النحل : ١٦

العادات الشركية فى العصر الحاضر وابطالها :

قد تقدم الكلام عن الشرك القديم ، والآن يجدر بنا أن نذكر بعض العادات السيئة التى ورثها بعض المسلمين اليوم تقليدا للآباء ، وهذه العادات أو الأعمال التى يظنونها من أعظم القربات وأفضل الطاعات وهى من وادى الشرك والكفر ، كدعاء الميت والذبح ، والنذر له وغير ذلك من الأمور التى لا تمت الى الشريعة بأدنى صلة .

والقنوجى رحمه الله من أشد الناس تنديدا وتشنيعا بالقبوريين ، وسبب ذلك يرجع الى أنه قد باشرهم ورأى خرافاتهم فى زمنه .

ومن جملة عاداتهم القبيحة أنهم يطلبون العون والمدد من الميت ، ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب ، ويطلب منه ازالة ضره أو جلب نفعه .

يقول القنوجى : " فتفكر - رحمك الله وايانا - فيما أحدثه الناس المشركون القاسطون من عبادة غير الله فى البر والبحر .

فيستمدون ويستغيثون بالشيخ " عبد القادر الجيلانى " والسيد "معين الدين الجشتى " و " نظام الأولياء " وقطب الكاكى "وأمثالهم من الصلحاء الأتقياء أن ينجوهم من شدائد هذه الدار الفانية .

فيقال لهذا الجاهل : اذا كنت تعرف أن الاله هو المعبود ، وتعرف أن الدعاء - مثلا - هو العبادة فكيف تدعو مخلوقا غائبا ميتا ، لا يعلم متى يبعث وماذا يفعل به ، وتترك الها حاضرا ، ناظرا ، قديرا ، نافعا ، ضارا ، ؟

فيقول هذا المشرك : ان الامر بيد الله ، ولكن هذا الصالح يشفع لى وتنفعنى شفاعته وجاهه :

ويظن أن هذا يسلمه من الشرك .

فيقال له : ان المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحل دماءهم وأموالهم ، كلهم يقرون بذلك ويعتقدون أن الله هو الذى يدبر الأمر ويرب الخلق ،

....... وقال - فيمن اعتقد فى عيسى عليه السلام - :

( يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ) (١)

فاذا كان " عيسى " من أولى العزم من الرسل قيل فيه هذا ، فكيف بآحاد الأولياء من هذه الأمة الاسلامية أن يملكوا لعابديه ضرا أو نفعا " (٢)

والشرك الذى تسرب الى المسلمين فى العصور الأخيرة أغلظ من شرك الجاهلية ، لأنهم يتركون معبوداتهم فى الشدائد ويخلصون لله تعالى كما قال تعالى :

( واذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ) (٣)

" وأنت ترى المشركين المدعين للايمان من المسلمين ، وفيهم من يدعى أنه من أهل العلم والفضل ، وفيه الصلاح والزهد والاجتهاد فى العبادة ، اذا مسه الضرر وأهمه أمر من أمور الدنيا ، قام يستغيث بغير الله من الأولياء كـ " معروف الكرخى " و " الشيخ عبد القادر الجيلانى " و " سالار رومسدار " ونحوهم ......

وأشنع وأفظع وأقبح وأعظم جرما وأطم ضلالة أنهم يستغيثون بالطواغيت ، والأجداث ، وأهل القبور ، والمردة من الجن والشياطين ، ويذبحون لهم ، وينذرون لهم ، ويسافرون الى أنصابهم ، ويفزعون الى أحبارهم ورهبانهم ، تقليدا فى الفروع والأصول المبنية على شفا جرف هار ، فانا لله وانا اليه راجعون ،

---

١ - النساء : ١٧١
٢ - الدين ١/١٩١ ، ملاك السعادة ص : ١٤
٣ - العنكبوت : ٦٥

اللهم توفنا مسلمين ، والحقنا بالصالحين ، ولا تشركنا يوم الدين مع المشركين " (١)

والاستعانة بالأموات هو عمل من أعمال اليهود والنصارى لأن اعتقاد أن الأولياء يشفعون لهم فى الدنيا كاعتقادهم فى الأحبار والرهبان ،

يقول القنوجى : " من استغاث بالأموات زعما منه أنهم يشفعون له فى الدنيا فقد سلك سبيل اليهود والنصارى ،

فاذا قال قائل : أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعا لى ، فهو من جنس النصارى والأحبار والرهبان ،

والمؤمن من يرجو ربه ويخافه ، ويدعوه مخلصا له الدين ،

ومن حق شيخه أن يدعو له ، ويترحم عليه ، فان أعظم الخلق قدرا ، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره ، وأطوع الناس له ،

ولم يكن يأمر أحدا منهم ـ عند الفزع والخوف ـ أن يقول يا سيدى يا رسول الله ، ولم يكونوا يفعلون ذلك فى حياته ولا بعد مماته ، بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم " (٢)

ولم يقتصر القبوريون على طلب العون فقط ، بل أتوا بأعمال وأفعال لا تتصور فى حق المخلوق ، فبدأوا يذبحون وينذرون ويسجدون له ويطوفون حول القبر ، ويتذللون له اجلالا له ،

يقول : " فلا ينبغى أن يؤتى بمثل هذه الأفعال فى تعظيم من دون الله ، ولا مع قبره وضريحه وأنصابه ـ فيقصده من أقصى أمد ، ويسافر اليه فى عناء وكلفة ، ولباس رث ، وصورة هى تفث (٣) وشعث ،

---

١ ـ الدين ١/١٨٦

٢ ـ الدين ٤/٢٦

٣ ـ التفث فى المناسك : ما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس والعانة وأشباه ذلك ، الصحاح للجوهرى ( تفث )

فيرد هناك ويذبح حيوانا ، أو ينذر له نذرا ، ويطوف بقبره أو مكانه ويتأدب لواديه ، ولا يصطاد صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه ونحوها من الأفعال - أو يتوقع منه نفعا فى الدنيا ، أو فى الدين .

فان هذا كله شرك يجب اجتنابه ، لأن هذه المعاملة لا تليق الا بالله ، وليس هذا الشأن لأحد من المخلوق حتى يعامل ذلك به " (١)

والتوحيد لا يتم الا اذا كان الدعاء لله ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى ، ويجلب الخير ، ويدفع الشر ، فمن دعا غير الله فهو مخالف للتوحيد ، الذى هو أصل الدين .

" واذا تقرر هذا فلا شك أن من اعتقد فى ميت من الأموات ، أوحي من الأحياء أنه يضره ، أو ينفعه اما استقلالا ، أو مع الله تعالى ، ونـاداه ، أو توجه اليه ، أو استغاث به فى أمر من الأمور ، التى لا يقدر عليها المخلوق ، فلم يخلص التوحيد لله ، ولا أفرده بالعبادة ، اذ الدعاء بطلب وصول الخير اليه ، ودفع الضر عنه ، هو نوع من أنواع العبادة " (٢)

هذه الأعمال التى يأتى بها الجهال ، من الدعاء ، والاستعانة ، والنذر ، والذبح ، وتقبيل القبر ، وطوافه ، أو قوله يا سيدى اغثنى ، وارزقنى ، كفر لا شك فيه .

يقول نقلا عن ابن تيمية : " ان من دعا ميتا ، وان كان من الخلفاء الراشدين ، فهو كافر ، وأن من شك فى كفره فهو كافر ، وقال ابو الوفا ابن عقيل فى الفنون : لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع الى تعظيم أوضاع وضعوها فسهلت عليهم اذ لم يدخلوا بها تحت

---

١ - الدين ٢ : ٥٨

٢ - الدين ٤ / ٦٩

أمر غيرهم ، وهم - عندى - كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها ، يا مولاى ، افعل لى كذا وكذا ، والقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى "

ويقول ايضا مستشهدا بكلام ابن القيم (١) :

" وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين الى أن صنف بعض غلاتهم كتابا سماه " مناسك المشاهد " ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الاسلام ، ودخول فى دين عباد الأصنام " (٢)

---

١ - اغاثة اللهفان ١ : ٢١٦

٢ - الدين ٤/٩٧

تعقـــــب :

ان رسل الله جميعا من أولهم الى آخرهم بعثوا ليدعوا العباد الى توحيد الله تعالى ، وذلك لا يتحقق الا بتوحيد عبادة الله ، وعبادة الله هى أصل الدين وأساسه ، وهو التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ،كما قال تعالى : "ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) (١) وقال أيضا : ( وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون (٢) ) (٣)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد وينهى عن الشرك ، ويعلمه أمته ، كما جاء فى الحديث : "عنه صلى الله عليه وسلم عند موته أنه كان يقول : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " (٤)

وعن جندب بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن ذلك " (٥)

وكذلك ينهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله ،لأن الحلف بغير الله يخرج الحالف عن دائرة الاسلام كما نص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : " من حلف بغير الله فقد أشرك (٦)" (٧)

---

١ - النحل : ٣٦
٢ - الانبياء : ٢٥
٣ - انظر تطهير الاعتقاد ص : ١٢
٤ - البخارى ٣ : ٢٠٠ ، مسلم ١ : ٣٧٧
٥ - مسلم ١ : ٣٧٧
٦ - الحديث رواه الترمذى وقال : حديث حسن ٤ : ١١٠ ، والحاكم فى المستدرك ٤ : ٢٩٧ ، والدارمى ٢ : ١٨٥ ، والبيهقى ١٠ : ٢٩ ، وابن حبان ، موارد الظمآن ص : ٢٨٦ ، وصححه الألبانى انظر ارواء الغليل رقم ٢٥٦١ ، والصحيحة ٢٠٤٢ ،وصحيح الجامع ٦٠٨٠ ،
٧ - انظر الدر النضيد ص : ١٠

وقد عمت البلوى فى هذا الزمان ، أننا لا نجد بلدة من البلاد الا فيها قبور يعظمونها وينذرون لها ويطوفون حولها ، ويلقون عليها الورود والرياحين ، ويوقدون الشموع والأطياب ، ويجعلون لزيارتها مواسم مخصوصة ، ويزدحمون عليها من كل جوانب ،

وسبب هذا الشرك انما هو تعظيم الموتى ، اعتقادا منهم أنهم وسائط بين الله والعباد ، واتخاذهم الوسائط لا يتفق مع توحيد الله تبارك وتعالى ،

فهذه المفسدة التى حسم الرسول صلى الله عليه وسلم مادتها ، حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقا ، وان لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته (١)

لو كان اتخاذ القبور مساجد جائزا ، لما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم آخر كلامه : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " وهو يسد أى ثغرة فى هذه الناحية ، مع أنه أفضل البشر وأكرم الخلق وسيد ولد آدم نهى أمته عن الغلو فى شأنه كالنصارى فى شأن عيسى عليه السلام فقال :

" لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله " (٢)

وقال : " اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد " (٣)

انظر كيف يحذر النبى صلى الله عليه وسلم أمته من الشرك تحقيقا للتوحيد الذى أمر الله به ، (٤)

ولما أمر الله نبيه بانذار قرابته بقوله : ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) (٥)

---

١ - اقتضاء صراط المستقيم ص : ٣٣٤
٢ - رواه البخارى ٦ : ٤٧٨
٣ - رواه أحمد ، وقال أحمد شاكر : صحيح اسناده رقم : ٧٣٥٢ ، وابن سعد ٢ : ٢٤١ ، والحميدى رقم ١٠٢٥ ، وابو نعيم فى الحلية ٦ : ٢٨٣ ، والمفضل الجندى فى فضائل المدينة ص : ٣٩ ، وذكره الألبانى وقال : سنده صحيح ، تحذير الساجد ص : ١٨
٤ - انظر التوسل والوسيلة ص : ١٣٨
٥ - الشعراء : ٢١٤

فقام داعيا لهم ومخاطبا لكل واحد منهم قائلا يا فلان بن فلان لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فلانة بنت فلان لا أغنى عنك من الله شيئا يا بنى فلان لا أغنى عنكم من الله شيئا " (١)

فانظر رحمك الله تعالى ما وقع من كثير من هذه الأمة من الغلو المنهى عنه المخالف لما فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يقول صاحب البردة رحمه الله تعالى :

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به    سواك عند حلول الحادث العمم

فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وغفل عن ذكر ربه ورب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انا لله وانا اليه راجعون " (٢) أين ذهبت العقول ، ( ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ) (٣)

والعاكفون على القبور ، لا يحضرون جمعة ولا جماعة ، ولا يكتسبون حلالا ولا يبالون بأوامر الله ونواهيه ، تراهم يركعون على القبور ، ويستمدون من الذين صاروا تحت أطباق الثرى منذ قرون ، ( أولئك كالأنعام بل هم أضل ) (٤)

---

١ - البخارى ٥ : ٣٨٢
٢ - الدر النضيد ص : ٢٦
٣ - الاعراف : ١٩٤
٤ - " : ١٧٩

# الفصل الثالث

## صفات الله عز وجل

تمهيد

المبحث الأول : أقسام الصفات الالهية

المبحث الثاني : اثبات الصفات الالهية

المبحث الثالث : صفة الكلام

المبحث الرابع : صفة الاستواء

المبحث الخامس : صفة اليد

المبحث السادس : الرؤية

تمهيـــــــد :

كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم موضحا ما هو المطلوب من المسلم أن يعتقده فيما يتعلق بالله وصفاته ، وكان الرسول يبينهـــــــا للصحابة ، فيتقبلون ذلك ويعتقدونه بصفاء فى العقيدة مع فهم مدلـــــولات الألفاظ ،

وعاش أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة ، رسخت فـــى قلوبهم ، وظلت فى نقائها وصفائها ، ولم يؤثر عنهم تنازع فى مسألة من مسائـل الصفات ولا الأفعال ، ولم يفرقوا بين كون الصفات ذاتية والأخرى فعلية ، بـل أثبتوها كما وردت فى الكتاب والسنة وأطلقوها مع التزام نفى مماثلته للخلــق ، وتنزيهه من كل عيب ونقص ، وهذا هو الصراط المستقيم الذى هو أحق أن يتبع، كما قال القنوجى - رحمه الله - : "وقد جمع سبحانه وتعالى فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والاثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء بــــه المرسلون ، فانه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبييـــن والصديقين والشهداء والصالحين ".(١)

ظل الأمر نقيا صافيا الى أن ترجمت كتب المنطق والفلسفة اليونانية التـــى تسببت فى ظهور الجدل فى العقيدة وبخاصة عند الجهمية والمعتزلة الذيـــن أسسوا قواعد الخلاف فى المسائل العقدية ، فاشتد النزاع بين المذاهب.(٢)

ومن القضايا التى ثار النزاع حولها هى قضية الصفات بصفة عامة ، كالعلاقـــة بين الذات والصفات ، ثم أهى زائدة على الذات ؟ أم لا ، وغير ذلك ، وبقى النزاع فى هذه المسائل حتى عصر القنوجى ، ونظرا الى خطورة هذه المسائل

---

١ - قطف الثمر ص : ٢ ، انظر خبيئة الأكوان ص : ٤٣

٢ - لا شك أن النزاع العقدى بدأ مبكرا مع انتشار الاسلام فى بلاد كانـــت لها أديان أخرى ولكننا نقصد تأصيل الجدل حول العقيدة ،

وجد القنوجي أن الواجب يقتضي ـ دفاعا عن مذهب السلف ـ أن يفصل فـــي الموضوع ، خصوصا في صفة العلو ، والكلام والرؤية ، التي ثار الجدل حولهـا كثيرا بين السلف والفلاسفة ، والمعتزلة والأشعرية ،

كما يقول القنوجي : " والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل ، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الاسلامية ، كثر الكلام فيها ، وفي مسألة الاستواء ، وطـال خصوصا بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فلهم في ذلك تلك الفتـــن الكبرى والملاحم العظمى ومازالوا هكذا في عصر بعد عصر " (١)

هذا وقد وجدت من خلال البحث في الصفات ان القنوجي دافع عن مذهـب السلف ، مبينا شبه الخصم فيها ، ثم يوجه النقد اليهم مستعينا بكتاب اللـــه وسنة رسوله وبأقوال علماء السلف ،

---

١ ـ الانتقاد ص : ١٤
ان الخلاف لم يكن بين الحنابلة وغيرهم فقط ، بل كان الخلاف بين أهـــل السنة والجماعــة وغيرهم.

## المبحث الأول :

### أقسام الصفات الالهية :

قد قسم المثبتون من المتكلمين الصفات الى أربعة أقسام :

١ - الصفة النفسية :

والمراد بالصفة النفسية صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها ، (١) وهى الوجود ،

٢ - الصفات السلبية :

هى التى دلت على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى ، (٢) وهى خمس : القدم ، والبقاء ، وقيامه بنفسه ، ومخالفته للحوادث ، والوحدانية ،

٣ - صفات المعانى :

هى كل صفة يدل الوصف بها على معنى زائد على الذات ، وهى سبع : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ،

٤ - الصفات المعنوية :

والمراد بها الأحوال الواجبة للذات ما دامت المعانى قائمة بالذات ، (٣) وهى كونه تعالى حيا ، وعالما ، وقادرا ، ومريدا ، ومتكلما ، وسميعا ، وبصيرا ،

أما السلف فذهبوا فى تقسيم الصفات الى قسمين :

١ - صفات ذاتية : هى التى لا تنفك عن الذات ،

٢ - صفات فعلية : هى التى تتعلق بالمشيئة والارادة ،

---

١ - شرح جوهرة التوحيد : ٥٤ ، شرح أم البراهين ص : ٢٥

٢ - " " " : ٥٤ ، حاشية الدسوقى على أم البراهين : ٩٣ الشامل : ٣٠٨

٣ - الشامل : ٣٠٨ ، حاشية الصاوى على الخريدة البهية : ٥٩

كما يقول ابن تيميه : " لم يزل ربنا بكلامه وعلمه وقدرته وصفات ذاته واحدا لم يزل ولا يزال " (١) الى أن قال : " وصفه تعالى "بالصفات الفعلية" - مثل الخالق والرازق والباعث والوارث والمحيى والمميت - قديم عند أصحابنا وعامة أهل السنة " (٢)

ثم ان كلا منهما عقلية وخبرية ، حيث دل العقل على ثبوتها لله تعالى مع ورود السمع على ذلك ، اذن فهى عقلية شرعية ،

يقول ابن تيميه : " ان الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه الا وهو ثابت للرب تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبوت ذلك مستلزم نفى نقيضه ، فثبوت الحياة يستلزم نفى الموت ، وثبوت العلم يستلزم نفى الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفى العجز ، وأن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك " (٣)

وقال ايضا : " وقد اتفق النظار من مثبتة الصفات على أنه يعلم بالعقل عند المحققين أنه حى ، عليم ، قدير ، ويد ، وكذلك السمع والبصر والكلام يثبت بالعقل عند المحققين منهم ، بل وكذلك الحب والرضا والغضب يمكن اثباته بالعقل ، وكذلك علوه على المخلوقات ومباينته لها مما يعلم بالعقل كما أثبته بذلك الأئمة مثل أحمد بن حنبل وغيره " (٤)

أما القنوجى فهو من المؤيدين لما ذهب اليه السلف فى تقسيم الصفات الى ذاتية وفعلية ،

---

١ - مجموع فتاوى ٦ : ١٧٢
٢ - " " ٦ : ٢٦٨ ، انظر الفقه الأكبر ص : ٥٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص : ١٢٧ ، شرح الواسطية ص : ٨٩ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢ : ٢٩٦ ، الكواشف الجلية ص : ٣٥٨ ، القواعد المثلى ص : ٢٥
٣ - مجموع فتاوى ٦ : ٧١
٤ - " " ٣ : ٨٨

يقول : " متصفا بجميع صفات الكمال الذاتية منها والفعلية كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والارادة والتكوين والكلام والترزيق والتخليق وغير ذلك " (١)

المبحث الثانى :

اثبات الصفات الالهية :

قبل أن أبين موقف القنوجى من الصفات ، أرى من المناسب أن أذكر بالايجاز آراء الفرق الاسلامية فيها ، أهل السنة فى

ومن أبرز الفرق التى وقع النزاع بينها وبين الصفات هى : الجهمية ، والمعتزلة ، والفلاسفة ، والأشاعرة ،

أولا : الجهمية : (٢)

هم يرون أنه لا يجوز أن يوصف الله تعالى بوصف يمكن اطلاقه على غيره من المخلوق ، كما يقول البغدادى حاكيا مذهبهم :

" وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شئ أو حى أو عالم أو مريد ، وقال : لا أصفه بوصف يجوز اطلاقه على غيره كشئ وموجود ، وحى ، وعالم ، ومريد ، ونحو ذلك " (٣)

---

١ - الانتقاد ص : ٤

٢ - هم أتباع جهم بن صفوان مولى بنى راسب ، ويكنى بأبى محرز ، الضال المبتدع ، تلميذ جعد بن درهم ، وهو من أهل خراسان ، قتل بمرد سنة ١٢٨ ، انظر ميزان الاعتدال ١ : ٤٢٦ ، تاريخ الطبرى ٧ : ٣٣٠ ، الملل والنحل ١ : ٥٤

٣ - الفرق بين الفرق ص : ٢١١ ، وانظر مقالات الاسلاميين ١ : ٢٧٩ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص : ٦٨ ، البرهان فى معرفة عقائد الأديان ص : ١٧

## ثانيا : المعـــــتزلة : (١)

اتفقت المعتزلة على نفى صفات المعانى لله تعالى ، من الحياة والعلـــم والارادة والقدرة وغيرها ،

وما أثبتوا لله تعالى بأنه قادر ، عالم ، فهم مختلفون فى كيفية استحقاقــه سبحانه لهذه الصفات :

فقد راى الجبائىٌ وأبو الهذيل أن الله يستحق هذه الصفات لذاته ، فهو سبحانه عالم لذاته ، مريد لذاته ،

وأبو هاشم يذهب الى أن هذه الصفات أحوال وراء الذات ،

فهو عالم لذاته أى أنه ذو حالة هى صفة معلومة وراء كونه ذاتا موجـــودة ، وهى صفات لا موجودة ولا معدومة ،

وأبرز حجتهم على انكار زيادة الصفات على الذات أنها لو كانت زائدة علـى الذات فهى اما أن تكون حادثة فيلزم منه قيام الحوادث بذاته تعالى ، واما أن تكون قديمة فيلزم تعدد القدماء وهو محال ، (٢)

أما الصفات الخبريه فقد رأوا أن الأدلة التى قامت باثباتها ظنية ومخالفة لأدلة قطعية وهى الأدلة العقلية ،

كما يرون أن اتصافه تعالى بهذه الصفات يؤدى الى التشبيه والتجســـيم ، إذًا يجب تأويلها ، (٣)

---

١ - هم المنتسبون الى واصل بن عطاء ، وسموا بهذا الاسم لاعتزاله مجلس شيخه الحسن البصرى حينما سئل عن مرتكب الكبيرة ، فأجاب واصل أنـه فى منزلة بين المنزلتين ، انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٥٥ ، ٢٧٨ ، الخطط للمقريزى ٢ : ٣٤٥ ، فجر الاسلام ص : ٢٨٨ ،

٢ - انظر : شرح الأصول الخمسة : ١٨٢ ، ٢١٣ ، شرح المواقف ٨ : ٤٨ ، شرح المقاصد ٢ : ٧٦ ، نهاية الاقدام : ٢٠١ ،

٣ - شرح الأصول الخمسة : ٢٢٦ ، المختصر فى أصول الدين " ضمن رسائل العدل والتوحيد " ١ : ١٨٥

ثالثا : الفلاسفة :

ان الفلاسفة متفقون على نفي الصفات عن الله سبحانه بحجة أن اتصافه يلزم منه التركيب - والله تعالى واحد بسيط - والمركب يفتقر الى غيره ، فلا يكون واجبا بنفسه ، وأما الصفات الواردة فيزعمون أنها سلوب واضافات دون صفات اثبات ، فلا يستلزم الكثرة والتركيب ، ويصفون الله تعالى بأنه الموجود المطلق ، (١)

رابعا : الأشاعرة :

انهم يثبتون لله تعالى سبع صفات زائدة على الذات ، وهي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، (٢)

أما الصفات الخبرية :

فهم مختلفون في ذلك ،

فالمتقدمون منهم كالباقلاني (٣) ، والجويني (٤) في آخر حياته سلكوا مسلك السلف ، واثبتوا الصفات الخبرية من الاستواء والنزول وغير ذلك ،

اما المتأخرون من الاشاعرة فلا يثبتونها ، ويؤولون ما ورد فيها من النصوص ، وذلك يرجع - عندهم - الى سببين :

---

١ - انظر النجاة : ٢٥١ ، التدمرية : ٩ ، تهافت الفلاسفة : ١٧٢ ، تهافت التهافت ٢ : ٤٩٢

٢ - انظر شرح المواقف ٨ : ٤٩

٣ - انظر التمهيد : ٢٥٨

٤ - انظر العقيدة النظامية ص : ٣٢

أ ــ اثباتها يقتضى التشبيه والتركيب، [١]

ب ــ ان النصوص التى وردت فى اثباتها دلالتها ظنية ، تعارض الأدلة القطعية وهى الأدلة العقلية ، [٢]

وبعد أن عرضنا لمذاهب الفلاسفة والمتكلمين فى قضية الصفات الالهية نفيا واثباتا ، نبدأ بعرض اثبات القنوجي لصفات الله تعالى ، سواء فى ذلك الصفات الذاتية أو الصفات الفعلية ،

---

١ــ انظر شرح المقاصد ٢ : ١١٠ ، شرح المواقف ٨ : ١١٠ الاقتصاد ص : ٢٨

٢ــ انظر شرح المقاصد ٢ : ٦٧

وقد عرض القنوجي بالبحث لبعض الصفات الالهية ، حيث ذكر ما يدل على ثبوتها من النقل مع بيان شبه الخصم في ذلك وابطالها ، منها :

صفة العلم :

أثبت القنوجي - رحمه الله - صفة العلم لله تعالى ، مستدلا بالقرآن الكريم ، قال تعالى :

( وكان الله بكل شيء عليما ) (١)

وقال : ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) (٢) وغير ذلك من الايات ،

ثم دفع القنوجي وهم من زعم أن علم الله حادث ، لأن كون علمه حادثا يدل على جهله في الماضي ، وهذا نقص لا يليق بالله سبحانه ، وبجانب هذا أن الحدوث يستلزم قبول الزيادة والنقصان في علمه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ،

يقول : " عالم بعلمه الذي هو صفة أزلية تنكشف المعلومات عند تعلقها بها انكشافا تاما ، فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها ، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي لا بعلم لاحق يلزم منه جهل سابق ، فعلمه الأزلي الأبدي منزه عن قبول الزيادة والنقصان بخلاف علوم أرباب العرفان " (٣)

---

١ - الأحزاب : ٤٠
٢ - الملك : ١٤
٣ - الانتقاد ص : ٥

كما ناقش الفلاسفة القائلين بان الله لا يعلم الجزئيات ، وهذا المعنى يؤدى الى جهله ببعض الأشياء ، وهى صفة نقص لا تليق بالله تعالى ،

يقول : " يزعم الفلاسفة الضالة من أنه لا يعلم الجزئيات ، والدهرية على أنه لا يعلم ذاته ، والخائضون من أهل الكلام أنه لا يعلم من ذاته وصفاته الا ما يعلم هؤلاء ، (١) كيف والجهل بالبعض نقص وافتقار الى مخصص مع أن النصوص القطعية ناطقة بعموم العلم ( وهو بكل شىء عليم ) (٢) قد أحاط بكل شىء علما ) (٣) ( ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ) (٤) (٥) ،،

وأخيرا استدل بعدة آيات على أنه يعلم كل دقيق وجليل ، حتى حركات النملة فى ليل مظلم ، يقول : " عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات والموجودات والمعلومات والممكنات والمستحيلات ، محيط بما يجرى من تحت تخوم الأرضين الى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ويدرك حركة الذرة فى جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضماير وحركات الخواطر وخفيات السراير ، كما قال : ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) (٦) وقال : ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ) (٧) الى غير ذلك من الآيات وهى كثيرة " (٨)

---

١ - المعتزلة والأشعرية والماتريدية مجمعون على ان الله سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولكن الجدل هل يعلم بصفة زائدة على الذات أم لا ،
٢ - البقرة : ٢٩
٣ - الطلاق : ١٢
٤ - البقرة : ٢٥٥
٥ - الانتقاد ص : ٥
٦ - الملك : ١٤
٧ - الانعام : ٥٩
٨ - المذكور ص : ٥

تعقيــــــب :

نلاحظ من عرض القنوجي أنه تناول قضيتين مهمتين في صفة العلم ،

١ - أثبت أن علمه تعالى أزلي وليس بحادث كما يدعي الجهمية ، فنسبة الحدوث الى علمه تعالى فكرة تعتبر أس الضلال استنكرها علماء السلف وجميع الأمة الا من شذ ،

قال الامام أحمد : " وان قال ـ لك الجهمي ـ لله علم محدث كفر ، حين زعم أن الله كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علما فعلم " (١)

يقول ابن حزم : " من قال بحدوث العلم فانه قول عظيم جدا ، لأنه نص بأن الله تعالى لم يعلم شيئا حتى أحدث لنفسه علما ، واذا ثبت أن الله تعالى يعلم الان الأشياء فقد انتفى عنه الجهل بها يقينا ، فلو كان يوما من الدهر لا يعلم شيئا مما سيكون فقد ثبت له الجهل به ولا بد من هذا ضرورة ، واثبات الجهل لله تعالى كفر بلا خلاف " (٢)

٢ - انه رد على الفلاسفة في قولهم : ان الله لا يعلم الجزئيات ، كما رد عليهم قبله كثير من العلماء ،

يقول الغزالي تعقيبا على قولهم الفاسد : " وهذه قاعدة اعتقدوها ، واستأصلوا بها الشرائع بالكلية ، اذ مضمونها أن زيدا مثلا ، لو أطاع الله تعالى أو عصاه ، لم يكن الله عز وجل عالما بما يتجدد من

---

١ - الرد على الجهمية والزنادقة ص : ١٤٢

٢ - الفصل ٢/١٢٨ ، انظر أصول الدين ص : ٩٥ ، الابانة ص : ٤١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص : ١٤٧ ، الاقتصاد ص : ٦٤ ، الانصاف ص : ٣٦

أحواله ، لأنه لا يعرف زيدا بعينه ، فانه شخص ، وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن ، واذا لم يعرف الشخص ، لم يعرف أحواله وأفعاله ، بل لا يعرف كفر زيد ولا اسلامه ، وانما يعرف كفر الانسان واسلامه مطلقا كليا لا مخصوصا بالأشخاص" ( ١ )

---

١ - تهافت الفلاسفة ص : ٢٠٨

## صفة القدرة :

أثبت صفة القدرة لله تعالى بايراد عدة ايات كقوله تعالى : ( ان الله على كل شيء قدير ) (١) وقال تعالى : ( أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ) (٢)

والقدرة صفة أزلية له ، يقول : " قادر بقدرته التى هي صفته الأزلية السرمدية تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها "

وقدرته تعالى نافذة في جميع الأشياء ، والا فيلزم كونه عاجزا ، كما يزعم الفلاسفة والمعتزلة ، يقول القنوجى ردا عليهم : " قادر على جميع الممكنات، لا يخرج عن قدرته شيء ، لأن العجز عن البعض نقص وافتقار الى مخصص ، مع أن النصوص القطعية نطقت بشمول القدرة ، فهو على كل شيء قدير ، لا كما يزعم الفلاسفة أنه لا يقدر على أكثر من واحد (٣) ، والنظام على أنه لا يقدر على خلق الجهل والقبح ، (٤) والبلخى أنه لا يقدر على مثل مقدور العبد ، (٥) وعامة المعتزلة أنه لا يقدر على نفس مقدور العبد (٦) " (٧)

---

١ - البقرة : ٢٠

٢ - يس : ٨١

٣ - المواقف ص : ٢٨٣

٤ - الفرق ص : ١٣١ ، الملل والنحل ١ : ٦٧ ، المواقف ص : ٢٨٤

٥ - الملل والنحل ١ : ٩٧ ، الفرق ص : ١٨١ ، المواقف ص : ٢٨٤

٦ - الملل والنحل ١ : ٥٥

٧ - الانتقاد ص : د ، بغية الرائد ص : ١١

وسيأتى مزيد ايضاح لقدرته الله تعالى عند الكلام على القضاء والقدر.

تعقـــيب :

ان ما ذهب اليه القنوجي ـ رحمه الله ـ من اثبات القدرة لله تعالى ، وأن الاشياء كلها تحت قدرته ومشيئته ، هو نفس ما ذهب اليه السلف ، كما قال ابن تيمية : " مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شئ، وربه ومليكه ، لا رب غيره ولا خالق سواه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهـو على كل شئ قدير ، وبكل شئ عليم ، والعبد مأمور بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، منهى عن معصية الله ، ومعصية رسوله ، فان أطاع كان ذلك نعمة وان عصى كان مستحقا للذم والعقاب ، وكان لله عليه الحجة البالغة ، ولا حجة لأحد على الله تعالى ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته " (١)

وروى البخاري بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله يصنع كل صانع وصنعته " وتلا بعضهم عند ذلك ( والله خلقكم وما تعملون (٢) ) (٣)

---

١ ـ الفتاوى ٨/ ٦٣

٢ ـ الصافات : ٩٦

٣ ـ خلق أفعال العباد ص : ١٧

صفة الارادة :

اثبتها القنوجي مستدلا بالايات البنيات ، وبين أنها نوعان : ارادة كونية وارادة شرعية ، يقول : "وهي في كتاب الله تعالى نوعان :

ارادة قدرية كونية خلقية وهي المشيئة الشاملة بجميع الموجودات ،لقوله تعالى : ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ) (١)

وارادة دينية أمرية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضا كقوله تعالى : ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ) (٢)وأمثال ذلك "(٣)

والارادة صفة لله تعالى قديمة أزلية وليست بحادثة ، كما زعمت المعتزلة والكرامية (٤) ، فالقنوجي يرد عليهم مبينا أن هذا القول يؤدي الى أنه محل للحوادث ، يقول : " مريد بارادته القديمة ، وفي القدم تعلقت باحداث الحوادث في أوقاتها اللايقة بها على وفق سبق العلم الأزلي ، اذ لو كانت حادثة لصار محلا للحوادث (٥)" (٦)

كما ناقشهم في ادعائهم - بأن الكافر هو الذي اراد الكفر لا دخل لارادة الله سبحانه فيه - قائلا : ما من حركة أو سكون الا وهو كائن من ارادة الله تعالى ، حتى الكفر فقد اراده كونا وقدرا ، وان لم يرض به بل يبغضه ،

---

١ - الانعام : ١٢٥

٢ - البقرة : ١٨٥

٣ - الانتقاد ص : ٦ ، بغية الرائد ص : ١٣

٤ - أصول الدين ص : ١٠٣

٥ - القنوجي تابع في ذلك المتكلمين ،وقيام الحوادث بذاته تعالى جائز في مذهب السلف، حيث تقوم به سبحانه أفعاله المتجددة ،راجع تلبيس الجهمية ١ : ٢٠٣

٦ - الانتقاد ص : ٦

يقول : " مريد لجميع الكائنات مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت صغير أو كبير ، قليل أو كثير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، حلو أو مر ، ايمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان الا بارادته ووفق حكمته وطبق تقديره وحسب قضائه فى خليقته ، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ، لا يخرج عن ارادته لفتة بصر ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد كما يريد ، لا راد لأمره ، ولا معقب لما حكم فى العبيد ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته الا بمشيئته وارادته ، حتى لو اجتمع جميع الكائنات على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها مرة دون ارادته ومشيئته لما قدروا على ذلك ، بل ولا ارادوا خلاف ما هنالك ، كما قال ( وما تشاؤون الا أن يشاء الله )[١] فهو سبحانه لم يزل موصوفا بارادته مريدا فى الأزل ، وجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فيها كما أرادها من غير تقدم ولا تأخر وتبدل وتغير " (٢)

ثم اختتم الكلام قائلا بأن " الارادة والمشيئة شيء واحد فى حقه تعالى "(٣)

---

١ - الانسان : ٣٠

٢ - المرجع السابق ص : ٦

٣ - " " ص : ٦

تعقيب :

نرى فيما سبق من كلامه في صفة الارادة وتنويعها الى نوعين ، أنه ذهب مذهب السلف ،

يقول ابن تيمية : " ان الارادة في كتاب الله على نوعين :

أحدهما : الارادة الكونية ، وهى الارادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . . . . . .

وأما النوع الثاني : فهو الارادة الدينية الشرعية ، وهى محبة المراد ورضاه ، ومحبة أهله والرضا عنهم ، وجزاهم بالحسنى كما قال تعالى :" يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " (١)

وان الارادة صفة أزلية من صفات الذات المقدسة ، وهى قديمة النوع حادثة الآحاد ، كما يقول ابن تيمية : " انه (الله تعالى) لم يزل مريدا بارادات متعاقبة ، فنوع الارادة قديم ، وأما ارادة الشيء المعين فانما يريده في وقته " (٢)

ويقول الأشعرى في معرض رده على القدرية في قولهم : ان الارادة حادثة : " لا يجوز أن تكون ارادة الله محدثة مخلوقة ، لأن من لم يكن مريدا حتى أراد لحقه النقصان " (٣)

وأما ان الله مريد لجميع الأشياء حتى الكفر - أراده كونا وقدرا ولا يحبه ولا يأمر به - فهو أمر متفق عليه بين السلف ، يقول شارح الطحاوية : " أما أهل السنة فيقولون : ان الله وان كان يريد المعاصي قدرا ، فهو لا يحبها ولا

---

١ - رسالة مراتب الارادة ص : ٧٦ ضمن الرسائل الكبرى ، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص : ١١٦ ، شرح العقيدة الواسطية ص : ٤٣

٢ - مجموع فتاوى ١٦ : ٣٠٣

٣ - الابانة ص : ٤٤

يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها ، وهذا قول السلف قاطبة " ( ١ )

ويقول الاشعرى فى رده على المعتزلة فى قولهم : بان الكفر ليس من ارادة الله تعالى :

" يقال لهم : يستفاد من قولكم ان كثيرا مما شاءه ابليس أن يكون كان ، لأن الكفر أكثر من الايمان ، وأكثر ما شاءه ، فقد جعلتم مشيئة ابليس أنفذ من مشيئة رب العالمين جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، لأن أكثر ما شاء كان ، وأكثر ما كان قد شاءه ، وفى هذا ايجاب انكم قد جعلتم لابليس مرتبة فى المشيئة ليست لرب العالمين ، تعالى الله عز وجل عن قول الظالمين علوا كبيرا " ( ٢ )

---

١ ـ شرح العقيدة الطحاوية ص : ١١٦ ، وانظر الفتاوى ٨ : ١٨٧

٢ ـ الابانة ص : ٤٥

صفتا السمع والبصر :

ومن الصفات الأزلية القديمة التي أثبتها القنوجي صفتا السمع والبصر ، فهو يسمع المسموعات ويبصر المبصرات بسمعه وبصره القديم ، خلافا لمن أولهما بالعلم ،

يقول : " سميع للأصوات والحروف والكلمات بسمعه القديم الذى هو نعت له بالأزل ، بصير بالأشكال والألوان بإبصاره القديم الذى هو صفته الأزلية ، فلا يحدث له سمع بحدوث مسموع ولا بصر بحدوث مبصر ، فهو السميع البصير ، يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى غاية السر ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وان وق فى النظر ، لا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، ولا يشذ عن سمعه صوت ، بل يرى دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، فالسمع صفة تتعلق بالمسموعات والبصر صفة تتعلق بالمبصرات ، فيدرك بهما ادراكا تاما لا على سبيل التخييل والتوهم " (١)

هذا وقد ناقش القنوجي الذين يؤولونهما بالعلم (٢) ، قائلا انهما صفتان غير صفة العلم ، فارجاعهما الى العلم من باب التحريف ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يدل على عجز البارى تعالى بعد انتفائهما عنه ، يقول عن الشيخ محمد فاخر الاله آبادى : " ان السمع والبصر صفتان متغايرتان من العلم ، كما يشهد به تتبع القرآن الكريم ، فقد أورد العلم فى ذكر المعلومات والسمع فى بيان المسموعات والبصر فى بيان المبصرات ، وفى صورة ارجاع السميع والبصير الى العليم بالمسموعات والعليم بالمبصرات يلزم تحريف القرآن والحديث ، وأيضا من انتفى عنه السمع والبصر لا يقال له سميع وبصير ، فلا يخفى قباحة ذلك " (٣)

---

١ - الانتقاد الرجيح ص : ٦ ، بغية الرائد ص : ٩

٢ - هم المعتزلة انظر مذهبهم الكشاف ٢ : ٣٥١ ، نهاية الاقدام ص : ٣٤١ ، اصول الدين ص : ٩٦

٣ - الانتقاد الرجيح ص : ٦

تعقيـــــــب :

نلاحظ من كلام القنوجي في صفتي السمع والبصر لله تعالى ، أنه تناول في رده على المخالفين قضية مهمة ، وهي أن السمع والبصر صفتان متميزتان عـــن صفة العلم ، وانتفاؤهما عن الله اثبات ضدهما وهو الصم والعمى ، تعالـــى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والمسألة هذه قد بادر اليها السلف وكثير من علماء الأشاعرة ، يقـــــول الأشعري رحمه الله في معرض رده على المعتزلة في ارجاعهم السمع والبصر الى العلم : "ونفت المعتزلة صفات رب العالمين ، وزعمت أن معنى سميع بصيـــر راء بمعنى عليم ، كما زعمت النصارى ان السمع هو بصره وهو رؤيته وهو كلا مــــه وهو علمه وهو ابنه عز الله وجل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

فيقال للمعتزلة اذا زعمتم أن معنى سميع وبصير معنى عالم ، فهلا زعمتـــم أن معنى قادر معنى عالم ، فاذا زعمتم أن معنى سميع وبصير معنى قـــادر ، فهلا زعمتم أن معنى قادر معنى عالم ، واذا زعمتم أن معنى حي معنى قادر ، فلم لا تزعمون أن معنى قادر معنى عالم ؟ فان قالوا هذا يوجب أن يكون كـــل معلوم مقدورا ، قيل لهم ولو كان معنى سميع بصير معنى عالم لكان كل معلـــوم مسموعا ، واذا لم يجز ذلك بطل قولكم " (١)

وبوب البخاري في صحيحه ( وكان الله سميعا بصيرا )

قال ابن بطال (٢) : غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال ان معنى " سميع بصير " عليم ، قال ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلـــم أن السماء خضراء ولا يراها ، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتـــا ولا يسمعها ، ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفــــــرد

---

١ - الابانة ص : ٤٣

٢ـ أبو الحسن علي بن حلف بن بطال البكري ، كان مـن أهل العلم والمعرفـــة عني بالحديث العناية التامة ،توفي في ٤٤٩هـ ، سير أعلام النبلاء ١٨ : ٤٧

بأحدهما دون الآخر ، فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدرا زائدا على كونه عليما ، وكونه سميعا بصيرا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليما أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين اثبات كونه سميعا بصيرا وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السنة قاطبة " (١)

وقال الباقلاني : " فانه لو لم يوصف ـ الله ـ بالسمع والبصر ، لوجب أن يتصف بضد ذلك من العمى والصمم ، والله يتعالى عن ذلك " (٢)

---

١ ـ فتح الباري ١٣ : ٣٧٣

٢ ـ الانصاف ص : ٣٧

## رأيه في بقية الصفات :

يتضح لنا من موقفه في الصفات التي ذكرنا ـ وقبل ذلك موقفه من التأويل ـ أنه يذهب مذهب السلف ، من اجراء الصفات على ظاهرها دون تشبيه أو تأويل أو تعطيل ، كما وصف تعالى نفسه في كتابه ، ووصفه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنها صفات كمال لا يجوز نفيها ،

ولم يكن في هذه الصفات فقط موافقا للسلف ، بل في بقية الصفات كذلك ، يقول : " ومن صفاته سبحانه : اليد ، واليمين ، والكف ، والاصبع . . ، والضحك ، والتعجب ، والحب . . . . . . الى غير ذلك مما نطق به الكتاب والسنة ،

فكل هذه الصفات ، تساق مساقا واحدا ، ويجب الايمان بها على أنها صفات حقيقية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، ولا يمثل ، ولا يعطل ، ولا يرد ، ولا يجحد ، ولا يؤول بتأويل يخالف ظاهره "(١) وهذا تبيين لمذهب السلف ،

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ " ان أولى الناس بالحق أتبعهم له (الرسول صلى الله عليه وسلم) وأعظمهم له موافقة ـ وهم سلف الأمة وأئمتها ـ الذين أثبتوا ما دل عليه الكتاب والسنة من الصفات ، ونزهوه عن مماثلة المخلوقات ، فان الحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، صفات كمال ممكنة بالضرورة ولا نقص فيها ، فان من اتصف بهذه الصفات فهو أكمل ممن لا يتصف بها ، والنقص في انتفائها لا في ثبوتها ، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجمادات " (٢)

---

١ ـ قطف الثمر ص : ١٠ ، خبيئة الأكوان ص : ٤٢ ، عون الباري ٦ / ٥٦١

٢ ـ مجموع الفتاوى ٦ / ٨٨

واذا كان القنوجي قد اختصر القول فى اثبات هذه الصفات فانه قد أفاض فى اثبات صفات الكلام والاستواء واليد واثبات الرؤية ، الأمر الذى يجعلنا أن نفرد كل صفة من هذه الصفات ببحث خاص،

المبحث الثالث : صفة الكلام :

ان صفة الكلام من أبرز القضايا التى اهتم بها علماء السلف اهتماما بالغا ، حيث أن فى ثناياها مسألة خطيرة أثارها الجهمية والمعتزلة ، ونشروها بشتى أنواع الوسائل فى عهد المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء بنى العباس، واحتدم النزاع بينهم وبين أهل السنة فى هذه المسألة ، ألا وهى مسألة خلق القرآن ، وقد وقف علماء السلف بصلابة أمام هذه البدعة ، وما أصيب به الامام أحمد - رحمه الله - غير خاف على متتبع التاريخ ،

ذهب القنوجى الى أن الله تعالى متكلم حقيقة بصوت مسموع ، وأن كلامه تحت مشيئته وقدرته ، والكلام صفة من صفاته تعالى القديمة القائمة بذاته المقدسة ، وتحدث بمشيئته وقدرته آحادها ، بمعنى أن جنس كلامه قديم ، وأفراده حادثة " يقول : " ومن مذهب أهل الحق ، وما اتفق عليه أهل التوحيد والصدق ، أن الله لم يزل متكلما بكلام مسموع مفهوم مكتوب" (١)

هذا وقد بين القنوجى رأيه فى صفة الكلام لله عز وجل وذلك ضمن تفسيره لكثير من الآيات القرآنية التى وضح فيها مذهبه فى اثبات صفة الكلام ، كما أثبتها الله ورسوله ، أذكر بعضها :

قال تعالى :

( وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء ) (٢)

---

١ - قطف الثمر : ١١
٢ - الشورى : ٥١

يقول القنوجي : " ( أن يكلمه الله ) بوجه من الوجوه ( الا وحيا ) بأن يوحي اليه . . . . . . ( أو من وراء حجاب ) كما كلم موسى ، يريد ان كلامه يسمع من حيث لا يرى " ( ١ )

فالشاهد فيها ان الله تعالى متكلم حقيقة ، وتكليمه لرسله من ثلاثة طرق : اما ان يكون وحيا ، أو أن يكون بكلام مسموع بدون واسطة من وراء حجاب ، كما كلم موسى عليه السلام ، أو أن يرسل ملكا بتبليغ كلام الله ،

وقال تعالى :

( ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ) ( ٢ )

" أى أسمعه كلامه من غير واسطة ولا كيفية ، وأزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه ، وليس المراد أنه أنشأ له كلاما سمعه " ( ٣ )

يرى القنوجي ان تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام بغير واسطة خصوصية وفضيلة اختصه الله بها على سائر الناس ، ويرى أنه أعلى مراتب الوحي ، حيث يقول تعالى : ( وكلم الله موسى تكليما ) ( ٤ )

يقول القنوجي : " وكلم الله موسى بلا واسطة ، أى أزال عنه الحجاب حتى سمع كلام الله سبحانه ، والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي ، خص به موسى من بينهم ، ولم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الأنبياء " ( ٥ )

ويقول في تفسير قوله تعالى : ( قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ) ( ٦ )

---

١ - فتح البيان ٨ : ٣٩١
٢ - الأعراف : ١٤٣
٣ - فتح البيان ٣ : ٤٠٠
٤ - النساء : ١٦٤
٥ - نفس المرجع ٢ / ٤١١
٦ - الأعراف : ١٤٤

" المراد به هنا التكليم ، امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الاكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة " (١)

والكلام صفة من صفات الكمال ، لأن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يبصر ويسمع أكمل ممن ليس كذلك ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس عليه قدرة ولا له مشيئة ، وكل كمال لا نقص فيه فالله تعالى أولى به ، وعدم الكلام صفة نقص والله سبحانه تعالى أحق بالتنزيه عن كل نقص ،

يقول فى تفسير قوله تعالى : ( قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ،أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) (٢)

" أراد ابراهيم عليه السلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه اله ، ....... أليس لكم عقول تتفكرون بها فتعلموا هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه ، أو ان هذه الأصنام لا تستحق العبادة ولا تصلح لها ، وانما يستحقها الله تعالى (٣) "

ان الهتهم لا تنطق ، فهى لا تصلح أن تكون آلهة تعبد ، اذ كل من كان هكذا فهو عاجز ناقص ، فى حين أن الاله الذى يستحق العبادة يجب أن يكون كاملا لا يعوزه الكلام ،

وقال فى تفسير قوله تعالى : " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ) (٤)

---

١ - المرجع نفسه ٣/٤٠٥
٢ - الأنبياء : ٦٣ - ٦٧
٣ - فتح البيان ٦ : ١٦٩
٤ - الأعراف : ١٤٨

( له خوار ) اى صوت البقر ....... ( الم يروا أنه لا يكلمهم )الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، اى ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتخذوه الها لا يقدر على تكليمهم فضلا أن يقدر على جلب نفع لهم ، أو دفع ضر عنهم (ولا يهديهم سبيلا ) اى طريقا واضحا يسلكونها ، وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد " (١)

وبين القنوجي فى تفسير قوله تعالى : ( وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ) (٢) أن الاخرس أو الذى لا يحسن الكلام لا يستوى بمن له قدرة على النطق وفهم سليم ،

( أحدهما أبكم لا يقدر على شئ ) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره كعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، وهو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ....... ( لا يأت بخير ) قط لأنه عاجز أخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ، ولا يمكنه أن يقول ( هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ) مع كونه فى نفسه ينطق بما يريد النطق به ، ويفهم ويقدر على التصرف فى الأشياء وهو سليم الحواس .......

وانما قابل أوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للاخر ، لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشئ ، وحاصل وصفى هذا انه مستحق اكمل استحقاق ، والمقصود الاستدلال بعدم تساوى هذين الامرين على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكا له " (٣)

فيرى القنوجي أن الله سبحانه يبين لنا أن ما يعبدونه من الأصنام عاجز لا يدفع الضرر ولا يجلب الخير ، بل هو بحاجة الى من يحمله ، كالأبكم الذى يحتاج الى المساعدة ، وهذه الأمور صفات نقص فى المخلوق ، والناقص لا يصلح أن يكون الها ،

---

١ - فتح البيان ٣ : ٤١٠
٢ - النحل : ٧٦
٣ - فتح البيان ٥ : ٢٧٥

وان الله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص وعيب ، وهو أحق بالتنزيه من المخلوق ، وأنه ليس بحاجة الى أحد من خلقه ، بل الجميع محتاجون الى جنابه ، إذاً هو وحده المستحق للعبادة فقط ،

كما أثبت القنوجى صفة الكلام لله تعالى ، اثبت أنه سيكلم عباده يوم القيامة بما يسرهم ، وسيكلم الكفار بما يسؤوهم ، وذلك فى تفسيره لقوله تعالى ( ولا يكلمهم الله يوم القيامة ) (١)

" المعنى : لا يكلمهم بما يحبونه ولا بما يكرهونه كقوله تعالى ( اخسئوا فيها ولا تكلمون ) (٢) وانما كان عدم تكليمهم فى معرض التهديد ، لأن يوم القيامة هو اليوم الذى يكلم الله فيه كل الخلائق بلا واسطة ، فيظهر عند كلامه السرور فى أوليائه وضده فى أعدائه " (٣)

وكما ورد فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما منكم من أحد الا سيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان " (٤)

تبين مما تقدم أن أدلة الكتاب والسنة تثبت لله تعالى الكلام ، وعلى هذه العقيدة كان الصحابة والتابعون وسلف الأمة ، وما دامت هذه الصفة ثابتة من الكتاب والسنة ، فانه لا يسمع لرأى النافين لها بحجة محالات توهموها ، بل اثباتها اثبات كمال ، وفى نفيها وصف له بالنقص ، كما تقدم من عيب ابراهيم عليه السلام آلهة قومه ، وعيب الله لعجل بنى اسرائيل بعدم التكلم ،

---

١ - البقرة : ١٧٤

٢ - المؤمنون : ١٠٨

٣ - فتح البيان ١ : ٢٧٧

٤ - البخارى ١١ : ٤٠٠ ، ومسلم ٢ : ٧٠٣

مسألة الحرف والصوت :

ذهب القنوجي الى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلما بكلام حقيقي مسموع ، وأنه متكلم بحرف وصوت ،

يقول : " ونعتقد أن الحروف المكتوبة ، والأصوات المسموعة عين كلام الله عز وجل ، (١) يدل على ذلك قوله تعالى : ( وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ) (٢)

يقول فى تفسير هذه الآية " يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى " (٣)

فالشاهد هنا أن كلامه مسموع ،

أما مسألة الحرف فقد استدل القنوجي على ذلك بقوله تعالى : ( الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ) (٤) وقوله ( المص ) (٥) و ( الر ) (٦) و (كهيعص) (٧) و ( حم ، عسق ) (٨)

ثم يقول بعد سرد هذه الآيات : " فمن لم يقل ان هذه الأحرف كلام الله عز وجل ، فقد مرق من الدين وخرج عن جملة المسلمين ، ومن أنكر أن تكون حروفا فقد كابر العيان وأتى بالبهتان " (٩)

ثم ذكر عدة أحاديث تاييدا لما ذهب اليه ، منها ما روى عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفا من كتاب الله عز وجل فله عشر حسنات " (١٠)

---

١ - قطف الثمر ص : ١١
٢ - الشورى : ٥١
٣ - فتح البيان ٨/ ٣٩١
٤ - البقرة : ١،٢
٥ - الاعراف : ١
٦ - يونس : ١
٧ - مريم : ١
٨ - الشورى : ٢،٣
٩ - قطف الثمر ص : ١١
١٠ - رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح غريب ، ٥ : ١٧٥ ، والدارمى ٢ : ٤٢٩ ، وصححه الألبانى ، انظر صحيح الجامع رقم ٦٣٤٥ ، تخريج المشكاة ١ : ٦٥٩

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : "كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسرة حرفا حرفا" (١)

وروى ابو عبيدة بسنده قال : سئل على رضى الله عنه عن الجنب يقرؤون القرآن قال : لا ولا حرف" (٢) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا ،

وأما مسألة الصوت فقد استشهد القنوجي على ذلك بقوله تعالى : (حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) (٣) وقد ذكر القنوجي بعض الآثار فى تفسير هذه الآية (٤) :

أ - اخرج ابن ابى حاتم وابن مردويه عن بن عباس قال : لما اوحى الله ذكره الى محمد صلى الله عليه وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا : الحق ، وقد علموا أن الله لا يقول الا حقا ، قال ابن عباس: وصوت الوحى كصوت الحديد على الصفا ، فلما سمعوا خروا سجدا فلمارفعوا رؤوسهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير" (٥)

ب - اخرج البخارى من حديث ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : اذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير" (٦)

---

١ - رواه أحمد ٦ : ٢٩٤ ، والترمذى ٥ : ١٨٢ وقال : حسن صحيح غريب وابو داؤد ٢ : ٧٤ وسكت عنه هو والمنذرى فى مختصره ٢ : ١٣٧

٢ - فضائل القرآن ص : ١٧١

٣ - سبأ : ٢٣

٤ - فتح البيان ٧/٤٤٩

٥ - أخرجه الطبرى فى تفسيره ٢٢/٩١

٦ - البخارى ١٣/٤٥٣

وأصرح من هذا ما روى عن عبد الله بن انيس رضى الله عنه مرفوعا فى حديث الحشر " فيناديهم سبحانه بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب " (١)

نلاحظ من كلام القنوجى أنه يذهب مذهب من يقول ان كلام الله تعالى حقيقى فى الكلام المسموع ، وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه ، وهذا هو مذهب السلف ،

وأما الذين أنكروا الحرف والصوت فى كلام الله تعالى ، فكأنهم أنكرواكتاب الله وسنة رسوله الذين يقرران الحرف والصوت له ،

كما يقول مستشهدا بكلام فاخر الاله آبادى : (٢)

" وما قالوا ان كلامه ليس من جنس الحروف والأصوات هو مخالف للسنة والكتاب ، وليس بمعقول ايضا أن يكون كلامه بلا صوت وحرف كانسان فقدت أعضاؤه كلها ، بل القرآن كلامه منه بدأ واليه يعود ، ولفظه ومعناه كلها من الله سبحانه وتعالى ، وليس جبريل عليه السلام الا ناقلا وليس شأنه صلى الله عليه وسلم الا نقله ، فكل ما يمر على لسان أحد من القرآن ، فهو كلامه الذى تكلم به وسمع منه جبريل صدقا ، وأنزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقينا " (٣)

ان نفى الحرف والصوت فى كلام الله ، ثم اثبات الكلام النفسى له هو اضافة صفة نقص اليه ، اذ أن الأخرس له خواطر يريد التكلم بها ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع ، فالله منزه عن هذا العجز الذى يعتبر نقصا فى المخلوق ، فهو منزه عن كل نقص وعيب ،

---

١ - اخرجه البخارى ١ : ١٧٣ ، الأدب المفرد ص : ٢٥٢

٢ - هو محمد فاخر محمد يحى زائر الاله آبادى (١١٢٠ - ١١٦٤هـ) من كبار علماء الهند ، وله عدة تصانيف ، منها (الرسالة النجاتية) تراجم علماء حديث هند ص : ٢٧٤

٣ - الانتقاد ص : ٤٠ ، بغية الرائد ص : ١٥

ومنشأ خطأ الذين نفوا الحرف والصوت هو عدم التفريق بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته ، فزعموا أنه يحتاج الى آلة الكلام من الرئة واللسان والمخارج وغير ذلك ، فيفند القنوجى هذا الزعم قائلا :

وقد أوقع ظن انحصار طريق التكلم فيما هو معروف بين الحيوانات كثيرا من الناس فى ورطة التأويل الهائلة ، وأغرقهم بعد ما أبعدهم عن ساحل نجاة الايمان بما ورد به الكتاب والسنة فى لجة الاضطراب المهلكة ، كيف وقد وقع تسبيح الحصى وتكلم الأحجار والأشجار معجزة له صلى الله عليه وسلم على غير طريق معهود ، فان تكلم القادر على كل شئ من دون طريق عادى فأى استحالة فيه " (١) وقد قال تعالى : ( يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل مزيد ) (٢) وقال اخبارا عن السماء والأرض أنهما قالتا ( أتينا طائعين ) (٣) فجعل القول لا من مخارج ولا أدوات " (٤)

وأما منهج المؤولين الذين نفوا أن يكون الله متكلما بحرف وصوت ، وظنوا أنه حادث فى ذاته ، فقالوا بمنعه ، فتعين عندهم أن كلامه نفسى ، (٥) وبناء على هذا أن الكلام الذى نتلوه ليس كلام الله الحقيقى ، لأنه حروف وأصوات ، بل هو عبارة عن كلامه القديم ، فهذا المنهج الذى نهجوه خلاف ما ثبت من الكتاب والسنة والاجماع ، يقول :

" وأما الكلام النفسى الذى ذكر فى كتب الأشاعرة وغيرهم فلا استشمام

---

١ - انظر فتح البارى ١٣ : ٢٧٤
٢ - ق : ٣٠
٣ - حم السجدة : ١١
٤ - قطف الثمر : ١٢
٥ - انظر موقفهم : المواقف : ٢٩٣ ، شرح الفقه الأكبر : ٢١ ، شرح أم البراهين : ٣١ ، الأسماء والصفات : ٢٧٣ ، الاعتقاد للبيهقى : ٧٥ ، غاية المرام : ١٠٧ ، الاعتقاد للراغب : ١٧٩ ، الارشاد : ٤٠

لرائحته فى الكتاب والسنة " وقال ايضا : " فمن قال انه كلام ملك أو كلام بشر فمسكنه سقر ، ولا يعلم طريق تكلمه سبحانه وتعالى الا هو ، وكيفيته موكولة اليه تعالى " (١)

وما نسب الى الحنابلة بأن غلاف القرآن وجلده قديمان (٢) ، فهذه كلمة تخرج من أفواههم ،

كما يقول القنوجى :

" وظلمت الحنفية ومن قال بقولهم : الحنابلة ومن تبعهم فى القول بتبديعهم وتضليلهم ولم يقل أحد من الحنابلة المعتبرة المعول عليهم بكون الغلاف والجلد قديمان والظاهر أن أمثال هذه الخرافات مدسوسة عليهم وهم بريئون منها ،

قد أصبحت أم الخيار تدعى      على ذنبا كله لم أصنع

والله أعلم " (٣)

---

١ - الانتقاد الرجيح ص : ٤٠ ، وبغية الرائد ص : ١٦

٢ - انظر المواقف ص : ٢٩٣

٣ - الانتقاد ص : ٤٠

مسألة خلق القرآن :

ان مسألة خلق القرآن من أكبر المسائل التى أثارها الجهمية والمعتزلة ، القائلون بأن القرآن مخلوق ، كما قرره القاضى عبد الجبار بقوله : " وأما مذهبنا فى ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه ، وهو مخلوق محدث" (١)

وهذه المسألة أعنى قدم القرآن وحدوثه ، قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ، وجرى للامام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل ، ولكنه صبر على ما ناله من العذاب واحتسب ، حتى ضرب به المثل فى الصبر على البلاء ، وهذه القصة أشهر من أن تذكر ،

يذهب القنوجى فى القرآن مذهب السلف ، ويرى أنه كلام الله غير مخلوق ، ، وقد وضح ذلك قائلا :

والقرآن كلام الله عز وجل ، ووحيه وتنزيله . . . . . . أنزله على سيد المرسلين ، بلسان عربى مبين ، وهو سور وآيات وأصوات وحروف وكلمات له أول وآخر ، - الى أن قال - وأجمع أئمة السلف المقتدى بهم من الخلف على أنه غير مخلوق ، (٢)

هذا وقد فسر القنوجى بعض الآيات القرآنية بما يؤيد مذهب السلف فى اثبات أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وخالف الجهمية والمعتزلة فيما ذهبوا اليه ، ومن بين هذه الآيات قوله تعالى : ( ألا له الخلق والأمر ) (٣)

" اخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له ، الخلق المخلوق ، والأمر كلامه ،

---

١ - شرح الأصول الخمسة : ٥٢٨

٢ - قطف الثمر : ١٠ ، بغية الرائد : ١٦

٣ - الأعراف : ٥٤

واستخرج من هذا المعنى ان كلام الله ليس بمخلوق ، لأنه فرق بين الخلق والأمر ، ومن جعل الأمر الذى هو كلامه من جملة ما خلق فقد كفر" (١)

قال تعالى :

( علم القرآن خلق الانسان ) (٢)

" قدم تعليم القرآن للانسان على خلقه ، وهو متاخر عنه فى الوجود ، لأن التعليم هو السبب فى ايجاده وخلقه " (٣) لو كان القرآن مخلوقا لذكره مع الانسان فى الخلق ، لكن التفريق بين القرآن والانسان فى هذه الآيات، حيث خص كلا منهما بشىء لا يشاركه فيه الآخر ، فخص القرآن بالتعليم وخص الانسان بالتخليق ، يدل دلالة واضحة على أن القرآن غير مخلوق ،

وكذلك خالف المعتزلة فى تفسير الآيات التى اعتمدوا عليها على خلق القرآن ، وبين أنهم مخطئون فى الاستدلال بها على خلقه ، منها قوله تعالى : ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) (٤)

فالقنوجى يرى أنه ليس المراد منها أن القرآن نفسه محدث ، بل المراد بالمحدث التنزيل ، يقول : " وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثا على أن لفظ القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو القرآن ، وأجيب بأنه لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف لأنه متجدد فى النزول ، ولا خلاف فى حدوثها فالمعنى محدث تنزيله " (٥)

وقوله تعالى :

( انا جعلناه قرآنا عربيا ) (٦)

---

١ - فتح البيان ٣ : ٣٤٥
٢ - الرحمن : ٢ ، ٣
٣ - فتح البيان ١٠ : ١٣١
٤ - الأنبياء : ٢
٥ - المرجع نفسه ٦ : ١٣٦
٦ - الزخرف : ٣

يقول في تفسيره " والجعل هنا تصيير ، ولا يلتفت لخطأ الزمخشرى فى تجويزه أن يكون بمعنى خلقناه ، (١) والمعنى : سميناه وصيرناه ووصفناه ولذلك تعدى الى مفعولين " (٢)

ثم استشهد بكلام الصحابة الذين ذهبوا الى ان القرآن غير مخلوق ،

" قال على بن ابى طالب : القرآن ليس بمخلوق ولكنه كلام الله ، منه بدأ ، واليه يعود (٣) " وروى نحوه عن ابن مسعود ، وابن عباس وعمرو بن دينار (٤) وسفيان بن عيينة (٥) " (٦)

فمن قال بخلق القرآن فهو جهمي كافر ، وكذا من قال : انه كلام الله ثم وقف ، ومن قال : ان الفاظنا مخلوقة والقرآن كلام الله ، فهو جهمي مبتدع ،

يقول : " فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ، ومن زعم أنه كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من القول الأول ، (٧)

---

١ـ الكشاف ٣ : ٤١١

٢ـ فتح البيان ٨ : ٣٩٥

٣ـ أخرجه الضياء المقدسي ، اختصاص القرآن بعوده الى الرحيم الرحمن : ورقة ١/٢

٤ـ الامام الكبير الحافظ أبو محمد الجمحي المكي الاثرم ،أحد الأعلام وشيخ الحرم فى زمانه ( ٤٥ أو ٤٦ ـ ١٢٦ ) سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٠٠

٥ـ سفيان بن عيينة ابن أبى عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم ، الامام الكبير حافظ العصر شيخ الاسلام أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي ، مولده بالكوفة سنة ١٠٧ ووفاته فى سنة ١٩٦هـ سير أعلام النبلاء ٨ : ٤٥٤

٦ـ انظر اختصاص القرآن ورقة ٢/ب ، ٣/أ

٧ـ قطف الثمر ص: ١١ ، وانظر السنة لامام عبد الله ١ : ١٦٤

تعقيب :

من خلال ما تقدم نلاحظ ما يلي : -

١ - ان القنوجي يثبت لله سبحانه تعالى صفة الكلام ، كما وصف سبحانه نفسه بها ،ووصفه بها رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، لأنها صفة كمال ، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، وكل كمال يليق بذاته أولى به ، وعدم الكلام صفة نقص ، وكل نقص فالله أولى بالتنزيه عنه ، فهو سبحانه وتعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، متى شاء ، وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وكلم موسى عليه السلام وخاطبه مشافهة بغير واسطة ، وسيكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم ترجمان ،

لا شك أن ما ذهب اليه القنوجي في اثبات صفة الكلام لله تعالى ، هو تأييد وامتداد لما ذهب اليه السلف رحمهم الله من اثبات هذه الصفة لله تعالى كما تليق بجلاله ،

يقول الامام الدارمي رحمه الله : " فالله المتكلم أولا وآخرا ، لم يزل له الكلام ، اذ لا متكلم غيره ، ولا يزال له الكلام اذ لا يبقى متكلم غيره ، فيقول : ( لمن الملك اليوم ) (١) أنا الملك ، اين ملوك الأرض ؟ ، فلا ينكر كلام الله عز وجل الا من يريد ابطال الله عز وجل ، وكيف يعجز عن الكلام من علم العباد الكلام ، وأنطق الأنام ، قال الله في كتابه : ( وكلم الله موسى تكليما ) (٢) فهذا لا يحتمل تأويلا غير نفس الكلام ...... وقال لقوم موسى حين اتخذوا العجل : ( أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا

---

١ - المؤمن : ١٦

٢ - النساء : ١٦٤

ولا نفعا ) (١) وقال : ( عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ) (٢)

قال أبو سعيد : ففي كل ما ذكرنا تحقيق كلام الله وتثبيته نصا بلا تأويل ، ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام ، بيان بيّن أن الله عز وجل غير عاجز عنه ، وأنه متكلم وقائل ، لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود فيه " (٣)

قال ابن تيمية : " وأما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلما اذا شاء ، وأن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة "، (٤) " فالرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ، ونادى ، وناجى ، ويقول ، لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذى أفهموهم اياه أن الله نفسه هو الذى تكلم ، والكلام قائم به لا بغيره ، ولهذا عاب الله من يعبد الها لا يتكلم فقال ( أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ) (٥) وقال : ( ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ) (٦) ولا يحمد شيء بأنه متكلم ، ويذم بأنه غير متكلم الا اذا كان الكلام قائما به ،

وبالجملة لا يعرف فى لغة ولا عقل قائل ، متكلم الا من يقوم به القول والكلام ، كما لا يعقل حى الا من تقوم به الحياة ، ولا عالم الا من يقوم به العلم ، ولا متحرك الا من تقوم به الحركة ، ولا فاعل الا من يقوم به الفعل ،

---

١ - طه : ٨٩
٢ - الأعراف : ١٤٨
٣ - الرد على الجهمية ص : ٨٣
٤ - مجموع الفتاوى ١٢/٥٢ ، انظر " قاعدة فى صفة الكلام " ضمن الرسائل المنيرية ص : ٨١
٥ - طه : ٨٩
٦ - الأعراف : ١٤٨

فمن قال ان المتكلم هو الذى يكون كلامه منفصلا عنه قال ما لا يعقل ، ولم يفهم الرسل الناس هذا ، بل كل من سمع ما بلغته الرسل عن الله يعلم بالضرورة ان الرسل لم ترد بكلام الله ما هو منفصل بل ما هو متصف به " (١)

٢ - ان ما أثبته القنوجي من الحرف والصوت لله عز وجل ، هو مسلك سلفي سار عليه أئمة السلف ، فهم يرون أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع ، وأن صوته لا يشبه أصوات المخلوقين ، كما أن ذاته لا تشبه ذواتهم ، وأن كلام الله تعالى ليس هو الحروف فقط ، ولا المعانى ، بل هو مجموع الأمرين ، كما وضح ذلك ابن تيمية رحمه الله ، حين يقول : " والصواب الذى عليه سلف الأمة - كالامام أحمد والبخارى صاحب الصحيح ، فى " كتاب خلق أفعال العباد " وغيره ، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم - اتباع النصوص الثابتة ، واجماع سلف الأئمة ، وهو أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شئ من ذلك كلاما لغيره ، ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسما لمجرد المعنى ، ولا لمجرد الحرف ، بل لمجموعهما ، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ، ولا المعانى فقط ، كما أن الانسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ، ولا مجرد الجسد ، بل مجموعهما ، وأن الله تعالى يتكلم بصوت ، كما جاءت به الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد ، لا صوت القارئ ولا غيره ، وأن الله ليس كمثله شئ ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته : فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ، ولا معانيه تشبه معانيه ، ولا حروفه تشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد " (٢)

---

١ - منهاج السنة ١/٢٢٣
٢ - مجموع الفتاوى ١٢/٢٤٣

كما أبطل الامام أحمد رحمه الله الشبهة الفاسدة التي أقامها الجهميون وأتباعهم هي أن المتكلم لا بد أن يكون ذا مخارج ، حيث يقول : " وأما قولهم ، ان الكلام لا يكون الا من جوف وفم وشفتين ولسان ، أليس الله قال للسموات والأرض ( أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ) (١) وقال : ( وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ) (٢) ، أتراها سبحت بجوف وفم ، ولسان وشفتين ؟ والجوارح اذا شهدت على الكافر فقالوا : ( لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ ) (٣) ، أتراها أنها نطقت بجوف وفم ولسان ، ولكن الله أنطقها كيف شاء ، من غير أن يقول بجوف ولا فم ، ولا شفتين ولا لسان (٤) "

كما أثبت امام المحدثين البخارى رحمه الله الصوت لله تعالى ، ونفى المشابهة بين صوت الرب وصوت المخلوقين ، حيث يقول : " .... ويذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت ، ويكره أن يكون رفيع الصوت ، وأن الله عز وجل ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، فليس هذا لغير الله جل ذكره ،

( قال أبو عبد الله : وفى هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب ، وأن الملائكة يصعقون من صوته فاذا تنادى الملائكة لم يصعقوا ، وقال الله عز وجل : ( فلا تجعلوا لله أندادا ) (٥) ، فليس لصفة الله ند ولا مثل ولا يوجد شئ من صفاته فى المخلوقين " (٦) )

وكذلك الجوينى ينفى الاحتياج الى الجوارح عن الله عز وجل فى تكلمه ، حيث يقول : " والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته ، فانه قادر والقادر لا يحتاج الى جوارح ولا الى لهوات ، وكذلك له

---

١ - حم السجدة : ١١
٢ - الأنبياء : ٧٩
٣ - حم السجدة : ٢١
٤ - الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد ص : ١٣١
٥ - البقرة : ٢٢
٦ - خلق أفعال العباد : ٥٩

صوت كما يليق به يسمع ، ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس الى الحلق والحنجرة كلام الله تعالى ، كما يليق به ، وصوته كما يليق به ، ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا الى الجوارح واللهوات ، فانهما من جناب الحق تعالى لا يفتقران الى ذلك ، وهذا ينشرح الصدر له ، ويستريح الانسان به من التعسف والتكلف بقوله : هذا عبارة عن ذلك " (١)

والامام المقدسي ايضا يثبت ان كلامه حروف وكلمات ، (٢)

وأما التهمة التي صبت على الحنابلة بكون الجلد والغلاف قديمين ، فيقول ابن بدران الدمشقي (٣) بعد أن ذكر مذهب الامام أحمد في القرآن :

" اياك أن تذهب في كلامه مذهب سعد الدين التفتازاني حيث نسب الى بعض الأصحاب أنهم يقولون : بقدم جلد المصحف والكاغذ والحبر الذى كتب به الكاغذ فتكون قد أعظمت الافتراء على القوم ، ونسبت اليهم ما لم يقل به عاقل فضلا عن ائمة أعلام ....... فحقق هذا المقام واطرح التعصب ينور الله قلبك بنور الايمان والعرفان " (٤)

٣ ـ أنه خالف الجهمية والمعتزلة القائلين بخلق القرآن مخالفة جذرية ، وكذلك خالفهم في تفسير بعض الايات التي اعتمدوا عليها ، وبين المعنى الصحيح منها مستمدا من تفسير السلف لها .

فمخالفته للجهمية والمعتزلة في صفة الكلام هو منهج سلفي ، قد نهج عليه السلف دفاعا عن العقيدة الصحيحة .

كما قال الامام أحمد رحمه الله : " نقول ان القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف ، اى حيث تلي وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله ، فهو

---

١ ـ رسالة في اثبات الاستواء والفوقية : ١٨٤ ( ضمن مجموعة الرسائل المنيرية )

٢ ـ لمعة الاعتقاد : ١٨ وانظر ابن تيمية ، التسعينيه : ٦٠ ، ١١٦ ، شرح العقيدة الاصفهانية : ٥٧

٣ـ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران ، فقيه أصولي حنبلي ،سلفي العقيدة ،مات سنة ١٣٤٦هـ سير أعلام النبلاء ٤ :٣٧

٤ـ المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل ص: ١٣

كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ، ولهذا من لم يهتد الى هذا الفرق يحار ، فانه معلوم أن القرآن واحد ويقرأه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر في نفسه بكثرة قراءة القراء ، وانما يكثر ما يقرؤن به القرآن ، فما يكثر ويحدث في العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذى تكلم الله به ، وسمعه جبريل من الله ، وسمعه محمد من جبريل ، وبلغه محمد الى الناس ، وأنذر به الأمم ، لقوله تعالى ( لأنذركم به ومن بلغ ) (١) قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق " (٢)

يقول الامام أبو الحسن الاشعرى : " ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق ، قوله سبحانه : ( انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) (٣) فلو كان القرآن مخلوقا لوجب أن يكون مقولا له (كن فيكون) ولو كان الله عز وجل قائلا للقول ( كن ) لكان للقول قولا ، وهذا يوجب أحد أمرين : ـ اما أن يؤول الأمر الى أن قول الله غير مخلوق ، أو يكون كل قول واقع بقول لا الى غاية ، وذلك محال ، واذا استحال ذلك صح وثبت أن لله عز وجل قولا غير مخلوق " (٤)

وقد رد الامام ابن قتيبه رحمه الله على استدلال المعتزلة على ان جعل وحدث بمعنى خلق ، حيث يقول : " انا جعلناه قرآنا عربيا " (٥) فان الجعل يكون بمعنيين أحدهما : خلق ، والآخر : غير خلق ، فاما الموضع الذى يكون فيه خلقا ، فاذا رايته متعديا الى مفعول واحد لا يجاوزه كقول الله : ( خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ) (٦) فهذا بمعنى

---

١ ـ الأنعام : ١٩
٢ ـ مجموع الفتاوى ١٢/٧٥
٣ ـ النحل : ٤٠
٤ ـ الابانة ص : ٢٠ ، اللمع ص : ٣٣
٥ ـ الزخرف : ٣
٦ ـ الأنعام : ١

خلق ....... وأما الموضع الذى يكون فيه غير الخلق ، فاذا رايته متعديا الى مفعولين ، كقوله : ( وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ) (١) اى صيرتم ، وكقوله : ( فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها ) (٢)، فان هم وجدوا فى القرآن كله ( جعل ) متعدية الى القرآن وحده ليقضوا عليه بالخلق فنحن نتابعهم ، وكذلك المحدث ليس هو فى موضع بمعنى مخلوق ، فان انكروا ذلك فليقولوا فى قول الله ( لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ) (٣) أنه يخلق ..... وكذلك قوله : ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ) (٤) أى ذكر حديث عندهم لم يكن قبل ذلك " (٥)

---

١ - النحل : ٩١
٢ - البقرة : ٦٦
٣ - الطلاق : ١
٤ - الأنبياء : ٢
٥ - الاختلاف فى اللفظ " ضمن عقائد السلف " ص : ٢٣٥

## المبحث الرابع : صفة الاستواء :

### الرد على المؤولين :

ان أصحاب التأويل لما فسروا الاستواء بالاستيلاء ، وأنه محال في جناب الباري تعالى ، لجؤوا الى تأويل العرش بالملك ، وبناء على هذا يكون معنى الآية ( الرحمن على العرش استوى ) (١) أن الملك ما استوى لأحد غير الله ، واستندوا في تأويلهم هذا باللغة ، كقولهم : عرش الرجل قوام أمره ، ومنه : ثل عرش فلان " اذا انتقض ملكه واختل ، (٢)

يقول القنوجي تعقيبا على قول النسفي الذى جعل المفسرين للعرش بالسرير والاستواء بالاستقرار من المشبهة ، (٣)

" أقول يا مسكين أما شعرت أن العرش في اللغة ، هو السرير ، والاستواء هو الاستقرار ، وبه فسره حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس كما في البخاري (٤) ، وليس في ذلك تشبيه أصلا ، انما التشبيه في بيان الكيفية ، بل الانكار عن ذلك تعطيل يخالف مذهب سلف الأمة وأئمتها ، وهو امرار الصفات كما جاءت واجراؤها على ظواهرها بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ، ويعالج التشبيه بكلمة اجمالية ( ليس كمثله شئ ) (٥) "

ثم ذكر القنوجي اتفاق المفسرين على أن العرش هو السرير كما يقول مستشهدا بالبيهقي في الأسماء والصفات ، (٦)

" اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم خلقه الله

---

١ - طه : ٥
٢ - المفردات : ٣٢٩ ، الاعتقاد للراغب : ١١١
٣ - تفسير نسفي ١ : ٥٤٢
٤ - ٦/٢٠٤ قال ابن عباس : ( ولها عرش عظيم ) سرير كريم حسن الصنعة وغلاء الثمن ، وانظر تفسير ابن عباس للحميدى ٢ : ٦٩٥
٥ - فتح البيان ٣ : ٣٤٣
٦ - ص : ٤٩٧

وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتا وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة ، وفي الآيات والاحاديث والآثار دلالة على صحة ما ذهبوا اليه " (١)

كما تعرض القنوجي لآراء بعض المخالفين لمذهب السلف في صفة الاستواء ، والذين أولوا " الاستواء " بما يتفق وأهواءهم ،

فقد ذكر أنهم اختلفوا كثيرا في معنى " الاستواء " فمنهم من قال ان معنى استوى : أقبل على شيء ، ومنهم من قال : أنه بمعنى استولى وظهر ، يقول :

" قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولا ، (٢)

ثم يذكر بعض الآراء فيقول :

" قال ثعلب : الاستواء : الاقبال على الشيء ، وكذا قال الزجاج والفراء (٣) ،

وقيل : هو كناية عن الملك والعز والسلطان وبه قال المعتزلة (٤) وجماعة من المتكلمين ،(٥)

واحتجوا عليه بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

ثم أورد القنوجي من الايرادات ما تبين منه فساد ما ذهب اليه أصحاب هذا الرأي من التأويل ، فقال :

أ - ان العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ، وانما يقال: استوى فلان على كذا ، اذا لم يكن في ملكه ، ثم ملكه واستولى عليه ، والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها ومستوليا عليها ، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ،

---

١ - عون الباري ٦ : ٥٧٩
٢ - فتح البيان ٣ : ٣٤٢
٣ - انظر رأي الفراء في كتابه " معاني القرآن " ١ : ٢٥ ، الاسماء والصفات : ٤١٢
٤ - انظر متشابه القرآن ١ : ٧٣ ، الكشاف ٢ : ١٨١ ، شرح الأصول الخمسة : ٢٢٦ ، مقالات الاسلاميين ١ : ١٥٧
٥ - انظر أصول الدين : ١١٢ ، الشامل : ٥٥٣ ، الاقتصاد : ٣٨ ، غاية المرام : ٤١٢ ، أساس التقديس : ١٥٧

ب - عن ابن الأعرابى : جاء رجل فقال : ما معنى هذه الاية ؟ ،قال انه مستو على عرشه كما أخبر ، فقال الرجل انما معنى قوله : استوى استولى ، فقال له ابن الأعرابى : ما يدريك العرب لا تقول استوى فلان على الشيء ، حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب ، قيل لمن غلب قد استولى عليه ، والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر ، لا كما يظنه البشر " (١)

وكذلك من قال : ان كون الرب فوق السماوات وكونه على العرش يلزم التركيب ، مراد قولهم : اما أنه كان متفرقا فاجتمع واما أنه كان فوق العرش فعلا وبان عن خلقه ، فالأول باطل وكذب صريح على الفطرة والدين ،والثانى فهو حق ،

يناقش حول هذه الفكرة نقلا عن الموصلي :

" لفظ المركب ، فى اللغة هو الذى ركبه غيره فى محله ، كقوله تعالى : ( فى أى صورة ما شاء ركبك ) (٢) وقولهم : ركبت الخشبة والباب ، أو ما يركب من أخلاط وأجزاء ، بحيث كانت أجزاؤه متفرقة فاجتمعت وركبت حتى صار شيئا واحدا ، كقولهم : ركبت الدواء من كذا وكذا ،

فان أردتم بقولكم : لو كان فوق العرش كان مركبا هذا التركيب المعهود ، أو أنه كان متفرقا فاجتمع ، فهو كذب وفرية وبهت على الله وعلى الشرع وعلى العقل ،

وان أردتم أنه لو كان فوق العرش لكان عاليا على خلقه ، بائنا عن مخلوقاته مستويا على عرشه ليس فوقه شيء ، فهذا المعنى حق " (٣)

والغرض من هذه المناقشة هو بيان خطأ من منع اجراء الاستواء على حقيقته ، وأوله بالاستيلاء ، وأنه خروج عن مدلول لفظ الاستواء فى اللغة ، بل معناه

---

١ - فتح البيان ٦ : ٦٦ ، انظر الاسماء والصفات : ٤١٥ ، فتح البارى ١٣ : ٤٠٦

٢ - الانفطار : ٨

٣ - الدين ١ : ١٠٥

العلو والارتفاع الحقيقي كما ذهب اليه جمهور المحدثين وهو المطابق للغة العرب ، يقول : " والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار قال الجوهري (١) : استوى على ظهر دابته اى استقر ، واستوى الى السماء اى صعد ،

وحكي عن ابي عبيدة : ان معنى استوى هنا علا وارتفع ، (٢)

وقال ابو العالية : استوى على العرش ارتفع " (٣)

والاقرار بأن الله فوق العرش أمر فطري ، قد فطر الخلق على ذلك ، كما يقول القنوجي بعد سوق الأدلة من الكتاب والسنة وما أجمع عليه السلف ،

" فان هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله فوق مخلوقاته عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان في الكتاب ، كما فطرهم على الاقرار بالخالق " (٤)

ويقول ايضا نقلا عن ابن قتيبة :

" وقال الامام المتفق على علمه وورعه وموقفه في الدين ابن قتيبة في مختلف الحديث (٥) : " ولو أن هؤلاء رجعوا الى فطرتهم وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله عز وجل هو العلي الأعلى ، وأن الأيدي ترفع اليه بالدعاء والأمم كلها عجميها وعربيها تقول ان الله في السماء ما تركت على فطرتها ، (٦)

بعد أن فرغ القنوجي من ايراد الأدلة من جهة العقل واللغة ضد المتكلمين من الجهمية الذين ينكرون علو الله سبحانه ، شرع في بيان

---

١ - الصحاح ٦ : ٢٣٨٥ وفيه " اى علا واستقر "
٢ - فتح البيان ٣ : ٣٤٢
٣ - الانتقاد : ٢٣ ، انظر فتح الباري ١٣ : ٤٠٣
٤ - قطف الثمر : ٦
٥ - ص : ٢٧١ ، مختصر العلو ص : ٢١٦
٦ - الانتقاد ص : ١٣

جهلهم وضلالهم ، وزاد الطين بلة عند ما ردوا كلام الله تعالى وكلام رسوله الأمين من النصوص المحكمة غاية الاحكام على علو الله تعالى ، يقول مستشهدا بكلام ابن القيم (١) : رد الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده من ثمانية عشر وجها :

الأول : التصريح بالفوقية مقرونة بأداة "من" المعينة لفوقية الذات نحو : "يخافون ربهم من فوقهم" (٢)

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة كقوله : ( وهو القاهر فوق عباده ) (٣)

الثالث : التصريح بالعروج اليه نحو ( تعرج الملائكة والروح اليه ) (٤) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم (٥)

الرابع : التصريح بالصعود اليه كقوله : ( اليه يصعد الكلم الطيب ) (٦)

الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه كقوله ( بل رفعه الله اليه ) (٧) وقوله : ( اني متوفيك ورافعك اليّ ) (٨)

السادس : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله : ( وهو العلي العظيم ) (٩) ( وهو العلي الكبير ) (١٠) ( انه علي حكيم ) (١١)

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله ( تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ) (١٢) ( تنزيل من حكيم حميد ) (١٣)

---

١ - اعلام الموقعين ٢ / ٣٠٠
٢ - النحل : ٥٠
٣ - الانعام : ١٨
٤ - المعارج : ٤
٥ - البخاري ١٣ : ٤١٥
٦ - فاطر : ١٠
٧ - النساء : ١٥٨
٨ - آل عمران : ٥٥
٩ - البقرة : ٢٥٥
١٠ - سبأ : ٢٣
١١ - الشورى : ٥١
١٢ - الزمر : ١
١٣ - حم السجده : ٤٢

( قل نزله روح القدس من ربك بالحق ) (١)

وهذا يدل على شيئين : على أن القرآن ظهر منه لا من غيره ، وأنه الذى تكلم به لا غيره ، الثانى : على علوه على خلقه وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان الى رسوله ،

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب اليه من بعض ، كقوله : ( ان الذين عند ربك ) (٢) وقوله : ( وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ) (٣) ففرق بين من له عموما ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصا ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى على نفسه : ( انه عنده على العرش ) (٤)

التاسع : التصريح بأنه سبحانه فى السماء ، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين ، اما أن تكون فى بمعنى على ، واما أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون فى ذلك ، ولا يجوز حمل النص على غيره ،

العاشر : التصريح بالاستواء مقرونا بأداة " على " مختصا بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات مصاحبا فى الأكثر لأداة " ثم " الدالة على الترتيب والمهلة ، وهو بهذا السياق صريح فى معناه الذى لا يفهم المخاطبون غيره من العلو والارتفاع ، ولا يحتمل غيره البتة ،

الحادى عشر : التصريح برفع الأيدى الى الله سبحانه كقوله صلى الله عليه وسلم : " ان الله يستحى من عبده اذا رفع اليه يديه أن يردهما صفرا " (٥)

---

١ - النحل : ١٠٢
٢ - الأعراف : ٢٠٦
٣ - الأنبياء : ١٩
٤ - البخارى ١٣ : ٥٢٢ ومسلم ٤ : ٢١٠٧
٥ - رواه الترمذى ٥ : ٥٥٦ وقال حسن غريب ، أبو داود ٢ : ٧٨ ، ابن ماجه ٢ : ١٢٧١ ، وصححه الألبانى ، صحيح الجامع رقم : ١٧٥٣

الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة الى السماء الدنيا ، والنـــزول المعقول عند جميع الأمم انما يكون من علو الى أسفل ،

الثالث عشر : الاشارة اليه حسا الى العلو كما اشار اليه من هو أعلم بـه وما يجب له ويمتنع عليه من أفراخ الجهمية والمعتزلة والفلاسفة فى أعظم مجمع على وجه الأرض يرفع اصبعه الى السماء ، ويقول : اللهم اشهد ( ١ ) ، ليشهد الجميع أن الرب الذى أرسله ودعا اليه واستشهده هو الذى فـوق سماواته على عرشه ،

الرابع عشر : التصريح بلفظ الأين الذى هو عند الجهمية بمنزلة متى فـى الاستحالة ، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة ، فالقائل : " أين اللـه " و " متى كان الله " عندهم سواء ، كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمتـه ، وأعظمهم بيانا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه " أين الله " فى غير موضع ،

الخامس عشر : شهادته التى هى أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال : " ان ربه فى السماء " بالايمان ، وشهد عليه افـراخ جهم بالكفر ، وصرح الشافعى بأن هذا الذى وصفته من ان ربها فى السماء ايمان ، فقال فى كتابه ( ٢ ) فى باب عتق الرقبة المؤمنة وذكر حديث الأمـة السوداء التى سودت وجوه الجهمية وبيضت وجوه المحمدية فلما وصفـت الايمان قال : " اعتقها فانها مؤمنة " ( ٣ ) وهى انما وصفت كون ربها فـى السماء ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فقرنت بينهما فى الذكر ، فجعـل الصادق المصدوق مجموعهما هو الايمان ،

---

١ - البخارى ٣ : ٥٧٣
٢ - الرسالة ص : ٧٥
٣ - مسلم ١ : ٣٨٢

السادس عشر : اخباره سبحانه عن فرعون أنه رام الصعود الى السماء ليطلع الى اله موسى فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السموات ،فقال : ( يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه كاذبا ) (١)فكذب فرعون موسى فى اخباره اياه بأن ربه فوق السماء ، وعند الجهمية لا فرق بين الاخبار بذلك وبين الاخبار بأنه يأكل ويشرب ، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به وكذب موسى فى اخباره بذلك ، اذ من قال عندهم ان ربه فوق السماوات فهو كاذب ، فهم فى هذا التكذيب موافقون لفرعون مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء ، ولذلك سماهم ائمة السنة " فرعونية " ....... ،

السابع عشر : اخباره صلى الله عليه وسلم أنه تردد بين موسى وبين الله ويقول له موسى : ارجع الى ربك فسله التخفيف ، فيرجع اليه ثم ينزل الى موسى ، فيأمره بالرجوع اليه سبحانه ، فيصعد اليه سبحانه ثم ينزل من عنده الى موسى ، عدة مرار ، (٢)

الثامن عشر : اخباره تعالى عن نفسه واخبار رسوله عنه أن المؤمنين يرونه عيانا جهرة كرؤية الشمس فى الظهيرة والقمر ليلة البدر ، ......

كما فى حديث جابر " بينا أهل الجنة فى نعيمهم اذ سطع لهم نور ،فرفعوا روءسهم ، فاذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم " ثم قرأ قوله : ( سلام قولا من رب رحيم ) (٣)ثم يتوارى عنهم ، وتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم ، ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية ، ولهذا طرد الجهمية أصلهم وصرحوا بذلك ، وركبوا النفيين معا ،

---

١ - المؤمن : ٣٦
٢ - البخارى ١٣ : ٤٧٨
٣ - رواه ابن ماجه ١ : ٦٦ ، وقال الألبانى اسناده ضعيف ، تخريج المشكاة ٣ : ١٥٧٧ ، ضعيف الجامع رقم : ٢٣٦٢

وصدق أهل السنة بالأمرين معا ، وأقروا بهما ، وصار من أثبت الرؤية ونفى علو الرب على خلقه واستوائه على عرشه مذبذبا بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء " (١)

هذه الأدلة واضحة كوضوح الشمس على أن الله فوق العرش فى السماء ، فمن أنكر أو أول الاستواء فهو من أعداء الاسلام بل كافر ، يقول نقلا عن ابن خزيمة : " من لم يقر بأن الله تعالى استوى على عرشه فوق سبع سمواته بائن من خلقه فهو كافر يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه " (٢)

يظهر مما مضى من الكلام عن استواء الله تعالى على العرش معتقد القنوجى الذى يعتقده ويدافع عنه بجلاء تام أنه يذهب مذهب السلف الصالح من اجراء الصفات على ظاهرها من غير تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تأويل ، والى هذا القول قد سبقه الأئمة المجتهدون الأربعة وأهل الحديث ،

والاستواء بهذا المعنى قد استشهد القنوجى عليه بعديد من أقوال العلماء والمحدثين (٣) ، واليكم بعض النقول التى تواترت عنهم :

روى عن أم سلمة ومالك : " ان الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، (٤)

قال الشافعى : " ان الله على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء وينزل كيف يشاء "(٥) ومثل ذلك قال أحمد ، (٦)

روى البيهقى عن الامام ابى حنيفة : " ان الله فى السماء ، وقال الامام نفسه فى الفقه الأكبر : من قال لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض كفر ،

---

١ ـ الانتقاد ص : ١٧

٢ ـ المذكور ص : ٢٧ ، انظر مختصر العلو ص : ٢٢٥ ، الحموية الكبرى ص : ١٢٠

٣ ـ انظر الأقوال الآتية : الانتقاد ص : ١٥ - ١٦ ، ٢٢ - ٣٠ ، قطف الثمر ص : ٤ ، الاحتواء على مسألة الاستواء ص : ٥

٤ ـ اخرجه الصابونى فى عقيدة السلف ص : ١٨

٥ ـ مختصر العلو : ١٧٦

٦ ـ المذكور : ١٨٩

لأن الله تعالى يقول ( الرحمن على العرش استوى ) وعرشه فوق سماواته " (١)

وقال في وصيته (٢) : " نقر بأن الله على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة الخ "

قيل لابن المبارك بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن " (٣)

قال الأوزاعي : " كنا والتابعين نقول : ان الله عز وجل فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته "

وأبان الشيخ ابو الحسن الأشعري في الابانة (٤) هذه العقيدة ، وقال بها الشيخ عبد القادر الجيلي في غنية الطالبين ، (٥)

قال الحافظ ابو القاسم الطبري (٦) : نعتقد ان الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ومذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ومن بعدهم والتمسك بمذاهب أهل الأثر مثل الشافعي وأحمد وغيرهما ، (٧)

---

١ - قول الامام لا يوجد في الفقه الاكبر ، بل هو في الفقه الأبسط ص: ٤٥ ضمن مجموعة رسائل الامام ابي حنيفة ،

٢ - ص : ٧٣ ضمن مجموعة رسائل الامام ابي حنيفة

٣ - السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١ : ١١١

٤ - ص : ٣١

٥ - ١ : ٥٦

٦ - هو هبة الله بن الحسن بن منصور ابو القاسم الطبري ، ويعرف باللالكائي ، حافظ للحديث ، قدم بغداد فاستوطنها ، ومات بالدينور سنة ٤١٨ ، تاريخ بغداد ١٤ : ٧٠ ، الكامل لابن الاثير ٩ : ٣٦٤ ، شذرات الذهب ٣ : ٢١١

٧ - ذكره الذهبي ، انظر مختصر العلوص : ٢٠٧ ، والسنة للالكائي ٢ : ٢٨٧ ، ٤٠٧ ،

قال الحافظ الآجرى (١) : " والذى يذهب اليه أهل العلم : ان الله عز وجل على عرشه فوق سمواته ، وعلمه محيط بكل شىء " (٢)

قال ابن رشد : " واما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كابى المعالى ومن اقتدى بقوله .....

قال البغوى : " وأما أهل السنة فيقولون : الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف ، يجب الايمان به ، (٣)

قال شيخ الاسلام عبد الله الهروى (٤) : " ان حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات باجراء أخبارها على ظواهرها ، وهو اعتقاد مفهومها المتبادر الى الأفهام ، كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف غير معقول الخ "

الفوقيـــة والمـعيـــة :

ومن الشبه التى أثارها خصوم السلف ، هى أن فى اثبات الفوقية لله تعالى اثبات الجهة له ، وهو منزه عنها ،

والقنوجى يبين أن لفظ الجهة فيه اجمال وتفصيل ، يقول نقلا عن الموصلي :

"ان أردتم أنه منزه عن جهة وجودية تحيط به وتحويه وتحصره احاطة الظرف المظروف ، فنعم ، هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى ، ولكن لا يلزم من كونه فوق عرشه هذا المعنى ،

---

١ - هو محمد بن الحسين عبد الله ابو بكر الآجرى ، ثقة صدوق ، توفى فى ٣٦٠ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٣ ، وفيات الأعيان ٤ : ٢٩٢ ، الرسالة المستطرفة ص : ٣٢ ،

٢ - الشريعة ص : ٢٨٨

٣ - معالم التنزيل ٣ : ٤٨٨

٤ - هو عبد الله بن محمد بن على الأنصارى الهروى ، الفقيه المفسر الحافظ شيخ الاسلام أبو اسماعيل ، توفى فى ٤٨٠ ، ذيل طبقات الحنابلة ١ : ٦٤ ، سير أعلام النبلاء ١٨ : ٥٠٣

وان أردتم بالجهة أمرا يوجب مباينة الخالق للمخلوق وعلوه على خلقه ، واستواءه على عرشه ، فنفيكم لهذا المعنى باطل ، وتسميته " جهة " اصطلاح منكم توسلتم به الى نفي ما دل عليه العقل والنقل والفطرة ،

فسميتم ما فوق العالم جهة وقلتم : منزه عن الجهات ،

وسميتم العرش حيزا ، وقلتم : ليس متحيزا .......

فانظر ماذا تحت تنزيه المعطلة النفاة بقولهم : ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا مركب ، ولا تقوم به الأعراض ، ولا يوصف بالأبعاض ، ولا يفعل بالأغراض ، ولا تحله الحوادث ، ولا تحيط به الجهات ، ولا يقال في حقه أين ؟ ، وليس بمتحيز ، كيف كسوا حقائق أسمائه وصفاته وعلوه على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وتكليمه لخلقه ، ورؤيتهم له بالأبصار في دار كرامته نحو هذه الألفاظ؟ ثم توسلوا الى نفيها بواسطتها » (١)

أما الآيات التي تنص على اثبات صفة الاستواء والعلو والفوقية لله عز وجل على خلقه وبينونته عنهم ، والتي فسرها القنوجي بما يوافق مذهب سلف الأمة وأئمتها فكثيرة ، غير أني أقتصر على جزء منها :

قال تعالى :

( ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ) (٢)

" قال ابن عباس رضي الله عنه : " ولم يقل من فوقهم لعلمه أن الله من فوقهم " (٣)

قال تعالى :

( يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ) (٤)

---

١ - الدين ١/١٠٨

٢ - الأعراف : ١٧

٣ - انظر اجتماع الجيوش الاسلامية ص : ٧٠

٤ - السجدة : ٥

" ان الأمور العظام تتقرر من العرش ثم ينزل حكمها الى تحت ، فتجتمع أسبابها من السماء ، ويبقى هذا الأمر جاريا الى أجل ثم يرفع الى الله "

قال تعالى :

( قد نرى تقلب وجهك فى السماء ) (١)

" ( قد ) للتحقيق ( نرى تقلب ) تصرف وجهك فى جهة السماء مطلقا الى الوحى ،

وقال تعالى :

( بل رفعه الله اليه ) (٢)

وقال تعالى :

( اذ قال يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ) (٣)

وقال تعالى :

( اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) (٤)

وقال ايضا :

( وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا ) (٥)

وغير هذا من الآيات البينات على علوه ،

يقول بعد سوق هذه الآيات : " وكل أمر نسب فى الكتاب والسنة الى السماء الدنيا وما فوقها من السموات نزولا وعروجا وهبوطا وصعودا وتدبيرا وتدميرا وما فى معناه ففيه دليل على العلو والفوق ، ولا شك ان السماء فوق الأرض والسماء الثانية فوق السماء الدنيا وهكذا الى ان ينتهى الأمر الى

---

١ - البقرة : ١٤٤
٢ - النساء : ١٥٨
٣ - آل عمران : ٥٥
٤ - فاطر : ١٠
٥ - المؤمن : ٣٦

السماء السابعة وفوقها عرش الرحمن وهو محيط بكلهن كما قال ( وسع كرسيه السموات والارض ( ١ ) ) ( ٢ )

أما الأحاديث الدالة على علوه التي ذكرها القنوجي فكثيرة ، سأقتصر على بعضها :

١ - " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء " ( ٣ )

٢ - " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " ( ٤ )

٣ - " فاذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم " ( ٥ )

٤ - قصة القاء ابراهيم في النار أنه قال : اللهم انك واحد في السماء وأنا واحد في الأرض " ( ٦ )

٥ - حديث الجارية : أين الله قالت في السماء " ( ٧ )

يقول القنوجي بعد سرد هذه الأحاديث :

" هذا قليل من كثير أخبار هذا الباب ، ذكرناها على الاختصار ، وكفى بها دفعا في وجوه المخالفين الصارفين كلام الله ورسوله عن ظاهره بلا موجب شرعي ودليل قطعي " ( ٨ )

---

١ - البقرة : ٢٥٥

٢ - الانتقاد : ٢٨

٣ - البخاري ٨ : ٦٧ ، مسلم ٢ : ٧٤٢

٤ - أخرجه الترمذي ٤ : ٣٢٣ وقال : حسن صحيح ، احمد ٢ : ١٦٠ والحاكم ٤ : ١٥٩ وصححه ووافقه الذهبي ، ذكره الذهبي مختصر العلوص : ٨٤ ، والألباني ذكره في الصحيحة رقم : ٩٢٥ ، صحيح الجامع رقم : ٩٠٩

٥ - تقدم تخريجه ، وهو ضعيف ،

٦ - رواه أبو يعلى كما ذكره ابن كثير في تفسيره ٣ : ١٨٤ ، وضعفه الألباني ، ضعيف الجامع رقم : ٤٧٧٠

٧ - مسلم ١ : ٣٨٢

٨ - الانتقاد ص : ٢٩

لا شك ان القنوجي يثبت العلو والفوقية لله تعالى مع شمول معيته بعلمه للعباد ، فالله سبحانه تعالى يعلم أعمال عباده ، لا يخفى عليه خافية ، وهو مستو على عرشه ،

وفي اثبات علو الله ومعيته مع خلقه بعلمه رد على أهل الحلول والاتحاد القائلين بأن الله في كل مكان ، وأن المخلوقات هي الخالق ، وكذلك رد على المنكرين القائلين لا هو داخل العالم ولا خارجه ، يقول :

" فأهل الحلول يقولون انه بذاته في كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون : المخلوقات وجود الخالق ،

وأما أهل النفي والجحود ، فيقولون : لا هو داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين له ، ولا حال فيه ، ولا فوق العالم ، ولا فيه ، ولا ينزل منه شيء ، ولا يصعد اليه شيء ، وهذا قول متكلمة الجهمية كما أن الأول قول ( عباد الجهمية ، فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئا ، وعباد الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلاهم يرجع الى التعطيل والجحود الذى هو قول فرعون " ( ١ )

وسبب ضلال القائلين بالحلول والاتحاد هو أخذهم عن الفكر الأجنبي وبخاصة الفلسفة الهندية ، وتأثرهم بهذه الفلسفة الى درجة فضلوها على دينهم ، ولكنهم لما كانوا يموهون بالانتساب الى الاسلام ، أخذوا بعض الآيات التي توهموها شاهدة لهم مثل قوله تعالى ( ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ) ( ٢ )

وقوله تعالى :

( ما يكون من نجوى ثلثه الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ) ( ٣ )

---

١ - قطف الثمر : ٦
٢ - ق : ١٦
٣ - المجادلة : ٧

يوضح القنوجي أن هذه المعية هى معية العلم ، وليس معناه أن ذاته حل فى ذوات المخلوقين قائلا :

" فقل انما يعنى بذلك العلم ، لأن الله عز وجل فوق السماء السابعة العليا ، يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه لا يخلو عن علمه مكان وليس معنى ذلك أن الله فى جوف السماء وأن السماء تحصره وتحويه ، فان هذا لم يقله أحد من سلف الأمة وائمتها ، بل هم متفقون على أن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ، ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته " (١)

وأما الذين مالوا الى القول الثانى فضلا لهم تسبب من استعمالهم الألفاظ المبتدعة ظانين أن فيها التنزيه التام الذى يليق بجلاله ، فبدءوا يردون المعانى المفهومة من الكتاب والسنة بالشبهات ، وهو من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الألفاظ من الخطأ ،

يقول : " أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ومن وافقهم على مذهبهم فانهم يظهرون للناس التنزه ، وحقيقة كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسم ، بل نقول : ان الله ليس بجسم ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته فيقولون ليس لله علم ولا قدرة ولا حياة ، ولا كلام ، ولا سمع ولا بصر ، ولا يرى فى الآخرة ، ولا عرج النبى صلى الله عليه وسلم اليه ، ولا ينزل منه شيء ، ولا يصعد اليه شيء ، ولا يتجلى لشيء ، ولا يقرب الى شيء ، ولا يقرب منه شيء الى غير ذلك ، وهو سبحانه لا مثل له فى شيء من صفات كماله بل هو الأحد الصمد ولم يكن له كفوا أحد ، فالمعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنما ، والمعطل أعمى والممثل أعشى (٢) " (٣)

---

١ ـ قطف الثمر ص : ٤
٢ ـ الأعشى : هو سيء البصر بالليل والنهار ، القاموس المحيط (عشى )
٣ ـ قطف الثمر ص : ٧

ان جميع الآيات والأحاديث التي تدل على قرب الله ومعيته للعباد لا تبطل علوه وكونه على العرش وعلوه لا ينافي معيته ، بل كلاهما حق ، فهو مع خلقه بعلمه ، مستو على عرشه ، كما أخبر به تعالى وقرن بين الأمرين :

( هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ) (١)

" فأخبر أنه خلق السموات والأرض وأنه استوى على عرشه وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه ، (٢)

كما يقول نقلا عن نعيم بن حماد (٣) لما سئل عن معنى هذه الاية ( وهو معكم أينما كنتم )

" معناها : " أنه لا يخفى عليه خافية لعلمه " (٤) وليس معناها أنه مختلط بالخلق ، فان هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع فى السماء وهو مع المسافر والمقيم أينما كان ، فهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم ومطلع " (٥)

هذا وقد ثبت عن أئمة السلف وعلمائهم صفة العلو والفوقية لله عز وجل كما يليق بجلاله مع ثبوت المعية بالعلم الشامل ، كما استشهد بكلامهم القنوجى ، واليك بعض الأقوال :

(١) قال ابن القيم (٦) فى بيان عقيدة الامام أحمد

---

١ـ الحديد : ٤ ٢ـ الانتقاد الرجيح ص : ٢٥

٣ـ نعيم بن حماد بن معاويه ابن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك ، الامام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعي المروزى من كبار أوعية العلم صاحب التصانيف، توفى سنة ٢٢٩ ، سير أعلام النبلاء ١٠ : ٥٩٥

٤ـ مختصر العلوص : ١٨٤ ٥ـ قطف الثمر ص : ٨

٦ـ حادى الارواح ص : ٣٦ ، المدخل ص : ٢٩

وعرش الرحمن عز وجل فوق السماء والله عز وجل على العرش والكرسي موضع قدميه ، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحر ، ومنبت كل شعرة وشجرة ، وكل زرع وكل نبات ، ومسقط كل ورقة ، وعدد كل كلمة ، وعدد الرمل والحصى والتراب ، ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو على العرش فوق السماء السابعة . . . . . .

قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا صلى الله عليه واله وأصحابه وسلم الى يومنا هذا ، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف من هذه المذاهب وطعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق " (١)

(٢) قال الشافعي رحمه الله : " ان الله على عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف يشاء وينزل كيف يشاء " (٢)

(٣) قال الامام مالك رحمه الله : " الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو عن علمه مكان " (٣)

(٤) قال مقاتل بن حيان (٤) : " بلغنا أنه قريب بعلمه وهو فوق عرشه " (٥)

(٥) قال اسحق (٦) : " انه قد أجمع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ، ويعلم كل شيء " (٧)

---

١ ـ الانتقاد ص : ١٥

٢ ـ الانتقاد ص : ٢٢ ذكره الذهبي ـ مختصر العلو ص : ١٧٦

٣ ـ أخرجه اللالكائي ٣ / ٤٠١ ، الآجرى في الشريعة ص : ٢٨٩ ،

٤ ـ مقاتل بن حيان ابن دوال دور الامام العالم المحدث الثقة ابو بسطام النبطي البلخي الخراز ، توفى في حدود الخمسين بعد المائة ، سير أعلام النبلاء ٦ : ٣٤٠

٥ ـ رواه البيهقي ، الاسماء والصفات ص : ٤٣٠

٦ ـ اسحاق بن راهويه الامام الكبير شيخ المشرق سيد الحفاظ ابو يعقوب ، مولده في سنة ١٦١ هـ ووفاته في سنة ٢٣٨ هـ ، سير أعلام النبلاء ١١ : ٣٥٨

٧ ـ ذكره الذهبي ، مختصر العلو ص : ١٩٤

( ٦ ) قال الحافظ الآجرى : " الذى ذهب اليه أهل العلم أن الله تعالى على عرشه فوق سمواته وعلمه محيط بكل شيء " ( ١ )

( ٧ ) قال الطحاوى رحمه الله : " هو محيط بكل شيء وفوقه " ( ٢ )

---

١ ـ الشريعة ص : ٢٨٨ وفيه " يذهب "

٢ ـ العقيدة الطحاوية ص : ٣٧ ، مختصر العلو ص : ٢٣٦

تعقـــــيب :

من خلال ما تقدم من آراء القنوجي في الاستواء والفوقية على العرش نلاحظ ما يلي :

١ - أنه يثبت صراحة لله عز وجل استواء حقيقيا لائقا بذاته تعالى ، وهو بمعنى العلو والارتفاع وهو قول أهل السنة (١) ، وقد فسره السلف بأربـــع تفسيرات كما ذكرها ابن القيم :

" فلهم عبارات عليها أربـــع | قد حصلت للفارس الطعـــان
وهي استقر وقد علا وكذلـــك | ارتفع الذي ما فيه من نكـــران
وكذلك قد صعد الذي رابـــع | وأبو عبيدة صاحب الشيبانـــي
يختار هذا القول في تفسيره | أدرى من الجهمي بالقـــرآن " (٢)

٢ - يثبت أنه استوى على العرش بذاته المقدسه ، كما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان اللـــه كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق أن رحمتي سبقت غضبي ، وهو عنده فـــوق العرش " (٣) والأحاديث الدالة على اثبات صفة الاستواء وعلو الله كثيرة جدا ،

أما الذين يتكلمون بالمتشابه ويخدعون جهال الناس بقولهم : ان الاستواء بمعنى الاستيلاء ، وأن الله ليس في جهة العلو ، وليس بمستو على عرشـــه ، وليس بمتحيز ، ولا كذا ولا كذا ،

فيبين شيخ الاسلام ابن تيميه على ما يشتمل هذه المصطلحات التـــي أصلوها وجعلوها من الدين ،

---

١ - انظر الحموية : ١٢١
٢ - شرح قصيدة النونية ١ : ٤٤٠
٣ - اخرجه البخاري ٨ : ١٧١ ، مسلم ٤ : ٢١٠٧

« ان مضمونه أنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله وأن الملائكة لا تعرج الى الله ولا تصعد اليه ولا تنزل من عنده ، وأن عيسى لم يرفع اليه ومحمد لم يعرج به اليه ، وأن العباد لا يتوجهون بقلوبهم الى اله هناك يدعونه ويقصدونه ولا يرفعون أيديهم في دعائهم اليه ، فحينئذ ينكشف للناس حقيقة هذا الكلام ويظهر الضوء من الظلام ، ومن المعلوم ان قائل ذلك لا يجترىء أن يقوله في ملأ من المؤمنين ، وانما يقوله بين اخوانه من المنافقين الذين اذا اجتمعوا يتناجون واذا افترقوا يتصاحبون ، وان زعموا أنهم أهل المعرفة المحققين فقد شابهوا من سبق من اخوانهم المنافقين قال الله تعالى :

( واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم ـ الى قوله ـ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ) (١) (٢) »

ومعلوم ان لفظ الجهة لم يرد في الكتاب اثباتها ولا نفيها ،

كما ثبت العلو والاستواء والفوقية ، وان الجهة قد يراد بها المعنى الحق وقد يراد بها المعنى الباطل ، كما صرح به ابن تيميه :

" فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق ؟ فالله ليس داخلا في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات ،

وكذلك يقال لمن قال الله في جهة : أتريد بذلك ان الله فوق العالم ؟ أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات ؟

فان أردت الأول فهو حق ، وان أردت الثاني فهو باطل " (٣)

---

١ ـ البقرة : ١٣ ، ١٤ ، ١٥
٢ ـ التسعينيه ص : ٢٧
٣ ـ الفتاوى ٣ : ٤٢ ، انظر البيهقي وموقفه من الالهيات : ٢٨٨

والعرش الذى ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، وليس معناه الفلك أو الملك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " فان الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور " (١)

وقد أراد البراء رضى الله عنه بالعرش السرير فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " اهتز العرش لموت سعد بن معاذ رضى الله عنه (٢) ، قال : اهتز السرير " (٣)

وبه فسر ابن جرير الطبرى فى تفسيره قوله تعالى : ( وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ) (٤) وترى يا محمد الملائكة محدقين من حول عرش الرحمن ، ويعنى بالعرش السرير " (٥)

وقال ابن تيميه فى معرض استدلاله على علو الله تعالى "ان العرش فى اللغة السرير بالنسبة الى ما فوقه ، وكالسقف بالنسبة الى ما تحته ، فاذا كان القرآن قد جعل لله عرشا وليس هو بالنسبة اليه كالسقف علم أنه بالنسبة اليه كالسرير بالنسبة الى غيره ، وذلك يقتضى أنه فوق العرش " (٦)

والى هذا المعنى ذهب ابن أبى العز الحنفى فى شرحه للعقيدة الطحاوية : " والعرش فى اللغة : عبارة عن السرير الذى للملك كما قال تعالى عن بلقيس : ( ولها عرش عظيم ) (٧) وليس هو فلكا ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن انما نزل بلغة العرب ، فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة . . .

---

١ - رواه البخارى ١٣ : ٤٠٥ ، ومسلم ٤ : ١٨٤٤
٢ - البخارى ٧ : ١٢٢ ، مسلم ٤ : ١٩١٥
٣ - الاسماء والصفات : ٥٠٢ ، الرسالة العرشية ص : ٨
٤ - الزمر : ٧٥
٥ - جامع البيان ٢٤ : ٣٧
٦ - بيان تلبيس الجهمية ١ : ٥٧٦
٧ - النمل : ٢٣

ثم عقب على المؤولين قائلا : وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع بقوله تعالى : ( ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ) (١) وقوله : ( وكان عرشه على الماء ) (٢) أيقول : يحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟ ، وكان ملكه على الماء ، ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك ، هل يقول هذا عاقل ، يدري ما يقول ؟ " (٣)

٣ - انه يثبت لله عز وجل المعية الشاملة مع العباد ، وهي معية العلم ، حيث يعلم أعمال عباده الظاهرة والباطنة ، ولا يخفى عليه خافية ، وهو على عرشه بائن عن خلقه ،

ومال اليه أكثر العلماء الذين دافعوا عن عقيدة السلف ضد تأويلات المتكلمين من الجهمية والمعتزلة ، وعلى رأسهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واليكم بعض الأقوال حتى يظهر مدى موافقة القنوجي للسلف ،

قال الامام الدارمي : " فالله تبارك وتعالى فوق عرشه ، فوق سماواته ، بائن عن خلقه ، فمن لم يعرفه بذلك ، لم يعرف الهه الذي يعبد ، وعلمه من فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد ، لا يبعد عنه شيء ، ( لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ) (٤) سبحانه وتعالى عما يصفه المعطلون علوا كبيرا " (٥)

قال الجويني : " استوى على عرشه فبان من خلقه ، لا يخفى عليه منهم خافية ، علمه بهم محيط ، وبصره بهم نافذ ، وهو في ذاته وصفاته لا يشبهه

---

١ - الحاقة : ١٧
٢ - هود : ٧
٣ - شرح الطحاوية : ٣١١ ، انظر منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات ص : ٢٦
٤ - سبأ : ٣
٥ - الرد على الجهمية : ٢٢

شيء من مخلوقاته" ( ١ )

قال القيرواني ( ٢ ) : " وانه فوق عرشه المجيد بذاته ، وهو بكل مكان بعلمه ، خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهو أقرب اليه من حبل الوريد " ( ٣ )

قال ابن قتيبة : " ونحن نقول في قوله ( ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ( ٤ ) أنه معهم بالعلم بما هم عليه ، كما تقول للرجل وجهته الى بلد شاسع ووكلته بأمر من أمورك : احذر التقصير والاهمال للشيء مما تقدمت فيه ، اني معك " ( ٥ )

وأجمع أهل السنة على أن الله على العرش استوى ، وأن علمه في كل مكان .

كما قال اسحق بن راهويه : " قال الله عز وجل ( الرحمن على العرش استوى ) اجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ، ويعلم كل شيء أسفل الأرض السابعة وفي قعور البحار ورؤوس الجبال وبطون الأودية ، وفي كل موضع ، كما يعلم ما في السموات السبع وما دون العرش ، أحاط بكل شيء علما ، ولا تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض الا قد عرف ذلك كله وأحصاه ، لا يعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره " ( ٦ )

---

١ - رسالة في اثبات الاستواء والفوقية : ١٧٥ ( ضمن الرسائل الميزية )
٢ - هو ابو محمد عبد الله بن ابي زيد عبد الرحمن القيرواني ، كان اماما بارعا ، واسع المعرفة متبعا طريق السلف ، مات في سنة ٣٨٦ .

٣ - مقدمة رسالة ابن ابي زيد القيرواني ص : ٦ .
٤ - المجادلة : ٧
٥ - تأويل مختلف الحديث : ٢١٧
٦ - اجتماع الجيوش الاسلامية ص : ١٥٥

وقال ابو عمر الطلمنكي (١) : " وأجمعوا - يعني أهل السنة والجماعة - على أن لله عرشا ، وعلى أنه مستو على عرشه ، وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه ، قال : فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ( وهو معكم أينما كنتم ) (٢) ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء " (٣)

قال ابن كثير في تفسيره قوله تعالى :

( ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ) ولهذا حكى غير واحد الاجماع على أن المراد بهذه الاية معية علمه تعالى ، ولا شك في ارادة ذلك ولكن سمعه ايضا مع علمه بهم ، وبصره نافذ فيهم سبحانه تعالى مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى ( ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم (٤) ) قال الامام أحمد : افتتح الاية بالعلم واختتمها بالعلم " (٥)

٤ - انه سلك مسلك علماء السلف في المناقشة مع الخصوم ، حيث استعان بأساليب اللغة العربية ، والأدلة السمعية من الكتاب والسنة التي هي عقلية أيضا ، ثم دعم رأيه بذكر أقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من علماء السلف السابق .

---

١ - هو الحافظ الامام ابو عمر احمد بن محمد بن عبد الله الاندلسي الطلمنكي عالم قرطبة ، وكان رأسا في علم القرآن ، وذا عناية تامة بالحديث توفي في ٤٢٩ ، تذكرة الحفاظ ٣ : ١٠٩٨ ، الديباج ١ : ١٧٨ ، غاية النهاية ١ : ١٢٠

٢ - الحديد : ٤

٣ - شرح حديث النزول ص : ١٤٤ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢ : ١٣٣

٤ - المجادلة : ٧

٥ - تفسير ابن كثير ٤ : ٣٢٢

لا شك أن هذه الأدلة التي ساقها القنوجي على اثبات صفة الاستواء لله تعالى وعلوه وفوقيته كما يليق بجلاله ، وأنه في السماء مستو على عرشه بائن من خلقه وهو معهم بعلمه ، هو دفاع عن عقيدة السلف ضد المؤولين ومن نهج نهجهم من جهة ، وتقرير لعقيدة السلف وتاكيد لما سبق علماؤهم من جهة أخرى ،

المبحث الخامس :

صفة اليد :

أثبت القنوجي - رحمه الله - صفة اليد لله تعالى حقيقة على ما يليق بجلاله ، مستمدا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والتابعين ، وأن يد الله تعالى توصف باليمين ، كما أن له كفا وأصابع على الحقيقة من غير تشبيه ولا تكييف ولا تأويل ،

ثم ذكر أن اليد في كتاب الله تعالى ذكرت مفردة ومثنى ومجموعا ، يقول :

" فاعلم أن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفردة كقوله ( يد الله فوق أيديهم (١) ) وقوله ( بيده الملك (٢) )

ومثنى : كقوله ( بل يداه مبسوطتان (٣) ) وقوله ( لما خلقت بيدى (٤) ) ،

ومجموعا: كقوله ( عملت أيدينا (٥) ) (٦)

أما السنة المطهرة التي تثبت لله سبحانه اليدين واليمين والكف والأصابع فهي كثيرة كما ذكرها القنوجي (٧)

---

١ - الفتح : ١٠

٢ - الملك : ١

٣ - المائدة : ٦٤

٤ - ص : ٧٥

٥ - يس : ٧١

٦ - ٧ - قطف الثمر : ٩

١ - عن عبد الله بن حارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق الله ثلاثة أشياء بيده ، خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده " (١)

٢ - عن ابى هريرة مرفوعا ، قال آدم لموسى فى محاجته له " اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده ، وفى لفظ اخر " كتب لك التوراة بيده " (٢)

٣ - عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض " (٣)

٤ - وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خلق الله آدم ، ومسح ظهره بيمينه ، فاستخرج ذرية منه ، فقال : خلقت هؤلاء الي الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون " (٤)

٥ - عن ابى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ " (٥)

٦ - عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد انا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على اصبع ، والشجر على اصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، ثم يهزهن ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله

---

١ - رواه البيهقى ، الاسماء والصفات ص : ٤٠٣ ، وقال : حديث مرسل ، والدارقطني ، الصفات : ٤٥ ،
٢ - البخارى ١١/٥٠٥ ، مسلم ٤/٢٤٢
٣ - مسلم ٤/٢١٤٨
٤ - رواه ابو داؤد ٤ : ٢٢٧ والترمذى ٥ : ٢٦٦ وقال حسن والحاكم ١/٢٧ وقال صحيح ووافقه الذهبى
٥ - البخارى ٨/٥٥١ ، مسلم ٤ : ٢١٤٨

صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وما قدروا الله حق قدره ) (١)

كما ذكر مجموعة من الآثار عن الصحابة والتابعين تاييدا لما أثبت من اليدين والقبضة ،

أ - عن عبد الله بن عمر قال : خلق الله أربعا بيده العرش ، وجنة عدن ، والقلم ، وآدم ، (٢)

ب - قال ابن عمر - رضى الله عنه - : أول شيء خلقه الله القلم ، فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين " (٣)

ج - قال سفيان بن عيينه تفسيرا لقوله تعالى ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (٤) ) : كل ما وصف الله تعالى عن نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه ، (٥)

د - قال نافع : سألت ابن أبى مليكة عن يد الله واحدة أم اثنتان ؟ فقال : بل اثنتان " (٦)

هذا وقد عرض القنوجى آراء بعض المتكلمين الذين لم يثبتوا صفة اليد لله تعالى ، بل أولوها بتاويلات فاسدة ، فأولوا مرة بالنعمة ، ومرة بالقدرة ،

---

١ - رواه البخارى ٨/٥٥٠ ، ومسلم ٤/٢١٤٧
٢ - أخرجه ابن جرير فى تفسيره ٢٣/١٨٥ ، والبيهقى ، الأسماء والصفات ص : ٣١٩
٣ - اخرجه الآجرى ، الشريعة : ٣٢١ ، وابن أبى عاصم السنة ١ : ٤٩ ، قال الألبانى اسناده حسن
٤ - الانعام : ٩١
٥ - الأسماء والصفات : ٣٩٧ ، هذا نظير قول الامام أحمد لما سئل عن حديث الرؤية والنزول : نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى ،
٦ - الرد على المريسى : ٣٨

ومرة بالتأييد ، كما أولوها بالملك أيضا ،(١)

يقول القنوجي في معرض تفسيره لقوله تعالى ( وقالت اليهود يد الله مغلوله (٢) :

" واليد عند العرب تطلق على الجارحة ومنه قوله تعالى ( وخذ بيدك ضغثا (٣) ) وعلى النعمة ، يقولون : كم يد لي عند فلان ، وعلى القدرة ، ومنه قوله تعالى ( قل ان الفضل بيد الله ) (٤) وعلى التأييد ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " يد الله مع القاضي حين يقضي " (٥) وعلى الملك ، يقال : هذه الضيعة في يد فلان أي في ملكه ، ومنه قوله تعالى ( الذي بيده عقدة النكاح ) (٦) اي يملك ذلك ، أما الجارحة فمنتفية في صفته عز وجل ، وأما سائر المعاني التي فسرت اليد بها عند جمهور المتكلمين وأهل التأويل ففيه أشكال " (٧)

ثم يناقش القنوجي من أول اليد بالقدرة ، موضحا أن ذلك يؤدي الى عدم التفرقة بين خلق الله لآدم وخلقه لغيره ، مع أن خلق الله لآدم بيده خصوصية وفضيلة على خلقه لغيره بقدرته ، يقول :

---

١ - الذين أولوا اليد بالقدرة والنعمة هم المعتزلة انظر شرح الأصول الخمسة : ٢٢٨ ، وأن الأشاعرة اتفقوا معهم في تأويلها بالقدرة كما صرح بذلك البغدادي قائلا : وتأولهما بعض أصحابنا على معنى القدرة ، أصول الدين ١١١ ،وانظر غاية المرام : ١٣٩ ، أساس التقديس : ١٢٥ ، مشكل الحديث : ٧٥

٢ - المائدة : ٦٤

٣ - ص : ٤٤

٤ - آل عمران : ٧٣

٥ - رواه الترمذي بلفظ : ان الله مع القاضي ما لم يجر " وحسنه ، ابن ماجه ٧٧٥/٢ ، وأحمد ٢٦/٥

٦ - البقرة : ٢٣٧

٧ - فتح البيان ٣ : ٥٧

" اذا فسرت ـ اليد ـ بمعنى القدرة فقدرته واحدة ، والقرآن ناطق باثبات اليدين ، وما قيل بأن هذه الاية على طريق التمثيل على وفق كلامهم كقوله تعالى ( ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ) (١) والعرب تطلق غل اليد على البخل وبسطها على الجود مجازا "

ثم اجاب قائلا :

" ان اليد صفة قائمة بذات الله ، وهى صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء ، والذى يدل عليه أن الله تعالى أخبر عن آدم أنه خلقه بيديه على سبيل الكرامة ، ولو كان معناه بقدرته أو بنعمته أو ملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، وامتنع كون آدم مصطفى بذلك ، لأن ذلك حاصل فى جميع المخلوقات ، فلابد من اثبات صفة أخرى وراء ذلك يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء ، (٢) وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن أهل الموقف ياتون آدم فيقولون : خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، واسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء " (٣) فذكر أربعة أشياء كلها خصائص " (٤)

كما ناقش المؤولين لليد بالنعمة مستشهدا بكلام العرب ، ان لفظ التثنية لا يدل الا على اثنين ، ولا يراد به الجنس ، حيث يقول :

" وان فسرت ـ اليد ـ بالنعمة فنص القرآن ينطق باليدين ، ونعمه غير محصورة "

وما قيل ان هذا بحسب الجنس ، يرد هذا الزعم قائلا : ان الاسم اذا

---

١ ـ الاسراء : ٢٩

٢ ـ فتح البيان ٣ : ٥٧

٣ ـ البخارى ١٣ : ٣٩٢ ، مسلم ١ : ١٨٠

٤ ـ قطف الثمر : ٩

ثنى لا يؤدى عن الجنس ، فثبت أن اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله كالسمع والبصر والوجه ، وأنها ليست بجارحة كما قالت المجسمة واليهود ، ولا بنعمة وقدرة كما قالت المعتزلة " ( ١ )

---

١ - فتح البيان ٣ : ٥٧ ، ٥٨

تعقيـــــب :

بعد ما عرفنا من موقف القنوجى فى صفة اليد لله تعالى ، يتضح لنـــا بوضوح تام أنه أثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة كما يليق بجلاله وكماله من غير تشبيه ،

وأنه وافق السلف من الصحابة والتابعين ومن سلك سبيلهم فى اجـــراء الصفات على ظاهرها ، واثبات معانيها حقيقة وتفويض كيفيتها الى الله ، وفى ابطال تأويل المتكلمين واستدلالهم عليه مستعينا بالكتاب والسنة ،

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه :

" ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غيـــر تكييف ولا تمثيل ، يثبتون لله ما أثبته من الصفات وينفون عنه مشابهـــة المخلوقات ، يثبتون له صفات الكمال ، وينفون عنه ضروب الأمثال ، وينزهونـه عن النقص والتعطيل ، وعن التشبيه والتمثيل " (١)

فمذهب السلف واضح جدا ، أنهم يثبتون ما أثبته الله ورسوله اثباتا بـــلا تمثيل وتشبيه ، ويحملون هذا الاثبات على الحقيقة ، ويخالفون من يحمله على المجاز من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم فى ذلك ،

يقول ابن عبد البر : " أهل السنة مجمعون على الاقرار بالصفات الـــواردة كلها فى القرآن والسنة ، والايمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجـــاز ، الا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك " (٢)

---

١ - منهاج السنة ١ : ٢٣٢

٢ - الحموية ص : ١٤٥

والمجاز هو اصطلاح مبتدع لم يعرفه السلف ، كما يصرح بذلك ابن تيميه :
" تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها الى حقيقة ومجاز هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم " (١)

والمجاز من أكبر الوسائل التي يتوصلون بها الى نفي كثير من الصفات الثابتة من الكتاب والسنة الصحيحة ، زاعمين أنها مجاز ، وأن المجاز يجوز نفيه ، فلو أقروا بأنها لا يجوز نفيها، لوافقوا أنه أسلوب من أساليب اللغة العربية وهو حقيقة في محله، وسلموا من نفي الصفات الثابتة في القرآن والسنة ، (٢)

وقد ناقش الدارمي رحمه الله من يؤول اليد بالقدرة في قوله ( خلقت بيدى ) ، وشدد النكير على من لم يفرق بين خلق الله لآدم وخلقه لغيره لما ينبني على ذلك أنه ساوى لأخس خلق الله ، ولا يقول هذا الا من هو عاق لأبينا آدم عليه السلام ، يقول : " ثم ما عرفنا لآدم من ذريته ابنا أعق ولا أحسد منه - أي المريسي - اذ ينفي عنه أفضل فضائله ، وأشرف مناقبه ، فيسويه في ذلك بأخس خلق الله ، لأنه ليس لآدم فضيلة أفضل من أن الله خلقه بيده من بين الخلائق " (٣)

وقد استشهد ابن منده رحمه الله على أفضلية آدم بأحاديث كثيرة ، ثم يقول بعد سرد هذه الأحاديث : " وهذه أحاديث صحاح ثابتة لا مدفع لها " (٤)

---

١ - الايمان ص : ٧٥
٢ - انظر منع جواز المجاز ، للشنقيطي ص : ٤٢
٣ - الرد على المريسي ص : ٣٣
٤ - الرد على الجهمية لابن منده ص : ٧١

كما يقول الامام الأشعرى - رحمه الله - فى معرض مناقشة من أول اليد بالنعمة " وليس يجوز فى لسان العرب ولا فى عادة أهل الخطاب أن يقول القائل : عملت كذا بيدى ويعنى به النعمة ، واذا كان الله عز وجل انما خاطب العرب بلغتها وما يجرى مفهوما فى كلامها ومعقولا فى خطابها ،وكان لا يجوز فى لسان أهل البيان أن يقول القائل : فعلت بيدى ويعنى النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل : ( بيدى ) النعمة ....... فلو كان معنى قوله عز وجل بيدى نعمتى لكان لا فضيلة لآدم عليه السلام على ابليس فى ذلك " (١)

---

١ - الابانة ص : ٣٦

المبحث السادس : الرؤيـــة :

ان مسألة رؤية الله تعالى من أهم مسائل العقيدة وأجلها ، حيث يأمـل كل مؤمن أن يكون ممن أنعم الله عليه بهذه النعمة ، وهى أكبر نعم اللـــه ينعم بها يوم القيامة ،

ذهب القنوجى الى اثبات رؤية المؤمنين ربهم عز وجل بأبصارهم يوم القيامة ، وذلك لصحة الأخبار المتواترة من الكتاب والسنة ، وأن هذا متفق عليه بيـــن الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ،

ثم شرع فى ايراد الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلـــم ، والآثار المروية عن الصحابة والتابعين لبيان صحة ما ذهب اليه فى اثبـــات الرؤية ،

فأما أدلته من الكتاب فهى ما يلى :

١ - قوله تعالى : ( وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ) (١) يقول فى تفسير هذه الاية : " أى تنظر اليه عيانا بلا حجاب ، هكذا قال جمهور أهـل العلم ، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظـــرون الى ربهم يوم القيامة كما ينظرون الى القمر ليلة البدر ،

قال ابن كثير (٢) وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعيـــن وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام " (٣)

ان هذه الآية من أوضح الأدلة على هذه المسألة لكن النفاة استبعدوا هذا ، لاجئين الى التأويل والتحريف ، قائلين ان النظر الوارد فى الآيـــة بمعنى الانتظار ، (٤)

---

١ - القيامة : ٢٣
٢ - تفسير ابن كثير ٤ : ٤٥٠
٣ - فتح البيان ١٠/١٥٥
٤ - انظر موقف المعتزلة فى شرح الأصول الخمسة ص : ٢٤٥ ، والتوحيــد النيسابورى ص : ٦٠٤ ، الكشاف ١٦٥/٤

الا أن القنوجي تصدى لهذا التأويل الفاسد ، وأبطله مبينا أن المراد به في هذه الآية رؤية العين ، حيث قال : " لا يقال نظر الى كذا بمعنى الانتظار ، لأن قول القائل : نظرت الى فلان ليس الا رؤية العين ، فاذا ارادوا الانتظار قالوا نظرته ، فاذا ارادوا نظر العين قالوا نظرت اليه ، واشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جدا ،

ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التنزيل بمعنى الانتظار كثير ، ولم يوصل في موضع بإلى ، قوله : ( انظرونا نقتبس من نوركم ) (١) وقوله : ( هل ينظرون الا تأويله ) (٢) وقوله : ( هل ينظرون الا أن يأتيهم الله ) (٣) والوجه اذا وصف بالنظر وعدى بالى لم يحتمل غير الرؤية " (٤)

فالقنوجي يرى ههنا أن الاية صريحة في بابها ، وأنه مادام قد قرن النظر بالوجه ، فلا يراد به الا الرؤية بالعينين ،

٢ - ومما استدل به القنوجي ، قوله تعالى :

( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) (٥)

فقد ذكر - رحمه الله - أن المراد بالزيادة النظر الى وجه الله تعالى ، كما روى هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك ضمن تفسيره لهذه الاية ،

يقول : " الزيادة النظر الى وجهه الكريم ، وبه قال جماعة من الصحابة ، منهم أبو بكر الصديق ، وحذيفة ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبادة بن الصامت ، وبه قال الحسن وعكرمه والضحاك ومقاتل والسدى . . .

ثم ذكر الحديث الوارد في تفسير هذه الآية :

---

١ - الحديد : ١٣
٢ - الأعراف : ٥٣
٣ - البقرة : ٢١٠
٤ - فتح البيان ١٠/١٥٦
٥ - يونس : ٢٦

عن صهيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ، قال :
" اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة
ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل
موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ، قال :
فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه ، فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب
اليهم من النظر اليه ، ولا أقر لأعينهم " (١)

وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم
يبق حينئذ لقائل مقال ، ولا التفات الى المجادلات الواقعة بين
المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فانهم لو
عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم " (٢)

٣ - واستدل على وقوع الرؤية بقوله تعالى :
( كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) (٣) فقال فى تفسير هذه
الاية : " هذه الاية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولولا
ذلك ما كان فى هذه الاية فائدة ، وقال جل ثناؤه ( وجوه يومئذ ناضرة
الى ربها ناظرة ) (٤) فأعلم سبحانه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن
الكفار محجوبون ، (٥)

فاستدل القنوجي على وقوع الرؤية للمؤمنين بالمفهوم المخالف ، لأنه
مادام الكفار محجوبون عن الرؤية ، فان المؤمنين غير محجوبين ،

أما نفاة الرؤية من المعتزلة والجهمية فقد استندوا الى أدلة منها :

---

١ - رواه مسلم ١٦٣/١
٢ - فتح البيان ٢٥٦/٤
٣ - المطففين : ١٥
٤ - القيامة : ٢٣
٥ - فتح البيان ١٠ : ٢٧٤

قوله تعالى :

( قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ) (١)

حيث قالوا ان الرؤية مستحيلة ، لأنه علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو منتف بعد أن صار الجبل دكا ، واستقرار الجبل وكونه دكا محال ، لما فيه من اجتماع النقيضين ، وقالوا أيضا : ان حرف " لن " لتأبيد النفي ، ومعنى هذا أنه لا يراه أحد أبدا ، (٢)

فرد القنوجي على هؤلاء المبتدعة مبينا ان المراد بها رؤية الله في الدنيا فقط ، واما في الاخرة فلم ينفها الله ، يقول : " والمعنى لن تراني بعين فانية بالسؤال بل بعين باقية بالعطاء والنوال ، أو أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى مادام الرائي حيا في دار الدنيا ، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة "

وكذلك أبطل دعواهم أن " لن " لتأبيد النفي مثبتا بأن هذا مخالفة للغة العربية ، يقول : " وقد تمسك أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الاية وقالوا " لن " للتأبيد والدوام ، وهذا غلط ، اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة العربية ، ولم يقل به أحد منهم ، والكتاب والسنة على ذلك ، فقد قال تعالى في حق اليهود :

( ولن يتمنوه أبدا ) (٣) مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة ، كما قال تعالى :

---

١ - الأعراف : ١٤٣

٢ - انظر ، المغني ٤ : ١٦١ - ١٦٩ ، شرح الأصول الخمسة : ٢٦٤

٣ - البقرة : ٩٥

( ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ) (١) وقوله :

( يا ليتها كانت القاضية ) (٢)

والسنة أكثر من أن تحصى ، ...... وان تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة " (٣)

وقوله تعالى :

( لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) (٤)

حيث تمسكوا بظاهر الآية على انكار الرؤية ، ولكن لا يسلم لهم ،

فذكر أن الصواب هو ما تظافرت به الأدلة من السنة وأقوال السلف ،فقال : " ادراك الشيء عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به ، فالأبصار ترى البارى عز اسمه ولا تحيط به ، كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به ، قال سعيد بن المسيب : لا تحيط به الأبصار ،وقال ابن عباس : كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به ، فالمنفى هو هذا الادراك لا مجرد الرؤية ، فقد ثبتت الأحاديث المتواترة تواترا لا شك فيه ولا شبهة ولا يجهله الا من يجهل السنة المطهرة جهلا عظيما "

هذا وقد ذكر القنوجى دليلين عقليين فى معرض تفسير هذه الاية الذى يتفق فى جملته مع مذهب السلف فى توجيه معنى الآية ، فقال : " قد تقرر فى علم البيان والميزان ان رفع الايجاب الكلى سلب جزئى ، فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار ، وهى أبصار الكفار ، هذا على تسليم أن نفى الادراك يستلزم نفى الرؤية الخاصة ، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول تخلفه الجزئية ، والتقدير لا تدركه كل الأبصار ، بل بعضها وهى أبصار المؤمنين ،

---

١ - الزخرف : ٧٧
٢ - الحاقة : ٢٧
٣ - فتح البيان ٣ : ٤٠٢
٤ - الانعام : ١٠٣

وقال أيضا : " ان مورد الآية التمدح وهو يوجب ثبوت الرؤية ، اذ نفي ادراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وانما التمدح بنفي الادراك مع تحقق الرؤية ، فكانت الحجة لنا عليهم ، ولو امعنوا النظر فيها لاغتنموا التفصي عن عهدتها " (١)

نلاحظ ههنا أن القنوجي جعل هذه الاية دليلا على ثبوت الرؤية ونقيضا على ما تصوره النفاة للرؤية ، حيث بين أن المراد من الاية هو نفي الادراك .. دون الرؤية ، والادراك هو الاحاطة بالمرئي ، فالله سبحانه يرى ولا يدرك ، كما يعرف ولا يحاط به .

أما الأحاديث التي تدل على اثبات الرؤية فمتضافرة ،قد رواها نحو من عشرين صحابيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر القنوجي بعضا منها ،

١ - عن ابي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ، وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة ، الا كما تضارون في رؤية احدهما " (٢)

٢ - عن ابي هريرة قال يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ . قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها حجاب ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ ، قالوا : لا ، يا رسول الله ، قال : فانكم ترونه يوم القيامة كذلك " (٣)

٣ - وعنه ايضا قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا ، قال هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها ، قلنا نعم ، قال

---

١ - فتح البيان ٣ : ٢١٤
٢ - البخاري ١٣ : ٤٢٠ ، مسلم ١ : ١٦٧
٣ - رواه البخاري ٤١٩/١٣ ، مسلم ١٦٣/١

فانكم سترون ربكم عز وجل ، حتى ان أحدكم ليحاضر ربه محاضرة فيقول عبدى هل تعرف ذنب كذا أو كذا ؟ ، فيقول : ألم تغفر لى فيقول بمغفرتى صرت الى هذا " (١)

٤ - عن ابن عمر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر الى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر الى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ) (٢)

ورؤية المؤمنين يوم القيامة هى مسألة قد أجمع عليها الصحابة والتابعون وأئمة السلف ، وانما أنكرها المعتزلة والجهمية ومن حذا حذوهم ، كما يقول نقلا عن ابن القيم (٣) : "قد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الاسلام على تتابع القرون ، وأنكرها أهل البدع المارقون ، والجهمية المتهوكون ، والفرعونية المعطلون ، والباطنية الذين هم عن جميع الأديان منسلخون ، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ، وعن حبل الله منقطعون ، وعلى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عاكفون ، وللسنة وأهلها محاربون ، ولكل عدو الله ورسوله مسالمون ، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودون ، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه " (٤)

لا يخفى على متتبع كتب الأشاعرة أنهم متفقون مع السلف فى مسألة الرؤية ، ثم يبقى سؤال ههنا ، هل ذلك الاتفاق حول هذه المسألة من جميع النواحى ؟

---

١ - اخرج ابن منده نحوه كتاب الايمان ٣/٧٦٦

٢ - أخرجه البغوى ٥/١٣٢ ، والحاكم ٢/٥٠٩ ، والدارقطنى فى الرؤية ل ١١٨ ذكره الهيثمى فى مجمعه ، وفيه ثوير ابن ابى فاختة وهو ضعيف ١٠/٤٠١ وضعفه الالبانى ضعيف الجامع ١٣٨٢

٣ - حادى الأرواح ص : ١٩٦

٤ - الانتقاد الرجيح : ٣٤

الواقع أن مسألة الجهة هي النقطة الفارقة بينهم وبين السلف ، فالسلف عند ما أثبتوا الرؤية أثبتوا الجهة ، وهي بمعنى العلو والفوقية ، بينما الأشاعرة أقروا بالرؤية ، وأنكروا ما دلت عليها الأدلة الصحيحة وهي الفوقية ، وقد سبق الحديث عن الجهة عند الكلام في الاستواء ،

فالقنوجي يذهب مذهب السلف الذين يثبتون الرؤية مع اثبات الفوقية لله تعالى ، كما يقول تعقيبا على تعليق الملا على القارى الحنفي على شارح العقيدة الطحاوية : " تخطئة القارى شارح العقيدة في قوله : " هل يعقل رؤية بلا مقابلة ـ الى قوله ـ كأنه قال بالجهة العلوية لربه " منظور فيه (١) ، لأنه لا استحالة في رؤيته بالتقابل مع علوه على خلقه ، كما لا استحالة في قربه من عباده ، ومعيته لهم مع كونه فوق العرش مستو عليه " (٢)

---

١ ـ ملخص المناقشة ما يلي :
قال شارح الطحاوية : وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه ، والا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ شرح الطحاوية : ٢١١
علق عليه الملا قاري قائلا : وكأنه قائل بالجهة العلوية لربه ، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه سبحانه لا يرى في جهة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر " تشبيه للرؤية بالرؤية في الجملة ، ولا تشبيه المرئي بالمرئي من جميع الوجوه ، شرح الفقه الأكبر : ٦٨

٢ ـ الانتقاد : ٣٥

تعقيـــــب :

من خلال ما تقدم من الحديث عن رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، نلاحظ أن القنوجى اعتمد فى اثبات الرؤية على الأدلة السمعية وهى عقلية أيضا من الكتاب والسنة ، ثم استشهد بأقوال السلف ،

وكذلك بين خطأ تفسير المعتزلة فى استدلالهم بالآيات القرآنية على نفى الرؤية ، وبين أنها لا تحقق الهدف الذى أرادوا الوصول اليه من نفى الرؤية ، بل اعتبرها دليلا قاطعا على اثباتها ،

هذا المنهج الذى سلكه القنوجى قد سبق اليه علماء السلف ، وطائفة كبيرة من علماء الأشاعرة ،

( يقول الامام أحمد رحمه الله : " لم أُنكرتم أن أهل الجنة ينظرون الى ربهم ...... فقالوا : ان معنى ( الى ربها ناظرة ) أنها تنتظر الثواب من ربها ، ...... فقلنا : انها مع ما تنتظر الثواب هى ترى ربها ، فقالوا : ان الله لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وتلوا آية من المتشابه من قول الله جل ثناؤه ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف معنى قول الله ( لا تدركه الأبصار ) وقال : " انكم سترون ربكم " )

وقال لموسى : ( لن ترانى ) ولم يقل لن أرى ، فأيهما أولى ؟ ان تتبع النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : سترون ربكم ، أو قول الجهمى حين قال : لا ترون ربكم ، والأحاديث فى أيدى أهل العلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة يرون ربهم لا يختلف فيها أهل العلم " (١)

كما أن البيهقى رحمه الله استقصى معانى النظر الواردة فى كتاب الله تعالى : ثم وصل الى أن المراد بهذا فى قوله تعالى " وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ) (٢) ليس الا الرؤية ، حيث قال : " وليس يخلو النظر من وجوه :

---

١ ـ الرد على الزنادقة والجهمية : ١٢٧

٢ ـ القيامة : ٢٣

١ - اما أن يكون الله عز وجل عنى به نظر الاعتبار كقوله : ( أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت ) (١)

٢ - أو يكون عنى به نظر الانتظار كقوله : ( ما ينظرون الا صيحة واحدة ) (٢)

٣ - أو يكون عنى به نظر التعطف والرحمة كقوله : ( ولا ينظر اليهم ) (٣)

٤ - أن يكون عنى الرؤية كقوله : ( ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت ) (٤)

ولا يجوز أن يكون الله سبحانه ، عنى بقوله : ( الى ربها ناظرة ) نظر التفكر والاعتبار ، لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار ، وانما هى دار اضطرار ، ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، لأنه ليس فى شئ من أمر الجنة انتظار ، لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من العيش السليم والنعيم المقيم ، فهم ممكنون لما أرادوا وقادرون عليه ، واذا خطر ببالهم شئ أتوا به مع خطوره ببالهم ، واذا كان كذلك ، لم يجز أن يكون الله أراد بقوله : ( الى ربها ناظرة ) نظر الانتظار ، ولأن النظر اذا ذكر مع ذكر الوجوه ، فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه ، كما فى قوله تعالى : ( قد نرى تقلب وجهك فى السماء ) (٥) وأراد بذلك : تقلب عينيه نحو السماء ، ولأنه قال : ( الى ربها ناظرة ) ونظر الانتظار لا يكون مقرونا بالى ، لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا فى نظر الانتظار "الى" ألا ترى أن الله عز وجل لما قال : ( ما ينظرون الا صيحة واحدة ) ، لم

---

١ - الغاشية : ١٧
٢ - يس : ٤٩
٣ - آل عمران : ٧٧
٤ - محمد : ٢٠
٥ - البقرة : ١٤٤

يقل " الى " اذ كان معناه الانتظار ، وقالت بلقيس فيما أخبر الله عنهـــا :
( فناظرة بم يرجع المرسلون ) (١) ، فلما أرادت الانتظار لم تقل " الى ".
ولا يجوز أن يكون الله سبحانه أراد نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلـــق لا
يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، فاذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة ، صـــح
القسم الرابع من أقسام النظر ، وهو أن معنى قوله : ( الى ربها ناظرة )
انها رائية ، ترى الله عز وجل " (٢)

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ( لن ترانى ) على نفي الرؤيـــة ،
فهو استدلال باطل ، بل هو دليل عليهم ، يقول شارح الطحاوية : "فالاستدلال
منها على ثبوت رؤيته من وجوه :

أحدها : أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقتـه
أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال

الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله . . . . .

الثالث : أنه تعالى قال ، ( لن ترانى ) ولم يقل : انى لا أرى ، أولا
تجوز رؤيتي ، أولست بمرئي . . . . . . . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ،
ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن
رؤيته تعالى ،

الرابع : هو قوله تعالى : ( ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانـــه
فسوف ترانى ) فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هـــذه
الدار ، فكيف بالبشر الذى خلق من ضعف ،

الخامس : ان الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا ، وذلـــك
ممكن ، وقد علق به الرؤية ، ولو كانت محالا لكان نظير أن يقول : ان استقر
الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام . . .

---

١ - النمل : ٣٥
٢ - الاعتقاد ص : ١٢٠ انظر ايضا شرح المواقف ص : ٢١١ نهايـــة
الاقدام ص : ٣٦٩ ، حادى الارواح ص : ٢٠٤

السادس : قوله تعالى : ( فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ) فاذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته ، ولكن الله أعلم موسى أن الجبل اذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار ، فالبشر أضعف .

السابع : ان الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة ، فرؤيته أولى بالجواز "

وأما دعواهم تأبيد النفى بلن . . . ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الاخرة ، فكيف اذا أطلقت ؟ ، قال تعالى : " ولن يتمنوه أبدا " (١) مع قوله ( ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ) (٢) ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : ( فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى ) (٣) ، فثبت أن " لن " لا تقتضى النفى المؤبد " (٤)

هذا التفصيل قد ذهب اليه جماعة من الأشاعرة الذين أثبتوا رؤية الله تعالى . (٥)

وكذلك استدل نفاة الرؤية بقوله تعالى : ( لا تدركه الأبصار ) فاحتج المثبتون للرؤية على النافين ، وبينوا أن المراد بالآية نفى الادراك دون الرؤية ، والادراك هو الاحاطة ، فالله تعالى يرى ولا يدرك ، والى هذا المعنى ذهب كثير من علماء السلف وغيرهم ، كابن تيميه وابن القيم ، وشارح الطحاوية وكذلك الرازى من الأشاعرة .

يقول ابن القيم مثبتا الرؤية بهذه الاية وهو الذى ذهب اليه استاذه

---

١ - البقرة : ٩٥
٢ - الزخرف : ٧٧
٣ - يوسف : ٨٠
٤ - شرح الطحاوية ص : ٢٠٧ - ٢٠٨
٥ - انظر تفسير الرازى ١٤ / ٢٣١ ، أصول الدين ص : ٩٩ ، نهاية الاقدام ص : ٣٦٨ ، الانصاف ص : ١٧٩ ، الاقتصاد ص : ٤٧

ابن تيميه : " وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال بها أحسن تقرير وألطفه، وقال : أنا التزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله الاوفى ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله ، فمنها هذه الاية ، وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها ، فان الله سبحانه وتعالى انما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح انما يكون بالأوصاف الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال ، ولا يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم الا اذا تضمن أمرا وجوديا كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ..... فقوله ( لا تدركه الأبصار ) يدل على غاية عظمته ، وأنه أكبر من كل شئ ، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ،فان الادراك هو الاحاطة بالشئ ، وهو قدر زائد على الرؤية ، ...... فالرب تعالى يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به ، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة " (١)

ثم اثبات الرؤية ونفي العلو كما ذهب اليه الأشاعرة - هو قول متناقض يقول ابن تيميه : " فالأشعرية الذين أثبتوا الرؤية ونفوا الجهة أقرب الى الشرع والعقل من المعتزلة والشيعة الذين نفوهما ....... فنقول وقول الأشعرية المتناقضين خير من قول هؤلاء " (٢)

ورد عليهم قائلا : " قول هؤلاء : " ان الله يرى من غير معاينة ومواجهة " قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة ، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة ،....... ولهذا صار حذاقهم الى انكار الرؤية ، وقالوا : قولنا هو قول المعتزلة في الباطن ، فانهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف " (٣)

١ - حادى الأرواح ص : ٢٠٢ ، انظر ايضا تفسير الرازى ١٣/١٢٥ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص : ٢٠٨
٢ - منهاج السنة ٢/٧٦
٣ - مجموع الفتاوى ١٦/٨٥ ، بيان تلبيس الجهمية ٢/٨٨

لا ريب ان اثبات الرؤية ونفي لازمها انما هو نفي للرؤية ، لذلك كـــان المعتزلة أكثر منطقية في انكارهم الأمرين معا ، وذلك فرارا من الوقوع فـــي التناقض الذى وقع فيه الأشاعرة ،

# الفصل الرابع

## القضاء والقدر

المبحث الأول : خلق أفعال العباد

المبحث الثاني : مسألة الهدى والاضلال

المبحث الثالث : الاستطاعة

المبحث الرابع : مسألة اللطف والأصلح

## المبحث الأول :

### خلق الله أفعال العباد :

ان هذه المسألة من أهم المسائل العقدية التي تناولها العلماء بالاهتمام والعناية البالغة بما يناسب مكانتها ، حتى رأى بعضهم أن الواجب كتابتها وتأليفها في سفر مستقل ، كما فعل الامام البخاري - رحمه الله - حيث ألف فيها كتابه القيم " خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل " والبيهقي له كتاب نفيس " القضاء والقدر " (١) في هذا المجال ،

وقبل أن نبدأ الكلام عنها والخلاف فيها ، نود أن نشير الى عهد ظهور بدعة الجدال في القضاء والقدر ، وقد بدأت جذورها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنه كان ينهى عنها ، وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى وجدنا هذه المسائل تنشط ، ولقد استنكرها الصحابة رضوان الله عليهم ، (٢)

وقد ذكر القنوجي حديث مسلم عن يحى بن يعمر : "كان أول من تكلم بالبصرة في القدر معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين ، أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ،

فوفق الله لنا عبد الله بن عمر داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ،

---

١ - مخطوط بمكتبة الشهيد علي باشا باستنبول ورقم : ١٤٨٨ ،

٢ - وان كانت جذورها بدأت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنها حينما تكون الأسئلة من الصحابة يسئلون للاستفهام ، فاذا ما كان الجواب اكتفوا به كما جاء في الحديث : " اعملوا فكل ميسر " ( البخاري ١٣ : ٥٢١ ) أما الكفار فقد أثاروها كتبرير لضلالهم كما قال تعالى ( أنطعم من يشاء الله أطعمه ) يس : ٤٧ وكما قال ( وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ) النحل : ٣٥ ،

فظننت أن صاحبي سيكل الكلام الي ، فقلت : أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، يزعمون أن لا قدر والأمر أنف ،

فقال : اذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبله الله عز وجل منه ، حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره " (١)

فالذي تولى كبر هذه البدعة هو معبد الجهني ، ثم سلك مسلكه غيلان الدمشقي ، الذي سال في القدر سيل الماء ، حتى أمر هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه وذلك في سنة ١٠٦ هـ ، (٢)

ولما جاءت المعتزلة دخلوا في التفاصيل ، وقالوا بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ، ولكنهم يقرون بشمول علم الله سبحانه للماضي والحاضر والمستقبل ،

وقبل أن أذكر رأي القنوجي في ذلك ، أرى من المناسب بيان الآراء التي اشتهرت حول هذه القضية ، وهي :

١ - رأي الجهمية ، ورئيسهم جهم بن صفوان السمرقندي ، الذي قال ان التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي اضطرارية كحركات المرتعش ونبض العروق ، وحركات الأشجار ، واضافتها الى الخلق مجاز ، وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى فاعله ، (٣)

٢ - رأي المعتزلة الذين قالوا : ان جميع الأفعال الاختيارية من خلق الانسان ، وأنه ليس لله عز وجل في أكسابها ولا في أعمالها صنع وتقدير ، كما صرح بذلك عبد الجبار :

---

١ - رواه مسلم ١ : ١٥٠ مع الشرح ، يتقفرون : يطلبون ويتتبعون ،
٢ - انظر تاريخ الجهمية ص : ٥٦
٣ - انظر شرح الطحاوية ص : ٤٩٣ ، الملل والنحل ١ : ١٠٩ ، الفرق ص : ٢١١

" ان أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم ، وأن الله جل وعز أقدرهم على ذلك ، ولا فاعل لها ولا محدث سواهم ، وأن من قال ان الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه " (١)

وقد بين القنوجي معنى الايمان بالقدر قائلا : " المراد بالايمان بالقدر ، أن يؤمن بأن كل ما يقع في العالم من الخير والشر وأعمال العباد وغيرها ، جميعها بتقدير الله ، وأنه تعالى قدر الكائنات في أزل الآزال الى أبد الآباد ، وكلها بخلقه وارادته ومشيئته ، لا تخرج ذرة من تقديره ، ومع هذا فللعباد في أفعالهم اختيار ما يترتب عليه الثواب والعقاب " (٢)

ذهب القنوجي الى أن أفعال العباد مخلوقة ومقدرة لله يقول :

" قد تظافرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة واجماع الصحابة ، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على اثبات قدر الله سبحانه ، وقد قرر ذلك أئمة الحديث وأهل السنة أحسن تقرير بالدلائل القطعية السمعيةوالعقلية " (٣)

ثم قال ردا على الجبرية القائلين ان العبد مجبور جبرًا محضًا وحركاته كالريش في مهب الرياح ، انه هذا المذهب فاسد ، بل ان الانسان له قدرة وفعل ، وذلك بعد ما أعطاه الله مشيئة وقدرة وارادة ، وهذا هو الذى يترتب عليه الجزاء والعقاب ، والا قد يظن ظان ان الله يعاقب عباده على ما لم يفعلوا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يقول : " وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر اجبار الله العبد وقهره اياه على ما قدره وقضاه . . . فمذهب الجبرية القائلة بأن حركات الآدمي مثل حركات الجمادات فاسد من أبطل الباطلات " (٤)

---

١ - المغنى ٨ : ٣ ، انظر شرح الطحاوية ص : ٤٩٣ ، الملل والنحل ١ : ٥٤ ، الفرق ص : ١١٤
٢ - الدين ٣ : ١٥٥
٣ - الدين ٣ : ١٤٨
٤ - الدين ٣ : ١٤٨ - ١٥٥

بل هناك فرق بديهي بين حركة البطش وحركة الارتعاش ، ومعلوم بالضرورة أن الحركة الأولى اختيارية دون الأخرى ، فلو لم يكن للعبد فعل ما لما صح التكليف ، ولما يترتب الثواب والعقاب على الفعل ، مع أن النصوص منافية لذلك ، كقوله تعالى :

( جزاءً بما كانوا يعملون ) (١)

وقوله تعالى :

( فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) (٢)

هذا وحينما تناول القنوجي هذه المسألة بالحديث عنها ، لأفعال العباد وخلقه لها فانه ـ بما أورده من أدلة لتقرير مذهبه ـ يرد على المعتزلة النفاة لمشيئة الله ، بل يشدد النكير عليهم ، ويوجه النقد اليهم ويصفهم بالجهل والبعد عن الشرع ، كما سترى في ثنايا البحث .

وقد ذهب القنوجي الى القول بأن الله سبحانه هو الخالق لأفعال العباد ومقدرها ، مستدلا على ذلك بكتاب الله وتفسير أهل العلم من الصحابة والتابعين .

قال تعالى :

( أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ) (٣)

يقول : " ( أتعبدون ما تنحتون ) أى تعبدون أصناما أنتم تنحتونها ، ( والله خلقكم وما تعملون ) أى وخلق الذى تصنعونه على العموم . . . . . .

والمقصود هنا من ايراد هذه الاية الرد على القدرية والمعتزلة القائلين بأن أعمال العباد مخلوقة لهم لا لله سبحانه ، ولا شيء أصرح من هذه على هذا المراد " (٤)

---

١ ـ الواقعة : ٢٤
٢ ـ الكهف : ٢٩ ، انظر بغية الرائد : ٢٩
٣ ـ الصافات : ٩٥ ، ٩٦
٤ ـ الدين ٣ : ١٤٩

قال تعالى :

( يقولون هل لنا من الأمر من شئ ،قل ان الأمر كله لله ) (١)أى ليس لكم ولا لغيركم منه شئ " (٢)

قال تعالى :

( وما تشاءون الا أن يشاء الله ) (٣)

أى الأمر اليه سبحانه لا اليكم ، والخير والشر بيده لا بيدكم ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتى بخير ولا تدفع شرا ، وان كان يثاب على المشيئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير ، كما فى حديث " انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى (٤)"

والآية الشريفة حجة على المعتزلة والقدرية ، النفاة لمشيئة الله المثبتة لمشيئة العباد ، وما أجهلهم بكلام الله وكلام رسوله ، وأبعدهم عن مدارك الشرع وفهم الكتاب والسنة " (٥)

واستدل بقوله تعالى : ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ) (٦)

يقول فى معرض تفسيره نقلا عن ابن جرير " هذا من باب الاخبار من الله عز وجل ، بأنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبين الأفئدة اذا شاء ، حتى لا يدرك الانسان شيئا الا بمشيئته عز وجل ،

قال ابن عباس : " يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ، وبين الكافر وبين الايمان وطاعة الله " (٧)

---

١ - آل عمران : ١٥٤
٢ - الدين ٣/١٥٠
٣ - الانسان : ٣٠
٤ - البخارى ١ : ٩ ، مسلم ٣ : ١٥١٥
٥ - الدين ٣/١٥٠
٦ - الانفال : ٢٤
٧ - جامع البيان ٩ : ٢١٥

وقال السدى [١] : يحول بين الانسان وقلبه ، فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر الا باذنه وارادته ،

قيل : هذا القول ، هو الذى دلت عليه البراهين العقلية ،لأن أحوال القلوب اعتقادات ، ودواع وارادات ، وتلك الارادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى ، فثبت بذلك ان المتصرف فى القلب كيف شاء ، هو الله ، [٢]

واستدل كذلك بقوله تعالى : ( ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ) [٣] يقول :

( ما أصاب من مصيبة فى الأرض ) من زلزلة ، وقحط مطر وجدب، وضعف نبات ، وقلته ونقص ثمار وعاهة زرع ،

وقيل : أراد بها جميع الحوادث من خير وشر ، ( ولا فى أنفسكم ) من الأوصاب والأسقام ، قاله قتادة ،

وقال مقاتل : اقامة الحدود ، وقال ابن جريج [٤] : ضيق المعاش ، وقيل : موت الأولاد ، وقيل : غير ذلك ، واللفظ أوسع لما هنالك ، ( الا فى كتاب) مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ( من قبل أن نبرأها ) اى نخلقها ،

قال ابن عباس : "هو شئ قد فرغ منه قبل أن تبرأ الأنفس" (٥) وهذا يدل دلالة واضحة على أن القدر ، خيره وشره ، وحلوه ومره ، وقليله وكثيره ، من الله ، لا فعل للعبد فيه ولا عمل ، بل العبد ، وعمله ، وفعله ، وقوله ، وكل شئ يصدر منه ، فالله خالقه جميعه ، لا رب سواه ولا فاطر الا اياه [٦]

واستدل كذلك بقوله تعالى : ( وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ) (٧)

---

١- اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبى كريمة الامام المفسر أبو محمد الحجازى الكوفى الأعور السدى ،أحد موالى قريش،مات سنة ١٢٧هـ سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٤

٢- الدين الخالص ٣ : ١٥١

٣- الحديد : ٢٢

٤- عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ،الامام العلامة الحافظ شيخ الحرم القرشي الاموى المكي ،صاحب التصانيف، مات فى ١٥٠ سير أعلام النبلاء ٦ : ٣٢٥

٥- جامع البيان ٢٧ : ٢٣٣ ، فتح القدير ٥ : ١٧٧

٦- الدين الخالص ٣ : ١٥٢

٧- الفرقان ; ١٧

يقول : " والصحيح كما قال ابن اسحق وغيره : ان المراد بالرمى المذكور فى هذه الآية هو ما كان منه صلى الله عليه وسلم فى يوم بدر ، فانه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ، ودخلت فى عينيه ومنخريه وأنفه ،

وقال ثعلب : المعنى وما رميت الفزع والرعب فى قلوبهم اذ رميت بالحصباء فانهزموا ( ولكن الله رمى ) اى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك أى أعانك وأظفرك وصنع لك (١) ،

ثم استدل على أن أفعال العباد مخلوقة ومقدرة لله بمجموعة من الحديث أذكر بعضا منها ،

استدل بحديث عبادة بن الوليد بن عبادة ، قال : حدثنى أبى قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه ، أوصنى واجتهد لى ، فقال : أجلسونى ، فقال : يا بنى انك لن تجد طعم الايمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ،

قلت : يا أبتاه ، وكيف أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بنى انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة ، يا بنى ان مت ولست على ذلك ، دخلت النار " (٢)

وبحديث جبريل المشهور : الايمان ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ،

---

١ - فتح البيان ٤/ ١٩

٢ - رواه أحمد ٥/ ٣١٧ وابو داود ٤/ ٢٢٥ والترمذى ٥/ ٤٢٤ وقال حسن صحيح غريب ، وصححه الألبانى ، المشكاة ١ : ٣٤

ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١) ثم يقول : "ففي هذا الحديث أن الايمان بالقدر من أصول الايمان ، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره ، فقد ترك أصلا من أصول الدين ، وجحده وشابه من قال الله فيه ( أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ) (٢)

واستدل كذلك بحديث علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع خصال ،

١ - "يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله" أي يقر بالتوحيد والرسالة ...

٢ - "ويؤمن بالموت" أي بفناء الدنيا وهلاكها بجميع أجزائها ...

٣ - "والبعث بعد الموت" اي احياء الله الموتى بعد الموت ، وحشره اياهم من القبور وغيرها ،

٤ - "ويؤمن بالقدر" (٣) اي بتقدير الله الذي قدر الجواهر والأعراض ، والذوات والصفات وجميع الكائنات وعينها " (٤)

واستدل ايضا بحديث ابن عمرو أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " (٥) وغير ذلك من الأحاديث المتواترة التي استدل بها القنوجي (٦) ، ثم قال بعد ذلك : "وكل هذه الأحاديث وما في معناها ، وما فيها من الوعيد الشديد على عدم الايمان بالقدر ، هي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم " (٧)

---

١ - رواه مسلم ١ : ٣٩ ، البخاري ١ : ١١٤
٢ - البقرة : ٨٥ الدين ٣/١٧٣
٣ - أخرجه الترمذي وقال : صحيح ٤ : ٤٥٢ ، وابن ماجه ١ : ١٨ ، وأحمد ١ : ٩٧ ، والحاكم ١ : ٣٢ صححه ووافقه الذهبي ، وابن أبي عاصم ، السنة ١ : ٥٩ ، وقال الألباني : اسناده صحيح وهو على شرط الشيخين
٤ - الدين ٣ : ١٥٣
٥ - مسلم ٤ : ٢٠٤٤
٦ - انظر حظيرة القدس ص : ٨
٧ - الدين ٣ : ١٧٧

فالنصوص السابقة دلالة واضحة على أن الله هو الخالق لأفعال العباد ، وأن العبد له اختيار ومشيئة فى فعله بعد ما أعطاه الله العقل والفهم والبصيرة ، فهو بذلك يميز الغث من الثمين ، والصحيح من السقيم ، وحينئذ يرجح أحد جانبى الفعل ، كما يقول :

" والذى ينبغى أن يقال فى هذا المقام هو أن فى الآدمى صفة يقال لها الاختيار ، وأنه على بصيرة منه ، يرجح أحد جانبى الفعل أو الترك على الجانب الاخر بباعثة الشوق أو النفرة ، بخلاف حركة المرتعش ، فانه لا اختيار له فيه أصلا ،

فمذهب الجبرية القائلة بأن حركات الآدمى مثل حركات الجمادات فاسد من أبطل الباطلات " (١)

هذا وقد بين القنوجى مذهب السلف مستشهدا بكلام ابن تيميه (٢) الذى يقول : " مذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه خالق كل شئ ، وربه ومليكه ، لا رب غيره ، ولا خالق سواه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شئ قدير ، وبكل شئ عليم ،

والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله ، فنهى عن معصية الله ومعصية رسوله ، فان أطاع كان ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه ، وكان له الأجر والثواب بفضل الله ورحمته ، وان عصى كان مستحقا للذم والعقاب ، وكان لله عليه الحجة البالغة ، ولا حجة لأحد على الله ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته ،

---

١ - الدين ٣ : ١٥٥

٢ - مجموع فتاوى ٨ : ٦٣

لكنه يحب الطاعة ، ويأمر بها ويثيب أهلها ، ويكرمهم ، ويبغض المعصية وينهى عنها ، ويعاقب أهلها ويهينهم " (١)

فالحق ليس مع الجبريين ولا مع القدريين ، بل هو بين الجبر والقدر ، كما يستشهد بكلام امام العرفاء جعفر الصادق سلام الله عليه وعلى آبائه الكرام :

" لا جبر ولا قدر ، ولكن أمر بين الأمرين " (٢)

---

١ - الدين ١ : ١٧٠

٢ - الدين ٣ : ١٥٦

تعقيب :

نلاحظ في كلام القنوجي - رحمه الله - أنه خالف المعتزلة والجبرية مخالفة صريحة ، حيث ذهب الى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق العباد وأعمالهم ، وهو مقدرها ومدبرها ، وأن العباد فاعلون حقيقة ولهم قدرة على أفعالهم الاختيارية ،

لا شك أن هذا الموقف الذى اتخذه القنوجى من الجبرية والقدرية هو تاييد لمنهج السلف ودفاع عن عقيدتهم ،

قال الامام البخارى رحمه الله : " فأما أفعال العباد فقد حدثنا : على بن عبد الله ، ثنا مروان بن معاويه ، ثنا أبو مالك عن ربعى بن حراش عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : ان الله يصنع كل صانع وصنعته ، وتلا بعضهم عند ذلك ( والله خلقكم وما تعملون ) فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة " (١)

وكما أجاب ابن تيميه رحمه الله بعد سؤال وجه اليه فى أفعال العباد فقال : " أفعال العباد مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، كما نص على ذلك سائر أئمة الاسلام : كالامام أحمد ومن قبله وبعده ، حتى قال بعضهم : من قال : ان أفعال العباد غير مخلوقة ، فهو بمنزلة من قال : ان السماء والأرض غير مخلوقة ، ...

وكان السلف قد أظهروا ذلك لما أظهرت القدرية أن أفعال العباد غير مخلوقة لله ، وزعموا أن العبد يحدثها أو يخلقها ، فبين السلف والائمة أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها " (٢)

---

١ - خلق أفعال العباد ص : ١٧
٢ - مجموع الفتاوى ٨ : ٤٠٦

وكذلك ابن القيم - رحمه الله - يرى أن الأشياء كلها مقدرة لله تعالى ، وأن أفعال العباد أمور ممكنة ، والله قادر على كل ممكن ، يقول نقدا للمعتزلة : " ان أفعالهم أشياء ممكنة ، والله قادر على كل ممكن ، فهو الذى جعلهم فاعلين بقدرته ومشيئته ، ولو شاء لحال بينهم وبين الفعل مع سلامة آلة الفعل منهم ، كما قال تعالى :

( ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ) (١)

وقال : ( ولو شاء ربك ما فعلوه ) (٢)

وقال : ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ) (٣)

فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وبين اللسان ونطقه ، وبين اليد وبطشها ، وبين الرجل ومشيها ، فكيف يظن به ظن السوء ، ويجعل له مثل السوء ، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده ، ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون لقدرته علوا كبيرا "

واستطرد ردا على الجبريه : " لا نظن به ظن السوء ، ونجعل له مثل السوء ، أنه يعاقب عباده على ما لم يفعلوه ولا قدرة لهم على فعله ، بل على ما فعله هو دونهم واضطرهم اليه وجبرهم عليه ، وذلك بمنزلة عقوبة الزمن اذا لم يطر الى السماء ، وعقوبة أشل اليد على ترك الكتابة ، وعقوبة الأخرس على ترك الكلام ، فتعالى الله عن هذين المذهبين الباطلين المنحرفين عن سواء السبيل " (٤)

---

١ - البقرة : ٢٥٣
٢ - الانعام : ١١٢
٣ - يونس : ٩٩
٤ - شفاء العليل ص : ١١٩

ثم نراه قد جاء بالحل الوسط بين المذهبين قائلا :

" قالت أهل السنة اضافتها ( أفعال العباد ) اليهم فعلا وكسبا ، لا ينفي اضافتها اليه سبحانه خلقا ومشيئة ، فهو سبحانه الذى شاءها وخلقها ، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة " (١)

ولمزيد من الايضاح لهذه المسألة العويصة التى زلت فيها الأقدام ، نقول ما نبه عليه ابن تيميه من نكتة نافعة فى هذا الموضع المشكل ،

ان قول القائل : هذا فعل هذا ، وفعل هذا ، لفظ فيه اجمال ، فانه تارة يراد بالفعل نفس الفعل ، وتارة يراد به مسمى المصدر ،

فاذا أريد بالفعل مسمى المصدر كصلاة الانسان وصيامه ونحو ذلك ، فالفعل هنا المفعول ، وهذا فعل الانسان ، ولا يقال انه فعل الله تعالى ، يقول تعالى :

( يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ) (٢)

فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن ، ومن هذا الباب قوله تعالى :

( والله خلقكم وما تعملون )

فانه فى أصح القولين ( ما ) بمعنى الذى ، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام ، وكما قال تعالى :

( أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ) (٣)

أى والله خلقكم وخلق الأصنام التى تنحتونها ، فالعمل عملهم والله خالق الكل ، ويكون فعل الله تعالى اذا أريد بها كونها مفعولة مخلوقة كسائر المخلوقات ، (٤)

---

١ - شفاء العليل ص : ١١٨
٢ - سبأ : ١٣
٣ - الصافات : ٩٥ ، ٩٦
٤ - انظر مجموع الفتاوى ٨ : ١٢١ ، رسالة الارادة والأمر ١ : ٣٥٩ ( ضمن المجموعة الكبرى )

## المبحث الثاني :

### مسألة الهدى والاضلال :

يتضح لنا فيما مضى من رأى القنوجي في مسألة خلق أفعال العباد ، وابطاله مذهب القدرية والجبرية في ذلك ، أنه يرى أن الله هو مالك كل دقيق وجليل وخالقه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ،

وأما مسألة الهدى والاضلال التي ضل فيها القدرية ، قد تناولها القنوجي بالرد عليهم، وقبل أن أذكر مناقشته معهم ،أرى أن أبين مراد القدرية في ذلك ،

فالقدرية يرون أن المراد من الهداية التسمية والحكم ،(١) أو يراد بها الارشاد والدعاء وابانة الحق (٢) ، أو أنها على معنى الثواب (٣) ،

وأما الاضلال فقد حملوه على عدة معان :

منها : أنه أضل عبدا بمعنى أنه سماه ضالا ، أو حكم بأنه ضال (٤) ،

منها : أنه جازاه على ضلالته (٥) ،

والقنوجي يخالف المعتزلة في مرادهم من الهداية والاضلال ، وبين أن الهداية نوعان : هداية دلالة وبيان ، وهداية توفيق واعانة ، يقول :

" والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء كما نطق به الكتاب ، وما نسبت الهداية الى القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم ، والاضلال الى الشيطان والأصنام ، فيقال : ان الهداية لها معنيان : هداية دلالة وبيان ،وهداية

---

١ - مقالات الاسلاميين ص : ٢٦٠ ، شفاء العليل ص : ١٧٧

٢ - أصول الدين ص : ١٤١ ، الارشاد ص : ٢١١

٣ - تنزية القرآن عن المطاعن ص : ٢٠

٤ - أصول الدين ص : ١٤١ ، الفصل ٤٩/٣

٥ - تنزية القرآن ص : ٢٠

توفيق واعانة ، وهذا الثاني خاص لله تعالى ، والأول يحصل من الرسول والقرآن ، فالرسول هو سبب الهداية ، كما أن الشيطان هو سبب الاضلال ، مع أن الله خالقهما " (١)

فالقنوجي يوضح ههنا أن الهدى والاضلال بيد الله تعالى ، فهو يهدى من يشاء من عباده ، ببيان طريق الخير ، وتوفيقه اياه واعانته له ، ويضل من يشاء من عباده وذلك بجعل صدورهم ضيقة تحول بينهم وبين قبول الحق ، يقول : " وان الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته ، وخذل الكافرين ، ولطف بالمؤمنين ، ونظر لهم ، وأصلحهم وهداهم ، ولم يلطف بالكافرين ، ولا أصلحهم ، ولا هداهم ، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين ، وان الله يقدر أن يصلح الكافرين ، ويلطف بهم ، حتى يكونوا مؤمنين ، كما قال تعالى : ( فلو شاء لهداكم اجمعين ) (٢) ولكنه أراد أن يكونوا كافرين ، كما علم ، وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم وختم على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة " (٣)

واستدل على أن الهادى والمضل هو الله تعالى بأدلة من الكتاب والسنة وفي ضمن تفسيره يرد على المعتزلة ،

قال تعالى :

( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ) (٤)

يقول فى تفسيره " والمعنى من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى

---

١ - بغية الرائد ص : ٣٠
٢ - الأنعام : ١٤٩
٣ - قطف الثمر ص : ١٥
٤ - الأنعام : ١٢٥

يقبله بصدر منشرح ، ـ كما روى ـ عن أبى جعفر المدائنى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، وقالوا : كيف شرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له ، قالوا : فهل لذلك من امارة يعرف بها ، قال : الانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت ، قبل لقاء الموت " (١)

( ومن يرد أن يضله ) بصرف اختياره اليه ( يجعل صدره ضيقا ) بحيث ينبو عن قبول الحق ، فلا يكاد يدخله الايمان ....... وفى الاية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر" (٢)

واستدل ايضا بقوله تعالى : ( كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ) (٣) على أن الأسباب والدواعى لحصول الفعل من صنع الله تعالى ، يقول فى تفسير هذه الاية : " المزين هو الله سبحانه ، ويدل عليه قوله : ( زينا لهم أعمالهم ) (٤) ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعى ، وحصولها لا يكون الا بخلق الله ، فدل ذلك على أن المزين هو الله سبحانه ، وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان ، ويرده ما تقدم " (٥)

واستدل كذلك بقوله تعالى : ( فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ) (٦) على أن الاغواء من خلق الله تعالى ، يقول : " اى فباغوائك اياى ، والاغواء الايقاع فى الغى .... ومراده بهذا الاغواء الذى جعله سببا لما سيفعله مع العباد ، وهو ترك السجود منه ، وأن ذلك كان باغواء الله له حتى اختار الضلالة على الهدى " (٧)

---

١ - اخرجه ابن جرير مرسلا ، واسناده ضعيف جدا ، أبو جعفر المدائني قال أحمد : كان يضع الحديث ويكذب ، أنظر تعليق محمود شاكر ١٢ : ٩٩
٢ - فتح البيان ٣/ ٢٣٤
٣ - الأنعام : ١٢٢
٤ - النمل : ٤
٥ - فتح البيان ٣/ ٢٣٢
٦ - الاعراف : ١٦
٧ - فتح البيان ٣/ ٢٩٤

وأوضح ايضا أن الهداية التى يهتدى اليها المؤمنون لا تنال الا بعد التوفيق من الله ، كما يقول فى تفسير قوله تعالى :

( اهدنا الصراط المستقيم ) (١)

" أى أرشدنا ، وقيل ثبتنا على المنهاج الواضح ، أو اهدنا فى الاستقبال كما هديتنا فى الحال ، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية والثبات عليه ،لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى ، قال الله تعالى : ( والذين اهتدوا زادهم هدى ) (٢) وقال تعالى : ( والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ) (٣)

ثم ذكر بعض الأحاديث فى تأييد ذلك :

عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال العبد ( الحمد لله رب العالمين ) قال الله حمدنى عبدى ، واذا قال ( الرحمن الرحيم ) قال اثنى على عبدى ، واذا قال : ( مالك يوم الدين ) قال مجدنى ، وربما قال فوض الى عبدى ، واذا قال ( اياك نعبد واياك نستعين ) قال هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل فاذا قال ( اهدنا الصراط المستقيم الخ ) قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل " (٤)

وعن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فلقى

---

١ - الفاتحة : ٥

٢ - محمد : ١٧

٣ - العنكبوت : ٦٩

٤ - رواه مسلم ١ : ٢٩٦

العدو فسمعته يقول يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ، قـــال فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها (١)=(٢)

---

١ - أخرجه أبو نعيم الأصفاني في الدلائل ص : ٣٩٤ ، وفي اسناده عبد السلام بن هاشم الأعور وهو ضعيف، لسان الميزان ٤ :١٨

٢ - فتح البيان ١ : ٤١

تعقيب :

ان القنوجي خالف المعتزلة مخالفة جذرية في مرادهم من الهداية والاضلال ، وأثبت أنهما لله تعالى فقط ، فهو يضل ويهدى من يشاء من عباده ، وهذا الموقف الذى اختاره القنوجي عبارة عن موقف قد سبق اليه علماء السلف وغيرهم ،

فقد نوه البغدادى الى خطأ القدرية في تحديدهم معنى الهدى والاضلال من جهتي اللغة والمعنى ، حيث يقول :

" وقد أخطأوا في تأويلهم من طريق اللغة ومن طريق المعنى ،

أما من طريق اللغة فلأن من سمى غيره ضالا أو نسبه الى الضلالة فانما يقال فيه أنه ضلله بالتشديد ولا يقال أضله ،

وأما من طريق المعنى فمن جهة أن الاضلال من الله لو كان بمعنى التسمية والحكم لوجب أن يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أضل الكفرة لأنه سماهم ضالين وحكم بضلالتهم ، ووجب أن يقال أن الكفرة والشياطين قد أضلوا المؤمنين والأنبياء لأنهم قد سموهم ضالين ....... واذا بطل هذا صح أن الهداية والاضلال من الله تعالى " (١)

كما أثبت ابن تيميه - رحمه الله - بأن الله هو مالك الملك ، وبيده كل شئ وهو الذى يضل ويهدى ، يقول : " ان كل ما في الوجود فهو مخلوق له ، خلقه بمشيئته وقدرته ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، ويضل ويهدى ، ويسعد ويشقى ، ويؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويشرح صدر من يشاء للاسلام ، ويجعل صدر من يشاء ضيقا ، كأنما يصعد في السماء ، .....

---

١ - أصول الدين ص : ١٤١

وهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، وله فيما خلقه حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ، ورحمة عامة وخاصة ، وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ،لا لمجرد قدرته وقهره ، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته " (١)

والمسألة هذه متفق عليها بين الرسل جميعا ، ونطقت به الكتب المنزلة عليهم ، كما يقول ابن القيم : " وقد اتفقت رسل الله من أولهم الى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأن الهدى والاضلال بيده لا بيد العبد ، وأن العبد هو الضال أو المهتدى " (٢)

---

١ - مجموع الفتاوى ٨/٧٨

٢ - شفاء العليل ص : ١٤٢

## المبحث الثالث :

## الاستطاعة :

ان القنوجي - رحمه الله - توجه بالنقد إلى المعتزلة فى مسألة الاستطاعة ، حيث قالوا : ان الاستطاعة لا تكون الا قبل الفعل ،

يقول ابو الحسن الأشعرى مصورا مذهبهم :

" وأجمعت المعتزلة على أن الاستطاعة قبل الفعل ، وهى قدرة عليه وعلى ضده ، وهى غير موجبة للفعل ، وأنكروا بأجمعهم أن يكلف الله عبدا ما لا يقدر عليه " (١)

وبناء على مذهبهم الفاسد فهم يقررون أن الله أعطى القدرة لجميع عباده من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر على سواء ، وينكرون أن الله خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان ، بل هذا بنفسه رجح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية ، كالوالد الذى أعطى كل واحد من بنيه سيفا ، فهذا جاهد به فى سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق ، (٢)

فالقنوجى ينتقد رأيهم ويرى أن المعونة التى خص الله بها المؤمن غير التى خص بها الكافر ، يقول : " اذا قصد العبد فعل الخير يخلق الله له القدرة على فعله ، وان قصد فعل الشر يخلق له القدرة على فعله ، واذا ضيع العبد القدرة على فعل الخير استحق الذم والعقاب ، ولهذا ذم الكفار على عدم استطاعتهم للسمع ، ولما كانت الاستطاعة عرضا وجب أن تكون مقارنة مع

---

١ - مقالات الاسلاميين ص : ٢٣٠ ، انظر شرح الأصول الخمسة ص : ٣٩٦
٢ - انظر شرح الطحاوية ص : ٤٩٠

الفعل ، (١) دون ان تكون سابقة " (٢)

ويرى ان الاستطاعة التى تكون قبل الفعل هى عبارة عن سلامة الآلات والأسباب ،كما يقول ردا على المعتزلة فى استدلالهم :

" واستدل القائلون على ان الاستطاعة هى قبل الفعل ، بان التكليف حاصل بالضرورة قبل الفعل ، مع ان الكافر مكلف بالايمان ، والتارك للصلاة مكلف بعد دخول الوقت ، فان لم تكن الاستطاعة ثابتة للزم تكليف العاجز وهذا باطل ،

وصاحب المتن (٣) أجابه قائلا :

" ويقع هذا الاسم على سلامة الأسباب والآلات والجوارح ، كما فى قوله تعالى :

( ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ) (٤)

هذا ويرى أن الاستطاعة والقوة والطاقة والقدرة أسماء متقاربة ، (٥)

ويتصل بهذا فكرة تكليف مالا يطاق ، لما لها من ارتباط وثيق بموضوع الاستطاعة ،

ان القنوجى يرى أن العبد لا يكلف بما لا يطيق ، سواء كان ذلك ممتنعا أو ممكنا ، وان كان جائزا ، يقول : " لا يكلف العبد بما ليس فى وسعه ، سواء كان ذلك ممتنعا كالجمع بين الضدين أو ممكنا ، وهذا متفق عليه لقوله تعالى : ( لا يكلف الله نفسا الا وسعها ) (٦)

والأمر فى قوله تعالى :

( أنبئونى باسماء هؤلاء ) (٧) للتعجيز لا للتكليف " (٨)

---

١ - ان القنوجى لا يريد بالاستطاعة فى هذا المقام استطاعة الصحةوالوسع وسلامة الأسباب والآلات والجوارح فانها تتقدم الأفعال ،

٢ - بغية الرائد ص : ٣٠

٣ - هو نجم الدين عمر النسفى

٤ - آل عمران : ٩٧

٥ - بغية الرائد ص : ٣٠

٦ - البقرة : ٢٨٦

٧ - البقرة : ٣١

٨ - بغية الرائد : ٣٠

تعقـــــيب :

نلاحظ فى كلام القنوجى حول مسألة الاستطاعة أنه أيد مذهب من يذهب الى ان العبد لا يتمكن من القيام بما كلفه الله به من أداء الواجبات وترك المنهيات الا بعد ما أعطاه الله له القدرة على ذلك ،

كما أنه يرى أن الاستطاعة ـ والقوة والطاقة والوسع ألفاظ متقاربة ـ تنقسم الى قسمين :

استطاعة قبل الفعل : وهى القدرة التى من جهة الصحة والوسع وسلامة الأسباب ،

استطاعة مقارنة للفعل : وهى الاستطاعة التى يجب بها الفعل ،

لا شك أن هذا الموقف الذى اختاره القنوجى هو تاييد ودفاع عن مذهب السلف ،

يقول أبو جعفر الطحاوى :

" والاستطاعة التى يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذى لا يجوز أن يوصف المخلوق به فهى مع الفعل ،

واما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات ، فهى قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى :

( لا يكلف الله نفسا الا وسعها ) (١)

وقال ابن تيميه :

" والصواب الذى دل عليه الكتاب والسنة أن الاستطاعة متقدمة على الفعل ومقارنة له ايضا ،

---

١ ـ العقيدة الطحاوية ص : ٥١

فالاستطاعة نوعان : متقدمة صالحة للضدين ، ومقارنة لا تكون الا مع الفعل ، فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له ، وهذه هي الموجبة للفعل المحققة له ،

فالأول كما قال تعالى :

( ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ) (١)

ولو كانت هذه الاستطاعة لا تكون الا مع الفعل لما وجب الحج الا على من حج ، ولما عصى أحد بترك الحج ، ولا كان الحج واجبا على أحد قبل الاحرام به ، بل قبل فراغه .......

وأما الاستطاعة المقارنة الموجبة ،فمثل قوله تعالى :

( ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ) (٢)

فهذه الاستطاعة هي المقارنة الموجبة ،

فالأولى : هي الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي والثواب والعقاب ،

والثانية : هي الكونية التي هي مناط القضاء والقدر ، وبها يتحقق وجود الفعل " (٣)

أما كلام القنوجي في تكليف ما لا يطاق فمجمل ، ويميل الى مذهب الأشعرية ، أما مذهب السلف فهو كما فصل ابن تيمية قائلا :

" وليس في السلف والأئمة من أطلق القول بتكليف ما لا يطاق .......

ولهذا كان المقتصدون من هؤلاء كالقاضي أبي بكر الباقلاني وأكثر أصحاب أبي الحسن ، وكالجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، كالقاضي أبي يعلى ، وأمثاله يفصلون في القول بتكليف ما لا يطاق ، فيقولون :

---

١ - آل عمران : ٩٧

٢ - هود : ٢٠

٣ - مجموع الفتاوى ٨ : ٣٧٢ ، وانظر شرح الطحاوية ص : ٤٨٨ ،شفاء العليل ص : ٢٢٢

تكليف ما لا يطاق لعجز العبد عنه لا يجوز ، وأما ما يقال أنه لا يطـــاق للاشتغال بضده فيجوز تكليفه ، وهذا لأن الانسان لا يمكنه فى حال واحدة أن يكون قائما قاعدا ، ففى حال القيام لا يقدر أن يفعل معه القعود ، ويجوز أن يؤمر حال القعود بالقيام ، وهذا متفق على جوازه بين المسلمين ، بـــل عامة الأمر والنهى هو من هذا النوع ، لكن هل يسمى هذا تكليف مـــا لا يطاق ، ؟ فيه نزاع ،

قيل : ان العبد لا يكون قادرا الا حين الفعل ، وأن القدرة لا تكـــون الا مع الفعل ، كما يقوله أبو الحسن الأشعرى وكثير من نظار المثبتة للقدر ، فعلى قول هؤلاء كل مكلف فهو حين التكليف قد كلف ما لا يطيقه حينئذ ، وان كان قد يطيقه حين الفعل بقدرة يخلقها الله له وقت الفعل ، ولكن هـــذا لا يطيقه لاشتغاله بضده وعدم القدرة المقارنة للفعل ، لا لكونه عاجزا عنه ،

وأما العاجز عن الفعل كالزمن العاجز عن المشى والأعمى العاجز عـــن النظر ونحو ذلك ، فهؤلاء لم يكلفوا بما يعجزون عنه ، ومثل هذا التكليـــف لم يكن واقعا فى الشريعة باتفاق طوائف المسلمين " (١)

---

١ - مجموع الفتاوى ٨ : ٤٦٩

## المبحث الرابع :

## مسألة اللطف والأصلح :

ومن ضلالات المعتزلة قولهم : ليس عند الله تعالى شئ أصلح مما أعطاه جميع الناس ، وهذه الفكرة انبثقت عن قرارهم الفاسد ، حيث قالوا بوجوب اللطف والأصلح على الله تعالى ، وأنه يجب عليه أن يفعلهما مع خلقه ، (١)

ان القنوجي قد عارض المعتزلة فى المسألة هذه معارضة شديدة ، وبين أنه لا يجب عليه شئ بايجاب غيره ، بل لا يعقل فى حقه الوجوب ، الا ما أخبرنا أنه سبحانه كتب على نفسه ، فالله تعالى قد يعد شيئا فيفى بالوعد كرما وفضلا ، كما قال : ان الله ( كتب على نفسه الرحمة )(٢) ، وان رحمتى سبقت غضبى " (٣) يقول : " ولا يجب عليه اللطف الجزئى الخاص والأصلح الخاص ، والا لما خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا والاخرة ، فان العدم أصلح له من الوجود فى عالم الشهود ، ولما كان له امتنان على العباد ،وقد

---

١ - معنى اللطف : هو ان يفعل الله تعالى ما يقرب العبد الى الطاعة ويبعده عن المعصية ، يقول القاضى عبد الجبار :
" ان اللطف هو كل ما يختار عنده المرء الواجب ، ويتجنب القبيح ، أو ما يكون عنده أقرب اما الى اختيار الحسن أو الى ترك القبيح " شرح الأصول الخمسة ص : ٥١٩
الصلاح : ما قابل الفساد ، كالايمان فى مقابلة الكفر ،
الأصلح : ما قابل الصلاح ككونه فى أعلى الجنان فى مقابلة كونه فى أسفلها ،
اذا كان هناك أمران أحدهما صلاح والآخر أصلح وجب على الله أن يفعل الأصلح ، انظر نفس المرجع ص : ٥٢٣ ، الفصل ٣ : ١٦٤

٢ - الأنعام : ١٢

٣ - البخارى ١٣ : ٤٠٤ ، مسلم ٤ : ٢١٠٧

قال : ( بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ) (١)

ولما كان له استحقاق شكر في الهداية ، وافاضة أنواع الخيرات لكونها اداء للواجب ، ولما كان امتنانه على النبي صلى الله عليه وسلم فوق امتنانه على أبي جهل ، اذ فعل بكل منهما غاية مقدورة من الأصلح له ، ولما كان لسؤال العصمة والتوفيق وكشف الضر والباساء والبسط في الخصب والرخاء معنى ، لان ما يفعله في حق كل واحد فهو مفسدة له يجب على الله تركها" (٢)

وجميع أفعال الله تعالى عدل وحق ، وهي تتضمن الحكمة ، فالشرور لا تنسب اليه مع أنه خلقها عدلا ، كما خلق الطاعة فضلا ، لو شاء لهدى الناس جميعا ، لكن لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها هو سبحانه ، يقول :

" لا قبيح منه ، بل كل ما يخلقه ففيه حسن وحكمة باعتبار خير ، وبهذا ورد حديث " الخير كله بيديك والشر ليس اليك " (٣) ، نعم قد يكون قبيحا وشرا لبعض الناس فهذا شر جزئي ، واما شر كلي أو شر مطلق فالله تعالى منزه عنه ، ولهذا لا يضاف اليه الشر مفردا قط ، بل اما أن يدخل في عموم الخلق بقوله سبحانه : ( الله خالق كل شيء ) (٤) وقوله : ( قل كل من عند الله ) (٥) أو يضاف الى السبب كقوله : ( من شر ما خلق ) (٦) أو يحذف فاعله كقوله : ( وانا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ) (٧) وبالجملة تنسب الطاعة اليه لأنها محض خير ، ولا تنسب اليه السيئة لأنها في صورة شر تأدبا مع ان الكل من عنده فخلق الطاعة فضل وخلق المعصية عدل " (٨)

---

١ ـ الحجرات : ١٧
٢ ـ الانتقاد ص : ٣٧
٣ ـ مسلم ١ : ٥٣٥
٤ ـ الزمر : ٦٢
٥ ـ النساء : ٧٨
٦ ـ الفلق : ٢
٧ ـ الجن : ١٠
٨ ـ الانتقاد ص : ٣٧

وتتعلق بهذه القضية مسألة الحسن والقبح ، هل هما شرعيان أو عقليان ؟ ، وقبل ان أبين موقف القنوجي في هذه المسألة أرى من المناسب أن أشير الى الخلاف في معنى الحسن والقبح عند العلماء ،

الحسن : ضد القبح ونقيضه وهو الجمال ،(١)

قال الراغب : " الحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه ، وذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ، ومستحسن من جهة الهوى ، ومستحسن من جهة الحس " (٢)

القبح : ضد الحسن ، ويكون في الصورة والفعل ،

قبح يقبح ككرم قبحا ( بالضم ) وقبحا ( بالفتح ) وقباحا ( كغراب )وقبوحا ( كقعود ) وقباحة ( كسحابة ) وقبوحة ( بالضم ) فهو قبيح ، وقبحه الله قبحا وقبوحا : أقصاه ونحاه وباعده عن الخير كله ، وفي القرآن " واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين " (٣) اى من المبعدين عن كل خير " (٤)

الحسن والقبح يطلقان على ثلاثة معان :

١ - ملاءمة الغرض ومنافرته ، فما وافق الغرض كان حسنا ، وما خالفه كان قبيحا ، وما ليس كذلك لم يكن حسنا ولا قبيحا ،

٢ - صفة الكمال والنقص ، فالحسن : كون الصفة صفة كمال ، والقبح : كون الصفة صفة نقصان ، يقال العلم حسن والجهل قبيح ،

والمعنى الأول والثاني محل اتفاق بين علماء الكلام في انهما أمران عقليان يدركهما العقل ، فكون الفعل ملائما للغرض أو منافرا له أمر يستقل العقل

---

١ - لسان العرب ( حسن )
٢ - المفردات ص : ١١٨
٣ - القصص : ٤٢
٤ - تاج العروس ( قبح )

بادراكه ، كما أن كون الصفة صفة كمال أو نقص أمر ثابت للصفات فى أنفسها ، يستقل العقل بادراكه ، ولا تعلق له بالشرع ، (١)

الا ان ابن تيميه - رحمه الله - يرى ان كون الصفة صفة كمال او نقص يرجعان الى المعنى الثانى - الملائمة والمنافرة - يقول :

" ومن الناس من أثبت قسما ثالثا للحسن والقبح وادعى الاتفاق عليه ، وهو كون الفعل صفة كمال او صفة نقص ، وهذا القسم لم يذكره عامة المتقدمين المتكلمين فى هذه المسألة ، ولكن ذكره بعض المتأخرين كالرازى وأخذه عن الفلاسفة ،

والتحقيق أن هذا القسم لا يخالف الأول ، فان الكمال الذى يحصل للانسان ببعض الأفعال هو يعود الى الموافقة والمخالفة ، وهو اللذة والألم ، فالنفس تلتذ بما هو كمال لها ، وتتألم بالنقص ، فيعود الكمال والنقص الى الملائم والمنافر ، (٢)

٣ - كون الفعل بحيث يتعلق به المدح فى العاجل والثواب فى الآجل ، وكونه بحيث يتعلق به الذم عاجلا والعقاب آجلا ، فالحسن على هذا ما تعلق به المدح فى العاجل والثواب فى الآجل ، والقبح ما تعلق به الذم والعقاب عاجلا وآجلا ، (٣)

فالحسن والقبح بهذا المعنى هو محل النزاع

فالأشاعرة : منعوا أن يكون بهذا المعنى عقليا ، فتعلق المدح والثواب والذم والعقاب بأفعال المتكلمين تابع لأمر الشارع ونهيه ، (٤)

---

١ - انظر شرح المواقف ٨ : ١٨٢
٢ - رسالة الاحتجاج بالقدر ٢ : ١٠٤ ( ضمن مجموعة الرسائل الكبرى )
٣ - انظر مفتاح دار السعادة ٢ : ٤٤ ، الاربعين فى أصول الدين ص : ٢٤٦
٤ - الارشاد ص : ٢٥٨

أما المعتزلة : فانهم يقولون ان للفعل فى نفسه جهة محسنة مقتضية استحقاق فاعله مدحا وثوابا مع قطع النظر عن الشرع ، أو جهة مقبحة تقتضى استحقاق فاعله ذما وعقابا ، ويمكن للعقل ادراك حسن الأفعال وقبحها من غير حاجة الى الشرع ، (١)

وأما السلف : فهم يرون أن بعض الأفعال حسنة فى نفسها ، وبعضها قبيح كذلك ، فالأفعال ليست سواء فى نفس الأمر بقطع النظر عن ورود الشرع ، فالفعل عندهم حسن فى نفسه ، وحسن بايجاب الشارع له ، كما أن بعض الأفعال قبيح فى نفسه وقبيح بالنهى عنه ،

يقول ابن القيم : " من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساويا للخبز والماء والفاكهة ونحوها ، وانما الشارع فرق بينهما ، فأباح هذا وحرم هذا ، (٢)

والسلف وان قالوا بالحسن والقبح الذاتيين ، لا يرون ترتب العقاب على فعل القبيح أمرا لازما ، ذلك أن العقاب عندهم وان كان سببه قائما الا أنه مشروط بورود الشرع دفعا للعذر ، فلا يعاقب انسان بناء على مقتضى ما أدرك قبل ورود الشرع من قبح ، فلولا ورود الشرع بالعقاب لم يعاقب فاعل القبيح وان كان مستحقا للعقاب ، قال تعالى : ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) (٣) وقال : ( ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع أياتك ونكون من المؤمنين (٤) ) (٥)

---

١ - انظر المغنى ١٤ : ١٥١ ، الارشاد ص : ٢٥٨ ، شرح المواقف ص : ٣٠٠ تحقيق احمد المهدى ،
٢ - مفتاح دار السعادة ٢ : ٥
٣ - الاسراء : ١٥
٤ - القصص : ٤٧
٥ - الحسن والقبح ص : ٢٩

يقول ابن القيم : " والتحقيق فى هذا أن سبب العقاب قائم قبل البعثة ، ولكن لا يلزم من وجود سبب العذاب حصوله ، لأن هذا السبب قد نصب الله له شرطا وهو بعثة الرسل ، وانتفاء التعذيب قبل البعثة هو لانتفاء شرطه لا لعدم سببه ومقتضيه وهذا فصل الخطاب ، وبه يزول كل اشكال فى المسألة " (١)

وقد عارض القنوجى رأى المعتزلة فى هذا ، وبين انهما شرعيان ،فالحسن ما أمر به الشرع ويثاب فاعله ، والقبح ما نهى عنه ويعاقب فاعله ، ولا مدخل للعقل فيهما ، كما بين ان الحسن والقبح على مراتب ،

يقول : " فليس للعقل حكم فى حسن الأشياء وقبحها ، بل الحكم بحسنها وقبحها فيها خاص لله تعالى ، وعليه عامة الفقهاء ، بأن الحسن ما أمر الله به ، والقبح ما نهى عنه ، فهما راجعان الى أمر الشرع ونهيه ، ولا مدخل للعقل فيهما ، فالحسن موجب للثواب ، كما أن القبح موجب للعقاب، خلافا للمعتزلة فان الحسن عندهم ما يستحسنه العقل والقبح ما يستقبحه العقل ،

ثم الحسن والقبح على مراتب :

منها ما يكون حسنا بعينه كالايمان بالله تعالى ، والعبادة وشكر النعمة ،
ومنها ما هو حسن لمعنى فى غيره كبناء الرباطات والمساجد واماطة الأذى عن الطريق " (٢)

---

١ - مفتاح دار السعادة ٢ : ٣٩

٢ - بغية الرائد ص : ٣٣ ، الانتقاد ص : ٣٨

تعقـــــيب :

ان القنوجى قد عارض راى المعتزلة فى اللطف والأصلح ، وأوضح ان اللــه تعالى هو القادر المطلق ، لا يجب عليه شئ ، الا ما أخبرنا سبحانـــــه وتعالى عن نفسه ، وهو الذى خلق العباد وأعمالهم ، وفعله سبحانه لا يخلو عن حكمة وعدل ،

ففى معارضته للمعتزلة دفاع عن مذهب السلف ، وهذا هو المذهب الحـــق الذى لا محيد عنه ، يقول الأشعرى فى رده على الجهمية :

" يقال لهم اليس قد آلم الله عز وجل الأطفال فى الدنيا بآلام أوصلهـــا اليهم ؟ ، كنحو الجذام الذى يقطع أيديهم وأرجلهم وغير ذلك مما يؤلمهم بـه ، وكان ذلك سائغا جائزا ، فاذا قالوا نعم ، قيل لهم فاذا كان هذا عدلا فما انكرتم أن يؤلمهم فى الآخرة ويكون ذلك منه عدلا ، فان قالوا آلمهم فى الدنيا ليعتبر بهم الآباء ، قيل لهم فاذا فعل بهم ذلك فى الدنيا ليعتبر بهـــم الآباء ، وكان ذلك منه عدلا فلم لا يؤلم أطفال الكافرين فى الآخرة ليغيظ بذلك آباءهم ويكون ذلك منه عدلا " (١)

وما ذكر القنوجى ان الحسن والقبح شرعيان ، نرى أن العبارة لا تمثـــل مذهب السلف ، بل تعبر عن مذهب الأشعرية ، (٢)

أما مذهب السلف فهو أن الحسن والقبح عقليان ، ولا شك أن جميـــع الشرائع السماوية مغروز حسنها فى العقول ، واذا تأمل أحد فيما شرع الله من العبادات كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها ، يجد حسنها ما تشهد به الفطـــرة وتقربه العقول ، لما اشتملت عليه من حكم ومصالح ،

---

١ - الابانة ص : ٥٣ ، وانظر الاقتصاد ص : ١١٥ ،
٢ - انظر مذهب الأشعرية ، المواقف ص ٣٢٣ ، الارشاد ص : ٢٥٨ ، الاقتصاد ص : ١١٠

يقول ابن القيم - رحمه الله - :

" الشرائع كلها فى أصولها وان تباينت متفقة مركوزة حسنها فى العقول ، ولو وقعت على غير ما هى عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة " ( ١ )

ويقول ايضا : " وكل من تكلم فى علل الشرع ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد فلا يمكنه ذلك الا بتقرير الحسن والقبح العقليين ، اذ لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمر والنهى لم يتعرض فى اثبات ذلك لغير الأمر والنهى فقط " ( ٢ )

نلاحظ أن مذهب السلف هو وسط بين المعتزلة النفاة للقدر والأشعرية النفاة للحكمة والتعليل ، كما يقول ابن تيميه - رحمه الله - :

" وقد ظن بعض الناس أن من يقول بتحسين العقل وتقبيحه ينفى القدر ، ويدخل مع المعتزلة فى مسائل التعديل والتجوير ، وهذا غلط ، بل جمهور المسلمين لا يوافقون المعتزلة على ذلك ، ولا يوافقون الأشعرية على نفى الحكم والأسباب ، بل جمهور طوائف المسلمين يثبتون القدر ، ويقولون : ان الله خالق كل شئ من أفعال العباد وغيرها ، ويقولون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " ( ٣ )

---

١ - مفتاح دار السعادة ٢ : ٢
٢ - " " ٢ : ٤٢ ، مدارج السالكين ١ : ٢٣٢
٣ - مجموع الفتاوى ٨ : ٤٢٨

# الفصل الخامس

## الايمان

المبحث الأول : حقيقة الايمان

المبحث الثانى : زيادة الايمان ونقصانه

المبحث الثالث : الاستثناء فى الايمان

المبحث الرابع : العلاقة بين الاسلام والايمان

المبحث الخامس : حكم مرتكب الكبيرة

المبحـــــث الأول :

حقيقـــة الا يمـــان :

ان الكلام فى حقيقة الا يمان يعتبر من أهم المسائل التى تناولها العلماء بالعناية والا هتمام ، وان الخلاف فى هذا قد حدث منذ وقت مبكر بيـــن الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

يقول الا مام ابن جرير رحمه الله : " فكان من قديم الحادثة بعد رســول الله صلى الله عليه وسلم من الحوادث التى تنازعت فيها أمته اختلافها فـــى أفضلهم بعده صلى الله عليه وسلم ، وأحقهم بالا مامة وأولا هم بالخلافة . . . ـ الى أن يقول ـ ثم القول فى الا يمان هل هو قول وعمل ، أم هو قول بغير عمل ؟ وهل يزيد وينقص أم لا زيادة ولا نقصان " (١)

والمذاهب التى اختلفت فى معنى الا يمان وحقيقته ، وانحرفت عـــن الصواب فيه ، هى :

١ ـ الجهمية : وهم يقولون : ان الا يمان هو المعرفة بالله فقط ، وأما ما سوى ذلك من الا قرار باللسان وأعمال القلوب والجوارح فليست مـــن الا يمان ، (٢)

٢ ـ الكرامية (٣) : الذين يزعمون ان الا يمان هو الا قرار والتصديـــق

---

١ ـ الا مام ابن جرير الطبرى ودفاعه عن عقيدة السلف ص : ٥٧٤

٢ ـ انظر مقالات الاسلاميين ١ : ١٣٢ ، الفرق بين الفرق ص : ٢١١ ، الملل والنحل ١ : ١١١

٣ ـ هم أتباع ابى عبد الله محمد بن كرام ، وانه كان ممن يثبت الصفـــات الا أنه ينتهى فيها الى التجسيم والتشبيه ، الملل ١ : ١٤٤

باللسان دون القلب . (١)

٣ - المرجئة (٢) : الذين قالوا : ان الايمان : المعرفة بالقلب والاقرار باللسان فقط ، (٣) وبه يقول الأشاعرة . (٤)

٤ - الخوارج : هم يقولون : ان جميع ما افترضه الله ايمان مع ترك الكبائر . (٥)

والقنوجي يصور بعض الاختلاف في الايمان ، فقائل يقول : "الايمان هو تصديق النبي صلى الله عليه وسلم بما جاء من عند الله تعالى في جميع ما علم بالضرورة مجيئه من عنده تعالى اجمالا ، فانه كاف في الخروج عن عهدة الايمان ، ولا ينحط درجته عن الايمان التفصيلي . (٦)

وذهب بعض المحققين الى أن الايمان هو التصديق بالقلب ، وانما الاقرار شرط لاجراء الأحكام في الدنيا ، لما أن تصديق القلب أمر باطن لابد له من علامة ، فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله ، وان لم يكن مؤمنا في أحكام الدنيا ، ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق فبالعكس ، وهو اختيار الشيخ ابى المنصور الماتريدى ، (٧) وقال التفتازاني : والنصوص

---

١ - مقالات الاسلاميين ١ : ١٤١ ، الايمان لابن تيميه ص : ١٢١

٢ - هم الذين يؤخرون العمل عن الايمان ، فالايمان عندهم مقتصر على المعرفة بالله ، ويقولون : لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، الملل ١ : ١٨٦

٣ - مقالات الاسلاميين ١ : ١٣٨ ، الايمان لابن تيميه ص ١٢١

٤ - شرح جوهرة التوحيد ص : ٤٦ ، أصول الدين ص : ٢٤٨ ، التمهيد ص : ٣٤٦

٥ - اصول الدين ص : ٢٤٩

٦ - بغية الرائد ص : ٤٦

٧ - انظر الفتاوى ٧ : ٥٨٢

متعاضدة لذلك ، قال تعالى : ( اولئك كتب فى قلوبهم الايمان ) (١) وقال تعالى : ( وقلبه مطمئن بالايمان ) (٢) وقال : ( ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم ثبت قلبى على دينك " (٤) وقال لأسامه حين قتل من قال : لا اله الا الله ، هلا شققت قلبه (٥) . (٦)

وقال فى ضمن تفسيره لقوله تعالى :

( وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) (٧)

" هذه الاية تنقض على الكرامية مذهبهم ان الايمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان " (٨)

هذه الأقوال بعيدة عن حقيقة الايمان ، والقائلون بها لم يوفقوا الى الصواب فيه ، فأخذ القنوجى يبين حقيقة الايمان قائلا : " الايمان عند أهل الحديث عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالأركان ، وهذا هو الايمان الكامل ، وبدون العمل يعد ناقصا ، والنصوص من

---

١ - المجادلة : ٢٢
٢ - النحل : ١٠٦
٣ - ٧ - الحجرات : ١٤
٤ - رواه أحمد ٢ : ٤ ، والترمذى ٤ : ٤٤٨ وقال : حديث حسن ،
٥ - رواه مسلم ١ : ٩٦
٦ - الانتقاد ص : ٥٨
٨ - فتح البيان ٩ : ٨٨

الكتاب والسنة تؤيد ذلك ، وهذا هو الحق والصواب" (١)

ويقول ايضا : "ان الايمان الشرعي المطلوب لا يكون الا اعتقادا وقولا وعملا ، هكذا ذهب اليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وابو عبيد وغير واحد اجماعا أن الايمان قول وعمل (٢) ، . . . . .

والدليل على أن الأعمال من الايمان قوله صلى الله عليه وسلم : "الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان (٣)" (٤)

ويقول أيضا : "الايمان قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، مطابقا للكتاب والسنة والنية لقوله صلى الله عليه وسلم : "انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى (٥)" (٦)

---

١ - بغية الرائد ص : ٤٦ ، دعوة الداع ص : ٤٤
٢ - انظر شرح الطحاوية ص : ٣٧٣
٣ - البخارى ١ : ٥١ ، مسلم ١ : ٦٣
٤ - فتح البيان ١ : ٦٥
٥ - تقدم تخريجه
٦ - قطف الثمر ص : ١٢

تعقيب :

ان ما ذهب اليه القنوجي - رحمه الله - في بيان حقيقة الايمان ، انه قول وعمل هو الصواب ، فهو بهذا أبطل أقوال المخالفين من الجهمية والكرامية وغيرهم من الفرق المخالفة للسلف ، وأثبت ان الايمان لا يعتبر الا اذا كان مقترنا باعتقاد القلب عمل الجوارح ،

هذا الموقف الذى اختاره القنوجي هو تأييد ودفاع عن مذهب السلف ،

قال البخارى : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص ، (١)

وقد ساق ابن جرير الطبرى بسنده أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " الايمان قول وعمل ، لا يستقيم هذا الا بهذا ، ولا هذا الا بهذا " (٢)

ثم يقول : " فأخبر صلى الله عليه وسلم ان اسم الايمان المطلق ، انما هو للمعرفة بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح ، دون بعض ذلك ،

وأما من النظر فما لا يدفع صحته ذو فطرة صحيحة ، وذلك الشهادة لقول قائل قولا أو وعد عدة ثم أنجز وعده ، وحقق بالفعل قوله ، صدق فلان قوله بفعله ، ولا يدفع مع ذلك ذو معرفة بكلام العرب صحة القول بأن الايمان التصديق ، فاذا كان الايمان في كلامها التصديق ، والتصديق يكون بالقلب وباللسان والجوارح ، وكان تصديق القلب العزم والاذعان ، وتصديق اللسان الاقرار ، وتصديق الجوارح السعي والعمل ، وكان المعنى الذى به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين هو اتيانه بهذه المعاني

---

١ - فتح البارى ١ : ٤٧

٢- اسناده حسن لكنه مرسل ،لان محمد بن علي الباقر تابعي لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ،

الثلاثة ، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه أنه لا يستحق اسم مؤمن ، وأنه لو عرف وعلم وجحد بلسانه وكذب وأنكر ما عرف من توحيد ربه أنه غير مستحق اسم مؤمن ، فاذا كان كذلك وكان صحيحا أنه غير مستحق العارف غير المقر اسم مؤمن ، ولا المقر غير العارف مستحق ذلك كان كذلك غير مستحق ذلك بالاطلاق العارف المقر غير العامل " (١)

والبغوي (٢) يحكي اتفاق الصحابة والتابعين في هذا يقول : " اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الايمان ، ثم قال : قالوا : ان الايمان قول وعمل وعقيدة ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية على ما نطق به القرآن في الزيادة وجاء الحديث في النقصان في وصف النساء " (٣)

كما أن ابن تيميه - رحمه الله - بين فساد ما تعتقده الجهمية ومن وافقهم في معنى الايمان ، وذلك من وجوه :

١ - انهم اخرجوا ما في القلوب من حب الله وخشيته ونحو ذلك أن يكون من نفس الايمان ،

٢ - جعلوا ما علم ان صاحبه كافر - مثل ابليس وفرعون واليهود وأبي طالب وغيرهم - أنه انما كان كافرا ، لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه في الباطن ، وهذا مكابرة للعقل والحس ، وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزما لعدم العلم بأنه صادق ونحو ذلك ،

---

١ - تهذيب الآثار ٢ : ١٩٧

٢ - الامام العلامة القدوة الحافظ شيخ الاسلام محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر صاحب التصانيف توفي سنة ٥١٦ ، سير أعلام النبلاء ١٩ : ٤٣٩

٣ - شرح السنة ١ : ٣٨

٣ - انهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الله ورسوله والتثليث وغير ذلك قد يكون مجامعا لحقيقة الايمان الذى فى القلب ويكون صاحب ذلك مؤمنا عند الله سعيدا فى الدار الآخرة ، وهذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الاسلام ،

٤ - انهم جعلوا من لا يتكلم بالايمان قط مع قدرته على ذلك ،ولا أطاع الله طاعة ظاهرة مع وجوب ذلك عليه وقدرته ، يكون مؤمنا بالله تام الايمان سعيدا فى الدار الآخرة ، وهذه الفضائح تختص بها الجهمية دون المرجئة من الفقهاء وغيرهم ،

٥ - وهو يلزمهم ويلزم المرجئة ، انهم قالوا : ان العبد قد يكون مؤمنا ، تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء والصديقين ، ولو لم يعمل خيرا لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث ،ولم يدع كبيرة الا ركبها ، فيكون الرجل عندهم ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان ، وهو مصر على دوام الكذب والخيانة ونقض العهود لا يسجد لله سجدة ،ولا يحسن الى أحد حسنة ، ولا يؤدى أمانة ، ولا يدع ما يقدر عليه من كذب وظلم وفاحشة الا فعلها ، وهو مع ذلك مؤمن تام الايمان ، ايمانه مثل ايمان الأنبياء ، وهذا يلزم كل من لم يقل ان الأعمال الظاهرة من لوازم الايمان الباطن ، فاذا قال : انها من لوازمه ، وأن الايمان الباطن يستلزم عملا صالحا ظاهرا كان بعد ذلك قوله : ان تلك الأعمال لازمة لمسمى الايمان ، أو جزء منه ( نزاعا لفظيا كما تقدم )

٦ - أنه يلزمهم ان من سجد للصليب والأوثان طوعا ، وألقى المصحف فى الحش عمدا ،وقتل النفس بغير حق ، وقتل كل من رآه يصلى ، وسفك

د م كل من يراه بحج البيت ، وفعل ما فعلته القرامطة بالمسلمين ، يجوز أن يكون مع ذلك مؤمنا وليا لله ، ايمانه مثل ايمان النبيين والصديقين ،لأن الايمان الباطن اما ان يكون منافيا لهذه الأمور ، واما ان لا يكون منافيا ، فان لم يكن منافيا أمكن وجودها معه فلا يكون وجودها الا مع عدم الايمان الباطن ،

وان كان منافيا للايمان الباطن كان ترك هذه من موجب الايمان ومقتضاه ولازمه ، فلا يكون مؤمنا في الباطن الايمان الواجب الا من ترك هذه الأمور ، فمن لم يتركها دل ذلك على فساد ايمانه الباطن ، واذا كانت الأعمال والتروك الظاهرة لازمة للايمان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه ، وكان من المعلوم انها تقوى بقوته ، تزيد بزيادته ، وتنقص بنقصانه ، فان الشيء المعلول لا يزيد الا بزيادة موجبه ومقتضيه ، ولا ينقص الا بنقصان ذلك ، فاذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيادة الباطن فيكون دليلا على زيادة الايمان الباطن ، ونقصه لنقص الباطن ، فيكون نقصه دليلا على نقص الباطن وهو المطلوب ، (١)

ان السلف تارة يقولون في الايمان : انه قول وعمل ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية ، واحيانا يقولون : قول وعمل ونية واتباع ، وقال بعضهم : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ، فهذه العبارات ليست متعارضة بل مؤداها واحد ،

يقول ابن تيميه : " قال بعضهم وكثير من المتأخرين : قول وعمل ونية ، وربما قال آخر : قول وعمل ونية واتباع السنة ، وربما قال : قول باللسان

---

١ - الفتاوى ٧ : ٥٨٢

واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ، أى بالجوارح .... وليس بين هـذه العبارات اختلاف معنوى ، ولكن القول المطلق ، والعمل المطلق فى كلام السلف يتناول قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين ، وهذا لا يسمى قولا الا بالتقييد ، كقوله تعالى ( يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ) وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب ، هى من أعمال المنافقين التى لا يتقبلها الله ، فقول السلف : يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر ، لكن لما كان بعض الناس قد لا يفهم دخول النية فى ذلك ، قال بعضهم : ونية ، ثم بين آخرون : أن مطلق القول والعمل والنية لا يكون مقبولا الا بموافقة السنة ، (١)

---

١ ـ الفتاوى ٧ : ٥٠٥ ، وانظر الايمان لابن منده ١ : ٢٥٧ والايمان لابن ابى شيبة وأبى عبيد ،

المبحـــث الثانـــــى :

زيادة الايمان ونقصانه :

ان من جعل الطاعات من الايمان اثبت فيه الزيادة والنقصان ، ومن جعل الايمان القول المجرد منع من الزيادة والنقصان ،

وأما من قال : الايمان هو الاعتقاد فهو يزيد ولا ينقص فان الانسان يصح ان يخرج من حد الجهل الى العلم ، وان يزداد ايمانه بحسب الازدياد فى العمل ، ومن المحال ان يخرج نفسه من العلم اليقينى الى الجهل ، (١)

ذهب القنوجى ـ رحمه الله ـ الى أن الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، يقول : " والايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، ثم استدل على ذلـك بعدة آيات :

قال تعالى :

( فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا ) (٢)

وقال تعالى :

( ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ) (٣)

وقال تعالى :

ويزداد الذين آمنوا ايمانا ) (٤) (٥)

---

١ ـ الاعتقاد للراغب ص : ٣٦١ ، أصول الدين : ٢٥٢
٢ ـ التوبة : ١٢٤
٣ ـ الفتح : ٤
٤ ـ المدثر : ٣١
٥ ـ قطف الثمر ص : ١٢ ، وانظر زيادة الايمان بأعمال الجنان

كما أنه انتقد على الذين يقولون ان الايمان قول واقرار ، وأما العمل فهو خارج منه ، وبناء على هذا فالا يمان لا يزيد ولا ينقص ،

يقول القنوجي ضمن تفسيره قوله تعالى :

( زادتهم ايمانا )

" والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه ، والآية صريحة في زيادة الايمان ،

وقد روى عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان " ( ١ )

وفي هذا دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى ، واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقصان " ( ٢ )

لا شك ان ما ذهب اليه القنوجي في زيادة الايمان ونقصه هو امتداد لمنهج السلف ،

يصور ذلك ابن جرير الطبرى بقوله ان الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، جاء ذلك في بيان معتقده في الايمان ، واعتباره أن القول بزيادة الايمان ونقصه أولى الأقوال بالصواب ،

يقول ابن جرير في ذلك : " وأما القول في الايمان هل هو قول وعمل ، وهل يزيد وينقص أم لا زيادة فيه ولا نقصان ، فان الصواب فيه قول من قال : هو قول وعمل ، يزيد وينقص ، وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول

---

١ - مسلم ١ : ٦٣ ، البخارى ١ : ٥١

٢ - فتح البيان ٤ : ٦ ، بغية الرائد ص : ٤٧

الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه مضى أهل العلم والفضل " (١)

وابن منده عنون في كتابه " ذكر خبر يدل على أن الايمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص ، ثم ساق بسنده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان (٢)" (٣)

وكذلك ابن تيميه بين أن القول بزيادة الايمان ونقصانه هو المأثور عن الصحابة والتابعين وجمهور السلف وهو مذهب المحدثين ،

يقول : " والمأثور عن الصحابة والتابعين وجمهور السلف ، وهو مذهب أهل الحديث ، وهو المنسوب الى أهل السنة ، أن الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية " (٤)

وقال محيي السنة وقامع البدعة الامام أحمد بن حنبل -رحمه الله- :

" الايمان قول وعمل ،يزيد وينقص ، الصلاة والزكاة والحج والبر كله من الايمان ، والمعاصي تنقص من الايمان " (٥)

---

١ - الامام ابن جرير الطبرى ص : ٥٩٠

٢ - مسلم ١ : ٦٩

٣ - الايمان ٣ : ١٤١

٤ - الفتاوى ٧ : ٥٠٥ ، الايمان ص : ١٩١

٥ - مسائل الامام احمد ص : ٢٧٢

المبحـــث الثالـــث :

**الاستثناء في الايمان :**

ذهب العلماء في مسألة الاستثناء في الايمان الى ثلاثة أقوال : طرفان ووسط :

١ - منهم من يوجبه ،

٢ - منهم من يحرمه ،

٣ - ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار ،

أما الذين أوجبوا الاستثناء فلهم مأخذان :

الأول : ان الايمان هو ما مات الانسان عليه ، والانسان انما يكون عند الله مؤمنا أو كافرا باعتبار الموافاة ، وما سبق في علم الله سبحانه أنه يكـــون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ،

وقالوا : ان الايمان الذى يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا ليس بايمـــان ، كالصلاة التى أفسدها صاحبها قبل الكمال ، والصيام الذى يفطر صاحبه قبل غروب الشمس ، وهذا مأخذ كثير من الكلابية ، وعند هؤلاء ان الله يحـــب في الأزل من كان كافرا اذا علم منه أنه يموت مؤمنا ، فالصحابة رضوان اللـــه عليهم أجمعين مازالوا محبوبين قبل اسلامهم ، وابليس مازال الله يبغضـــه وان لم يكفر بعد ،

هذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب ومن وافقهم علـــى ذلك ، وليس هذا قول أحد من السلف والأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان

أحد من السلف الذين يستثنون في الايمان يعللون بهذا ، (١) لان الله سبحانه قال ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ) (٢) فأخبر أنه يحبهم ان اتبعوا الرسول ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم شـــرط المحبة ، والمشروط متأخر عن الشرط ،

ثم صار الى هذا القول طائفة غلوا فيه ، حتى صار الرجل يستثنى فـــى الأعمال الصالحة ، يقول : صليت ان شاء الله ، ونحو ذلك ، ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء ، فيقول أحدهم ، هذا ثوب ان شاء الله ، هذا حبل ان شاء الله ، فاذا قيل لهم هذا لا شك فيه ، يقولون : نعم ، لكن اذا شاء الله أن يغيره غيره ،

الثاني : ان الايمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كلـــه ، وترك ما نهاه عنه كله ،فاذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار ، فقـــد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين ، القائمين بجميع ما أمروا به ، وترك مـا نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله المقربين ، وهذا تزكية الانسان لنفسـه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنـــة ان مات على هذه الحال ، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وان جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سياتي ان شاء الله تعالى ،

ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه ، كما قال تعالـــــى : ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ) (٣) وقال صلى الله عليه

---

١- انظر الايمان لابن تيمية ص : ٣٧٦

٢ - آل عمران : ٣١

٣ - الفتح : ٢٧

وسلم حين وقف على المقابر : " وانا ان شاء الله بكم لاحقون " ( ١ ) وقال ايضا : " انى لارجو أن أكون أخشاكم لله ( ٢ ) " ( ٣ )

„ وأما الذين يحرمون الاستثناء هم المرجئة والجهمية ونحوهم ، ممن يجعل الايمان شيئا واحدا ، يعلمه الانسان من نفسه ، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما فى قلبه ، فيقول أحدهم : أنا أعلم انى مؤمن كما أعلم أنى تكلمت بالشهادتين ، وكما أعلم أنى قرأت الفاتحة ، وكما أعلم أنى أحب رسول الله ، وأنى أبغض اليهود والنصارى ، فقولى أنا مؤمن كقولى أنا مسلم ، وكقولى تكلمت بالشهادتين ، وقرأت الفاتحة ، وكقولى أنا ابغض اليهود والنصارى ، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التى أنا أعلمها وأقطع بها ، وكما أنه لا يجوز أن يقال أنا قرأت الفاتحة ان شاء الله ، وكذلك لا يقول أنا مؤمن ان شاء الله ، لكن اذا كان يشك فى ذلك فيقول فعلته ان شاء الله ، قالوا فمن استثنى فى ايمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة „ ( ٤ )

وأجابوا عن الاستثناء الذى فى قوله تعالى :

( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ) بأنه يعود الى الأمن والخوف ، فأما الدخول فلاشك فيه ، وقيل : لتدخلن جميعكم أو بعضكم ، لأنه علم أن بعضهم يموت ، وفى كلا الجوابين نظر ، فانهم وقعوا فيما فروا منه ، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين ، مع علمه بذلك ، فلاشك فى الدخول ولا فى الأمن ، ولا فى دخول الجميع أو البعض ، فان الله قد علم من يدخل فلاشك فيه ايضا ، فكان قول : ان شاء الله هنا

---

١ - مسلم ٧ : ٤٠ ( نووى )
٢ - البخارى ٩ : ١٠٤ ، مسلم ٢ : ٧٧٩
٣ - انظر شرح الطحاوية ص : ٣٩٥
٤ - الايمان لابن تيميه ص : ٣٧٣

تحقيقا للدخول ، كما يقول الرجل فيما عزم على شئ أن يفعله لا محالة :
" والله لأفعلن كذا ان شاء الله ، لا يقولها لشك فى ارادته وعزمه ، ولكن
انما لا يحنث الحالف فى مثل هذه اليمين ، لأنه لا يجزم بحصول مراده " (١)

وأما من يجوز الاستثناء وتركه - وهو أصح الأقوال - فهم أسعد بالدليل
من الفريقين ، وخير الأمور أوسطها ، فان أراد المستثنى الشك فى أصل
ايمانه منع من الاستثناء ، وهذا مما لا خلاف فيه ، وان أراد أنه مؤمن من
المؤمنين الذين وصفهم الله فى قوله : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله
وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ،
الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، اولئك هم المؤمنون حقا لهم
درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ) (٢) وفى قوله تعالى : ( انما
المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
فى سبيل الله وأولئك هم الصادقون ) (٣) فالاستثناء حينئذ جائز ،
وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة ، وكذلك من استثنى تعليقا
للأمر بمشيئة الله ، لا شكا فى ايمانه ، (٤)

أما القنوجى فقد أيد مذهب السلف فى مسألة الاستثناء فى الايمان ،
واعتبر قول القائلين بالاستثناء اولى بالحق والصواب ،

يقول القنوجى فى ذلك : " والحق ان النزاع لفظى وقد ذهب الى الجواز
كثير من السلف حتى الصحابة والتابعين "

---

١ - شرح العقيدة الطحاوية ص : ٣٩٧
٢ - الأنفال : ٢-٤
٣ - الحجرات : ١٥
٤ - المرجع المذكور ص : ٣٩٨

واستطرد قائلا :

" قال على القارى الحاصل ان المستثنى اذا اراد الشك فى أصل ايمانه منع من الاستثناء ، وهذا لا خلاف فيه ، وأما اذا أراد أنه مؤمن كامـــل ، أو ممن يموت على الايمان فالاستثناء جائز " ( ١ )

لا يخفى على القارى أن ما ذهب اليه القنوجي - من تجويزه الاستثناء فى الايـمان للمؤمن كامل الايمان ، ومنعه لمن أراد الشك - هو تأييد لمذهب السلف ، ( ٢ )

---

١ - الانتقاد الرجيح ص : ٦٠

٢ - انظر التفصيل فى كتاب الايمان لابن تيمية ص : ٣٨١

## المبحـــث الرابـــع :

### العلاقة بين الاسلام والايمان :

العلاقة
ان علماء السلف تكلموا عن الاسلام والايمان و بينهما ، فالقنوجى يرى ان معنى الاسلام والايمان متغايران فى اللغة ، أما فى الشرع فكل واحد منهما مكمل للآخر ، فالايمان لا يتحقق الا بالاسلام كما ان الاسلام لا يتحقـــق الا بالايمان ،

يقول القنوجى : " ان الايمان والاسلام واحد ، لأن الاسلام هو الخضوع والانقياد بمعنى قبول الأحكام الشرعية ، وذلك حقيقة التصديق ، ويؤيـده قوله تعالى : ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غيـــر بيت من المسلمين ) (١)

وفى طريق اللغة فرق بينهما لكن لا يصلح فى الشرع أن يحكم على أحـــد بأنه مؤمن وليس بمسلم ، أو مسلم وليس بمؤمن ، لأنه لا يكون اسلام بـــلا ايمان ، ولا ايمان بلا اسلام ، ولا نعنى بوحدتهما سوى ذلك " (٢)

وقال ايضا : " الاسلام : هو انقياد الجوارح والأركان والأعضاء للشـــرع الشريف ،

والايمان : هو تصديق القلب والجنان والفؤاد ، .....

فمن جمع بين هذه فقد استكمل الايمان ، ومن أخل بشئ منها فهو من الايمان فى خسران أو نقصان " (٣)

---

١ ـ الذاريات : ٣٦
٢ ـ الانتقاد ص : ٥٩
٣ ـ الدين الخالص ٣ : ١٠٦ ، تقوية الايقان ص : ٣

هذا وكما يرى القنوجي ان الايمان هو الأساس ، وان المؤمن قد ينزل من الايمان الى الاسلام ،

يقول القنوجي مستدلا على ذلك : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) ( ١ )

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بنى الاسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت " ( ٢ )فهذا حقيقة الاسلام ،

وأما الايمان فقد روى عن عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما الايمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله ، قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت قال نعم " ( ٣ )

وحديث سعد بن ابى وقاص : " انى لأراه مؤمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلما ، فذكر ثلاثة وأجابه بمثل ذلك " ( ٤ )

ثم يقول القنوجي بعد ذلك : " فعلى هذا قد يخرج الرجل من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام الا الى الكفر بالله - تبارك وتعالى - أعاذنا الله منه " ( ٥ )

---

١ - الحجرات : ١٤

٢ - البخارى ١ : ٤٩ ، مسلم ١ : ١٧٧ ( نووى )

٣ - تقدم

٤ - البخارى ١ : ٧٩

٥ - قطف الثمر : ١٣

يتبين من كلام القنوجي في مسألة العلاقة بين الاسلام والايمان تأييده وامتداده لمذهب السلف ، ولمزيد من الايضاح نذكر بعض أقوال علماء السلف :

قال ابن تيميه : " التحقيق هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ، ففسر الاسلام بالأعمال الظاهرة ، والايمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم ،

وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام ، اذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع ، وهذا هو الواجب " ( ١ )

يقول شارح العقيدة الطحاوية : " فالحاصل ان حالة اقتران الاسلام بالايمان غير حالة افراد أحدهما عن الاخر ، فمثل الاسلام من الايمان ، كمثل الشهادتين احداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان ، واحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد ، كذلك الاسلام والايمان ، لا ايمان لمن لا اسلام له ، ولا اسلام لمن لا ايمان له ، اذ لا يخلو المؤمن من اسلام به يتحقق ايمانه ، ولا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ، ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة " ( ٢ )

ويقول صاحب أضواء البيان ضمن تفسيره لقوله تعالى :

( قالت الأعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا )

---

١ - الايمان ص : ٢٢١

٢ - شرح العقيدة الطحاوية ص : ٣٩٢

" ذكر جل وعلا في هذه الاية الكريمة ان هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا امنا ، وان الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم : ( لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) وهذا يدل على نفي الايمان عنهم وثبوت الاسلام لهم ،

وذلك يستلزم أن الايمان أخص من الاسلام لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، . . . . . .

وان الايمان المنفي عنهم في هذه الاية هو مسماه الشرعي الصحيح ، والاسلام المثبت لهم فيها هو الاسلام اللغوى الذى هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب ،

وانما ساغ اطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الاسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح ، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر وأن توكل السرائر الى الله " ( ١ )

---

١ - أضواء البيان ٧ : ٦٣٦

## المبحث الخامس :

### حكم مرتكب الكبيرة :

قبل أن نبدأ القول في حكم مرتكب الكبيرة ، يجدر بنا أن نذكر آراء العلماء في الكبيرة ، التي ذكرها القنوجي ،

وقد اختلف أهل الأصول في تحقيق معنى الكبائر :

قيل : ان الذنوب كلها كبائر ، وانما يقال لبعضها صغيرة بالاضافة الى ما هو أكبر منها ، كما يقال الزنا صغيرة بالاضافة الى الكفر ، والقبلة المحرمة صغيرة بالاضافة الى الزنا ،

وقيل : ان المراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سببا لتكفير السيئات هي الشرك ، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ "إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه" وعلى قراءة الجمع فالمراد أجناس الكفر ، واستدلوا على ما قالوه بقوله تعالى : ( ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) (١)

وقال ابن عباس : الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب ، (٢)

وقال سعيد بن جبير : كل ذنب نسبه الله الى النار فهو كبيرة ،

وقال جماعة من أهل الأصول : كل ذنب رتب الله عليه الحد ، أو صرح بالوعيد فيه ، (٣)

---

١ - النساء : ٤٧

٢ - جامع البيان ٥ : ٤١

٣ - فتح البيان ٢ : ٢٦٢

بعد أن ذكرنا ما أشار اليه القنوجي من الأقوال حول الكبيرة ، نبدأ بذكر أكثر الفرق انحرافا في حكم مرتكب الكبيرة ،

الخوارج : ان مرتكب الكبيرة كافر خارج من الايمان مخلد في النار ،

المعتزلة : انه ليس بكافر ولا مؤمن بل في منزلة بين المنزلتين ،

المرجئة : انه لايحكم على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب، وان الذنب مهما عظم لا يذهب بالايمان ،

أما القنوجي فقد يرى ان مرتكب الكبيرة مؤمن وهو من عصاة الموحدين ، ولا يخلد في النار ، وأنه تحت مشيئة الله تعالى ، ان شاء غفر له وان شاء عذبه ،

يقول القنوجي في معرض تفسيره لقوله تعالى :

( ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء )

" ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك اذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته ، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ،

قال ابن جرير ( ١ ) : " قد أبانت هذه الاية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل " وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة ، وان لم يقع من ذلك المذنب توبة ،

وقد تقدم قوله تعالى : ( ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ) ( ٢ )وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب

---

١ - جامع البيان ٥ : ١٢٦
٢ - النساء : ٣١

الكبائر ، فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته ،

وقد روى عن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم " ان الله لا يغفر " الاية ، وقال : انى ادخرت دعوتي وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ،(١)

وعن ابن عباس قال في هذه الاية ان الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر ، وأرجأ أهل التوحيد الى مشيئة فلم يؤيسهم عن المغفرة " (٢)

ويقول القنوجي ايضا في تفسيره لقوله تعالى :

( بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة ) (٣)

" قيل : هي الشرك قاله ابن عباس ومجاهد ، (٤)

وقيل : هي الكبيرة ، وتفسيرها بالشرك أولى ، لما ثبت في السنة تواترا من خروج عصاة الموحدين من النار ، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود ، وان كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعليه اجماع المفسرين ، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج " (٥)

---

١ـ قال الهيثمي : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة ، مجمع الزوائد ٧ : ٥

٢ـ فتح البيان ٢ : ٢٩٧

٣ـ البقرة : ٨١

٤ـ جامع البيان ١ : ٣٨٤

٥ـ فتح البيان ١ : ١٧١

تعقيـــــب :

لا ريب ان ما ذهب اليه القنوجي في حكم مرتكب الكبيرة وعدم تخليده فـي النار ، هو تأييد لمذهب السلف من وجه ودفاع عن عقيدتهم من وجه آخر ، يبين ابن جرير رأيه أن أهل الكبائر غير مخلدين في النار ، وذلك عنـد تفسيره لقوله تعالى :

( ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليـه ولعنه وأعد له عذابا أليما ) (١)

يقول : " وأولى القول في ذلك بالصواب قول من قال معناه ، " ومـن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه " ان جزاءه جهنم خالدا فيها ، لكنه يعفـو أو يتفضل على أهل الايمان به وبرسوله ، فلا يجازيهم بالخلود فيها ، ولكنـه عز ذكره اما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار ، واما أن يدخله اياها ثـم يخرجه منها بفضل رحمته لما سلف عنده من وعده عباده المؤمنين بقولـه :

( يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان اللـه يغفر الذنوب جميعا ) (٢)

فان ظن ظان ان القاتل ان وجب ان يكون داخلا في هذه الاية ، فقد يجب أن يكون المشرك داخلا فيها ، لأن الشرك من الذنوب ، فان اللـه عز ذكره قد أخبر أنه غير غافر الشرك لأحد بقوله : ( ان الله لا يغفـر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) (٣) والقتل دون الشرك " (٤)

---

١ - النساء : ٩٣
٢ - الزمر : ٥٣
٣ - النساء : ٤٨
٤ - جامع البيان ٥ : ٢٢١

ويقول الطحاوى رحمه الله :

" وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى النار لا يخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون ، وان لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين ، وهم فى مشيئته وحكمه ، وان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل فى كتابه : ( ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) (١) وان شاء عذبهم فى النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم الى جنته " (٢)

---

١ ـ النساء : ٤٨

٢ ـ العقيدة الطحاوية ص : ٤٥